# زمن البراءة

## النيل بطعم الجوافة

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : زمن البراءة النيل بطعم الجوافة
التأليف : أ.. حلمي محمد القاعود
موضوع الكتاب : سيرة ذاتية
عدد الصفحات : 253صفحة
عدد الملازم : 16 ملزمة
مقاس الكتاب : 14* 21
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :2693 /2024
الترقيم الدولي : 978 - 977 -669- 881

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

أ. د. حلمي محمد القاعود

# زمن البراءة

## النيل بطعم الجوافة

بسم الله الرحمن الرحيم

# 1 - شبكة عائلية كبيرة

### النهر يجمع النساء:

على ضفة النهر من فرع رشيد في شاطئه الغربي، تقع قريتي. يوم ولدت كانت قليلة السكان، لا تتجاوز ألف نسمة، معظم أهلها أقارب، وحين كنت أتعلق بثوب أمي يوم السوق - وكان يوم السبت - كانت معظم النساء خالاتي أو عماتي أو جداتي بطريقة قريبة أو بعيدة، فالقرية شبكة عائلية كبيرة، ودائمًا يتجمعون في الأفراح والأحزان، وكان النهر يجمع النساء على مدار اليوم، وخاصة في الصباح والمساء، يحملون الجرار لملئها بالماء في الصباح الباكر؛ لأنه ماء رائق تُملأ به الخوابي والأزيار التي تنقط هذا الماء، فما كان للناس عهد بماء الحكومة الذي يجري في المواسير القادمة من محطة تكرير المياه على بعد عدة أميال، أو ما يعرف الآن بماء الحنفيات، وعلى امتداد النهر كان النهر مكانًا لغسل الأواني والثياب، وأيضًا لشرب الحيوانات واستحمامها أيام الصيف.

وقبيل الغروب يحمل النساء الجرار مرة أخرى لمزيد من الماء الذي يستخدم في أمور أخرى غير الشرب .. والنهر - إلى جانب ذلك - مكان جيد لتربية البط والإوز. تظل أسراب كل منهما تعوم منذ خيوط الصباح الأولى حتى غروب الشمس، فتخرج وتسير في طابور منتظم إلى البيوت، حيث تبيت وتبيض أو تستعد للرقاد على البيض، وإنتاج كتاكيت صغيرة، تقودها إلى النهر؛ حيث الطعام الوفير من الأسماك الصغيرة ونحوها من معطياته. أسراب البط والإوز تعرف بيوتها جيدًا، لا تتوه عنها بعد رحلتها اليومية على صفحته. قد تتخلف واحدة في بعض الأحراش لمدة أسابيع، ولكنها تعود وهي تقود سربًا من الكتاكيت الصغيرة عائدة إلى البيت.

### وسيلة المواصلات الوحيدة:

كان ما يهمني على شاطئ النهر وجود القوارب الشراعية وقوارب الصيادين .. القوارب أو المراكب كانت وسيلة المواصلات الوحيدة تقريبًا بيننا وبين المدينة المركزية في المنطقة،

وهي مدينة دسوق، التي توجد على الضفة الشرقية للنهر، وبها المسجد الإبراهيمي، ويوجد به ضريح للصوفي المعروف إبراهيم الدسوقي، وشقيقه موسى العمران، ونصل إليها في خط مائل، وفي المقابل - وعلى خط واحد للقبلة - يوجد قي قريتنا مسجد أبي المجد. وقد سميت باسمه الآن "المجد"، وكانت تسمى قبل ذلك باسم "مَرْقَص" (اسم مكان من الفعل رقص)، ولا أعرف لماذا سميت بهذا الاسم، وإن كانت توجد ترعة طويلة تمر بجانبها الغربي، اسمها ترعة ساحل مرقص، تمتد من المدخل الجنوبي لمدينة التوفيقية، وتنتهي عمليًّا عند مدينة المحمودية، وتعتمد عليها من الجانبين مئات الأفدنة الزراعية في الري.

**الرضا والقناعة:**

القوارب كانت مصدر رزق لعدة عائلات، وإن كان هذا الرزق محدودًا للغاية، ولكن أصحاب القوارب – وكان بعضهم من أقاربي – يعيشون بالرضا والقناعة، وكانوا ينتظرون يوم الخميس أسبوعيًّا؛ حيث كان موعد السوق الأسبوعي في دسوق، ويذهب الناس إلى هناك لبيع حيواناتهم أو الحبوب التي تفيض عندهم، أو الطيور والدواجن، أو بعض الجبن والسمن، ويشترون في المقابل ما يحتاجونه من أغراض منزلية وأقمشة وأدوية ومستلزمات زراعية ونحوها. في يوم السوق يزداد عدد الركاب في القوارب، ويزيد الرزق نوعًا ما، فيكون ذلك وسيلة لأصحابها؛ من أجل الوفاء ببعض مستلزمات البيت الأساسية لتصنيع الخبز، وبعض البقوليات، وكيروسين الإضاءة وما أشبه.

**شاي على نار الخشب:**

ولكني كنت أفرح بمتابعة المراكب التي يتم إخراجها من الماء لإصلاحها بأخشاب جديدة، وكان ذلك يستغرق وقتًا غير قصير، قد يمتد لشهر أو شهرين، وكان المعلم النجار الذي يقوم بالإصلاح يبدو دقيقًا في صنعته، وبعضهم كان صاحب تجارب حياتية يحكيها في تؤدة واهتمام، والجالسون حوله من المراكبية وغيرهم، يتابعونه على إيقاع تناول الشاي في أكواب صغيرة بعد إنضاجه على نار الخشب القديم، وهم معجبون بسرده التلقائي المؤثر، الذي لا يحول بينه وبين استخدام أدوات النجارة أو الأزميل الذي يسدّ به ما بين ألواح الخشب، مستخدمًا حشو الكتان. وكان معظم من يحضرون حول المركب يدخنون

السجائر، التي يلفونها في ورق رقيق اسمه (البافرة)، ولكن بعضهم كان يدخن المعسّل من خلال الجوزة.

**الهاتف الوحيد:**

بيد أن معظم الأهالي كانوا يعملون بالزراعة .. يخرجون بعد صلاة الفجر والإفطار، ويجرون مواشيهم، ويظلون في الحقول حتى المساء، وعند الظهيرة تذهب إليهم النساء أو الصبيان بوجبة الغداء، وأدوات الشاي، وقُلّة كبيرة مليئة بالماء المنقوط أو النقي.

كانت معظم بيوت القرية من الطوب اللبن (النيئ)، باستثناء عائلة واحدة، كانت تمثل الثراء والغنى، ومنها عمدة القرية وشيخ البلد، فكانت بيوتها من الطوب الأحمر، ومطلية طلاء حسنًا، وكان لديها الهاتف الوحيد في القرية عندما دخلت تلفونات الأرقام، بالإضافة إلى الهاتف الحكومي التابع للشرطة وهو بلا رقم، وله يد تدار، فيرد العسكري المختص في نقطة الشرطة، ومن هناك يتم الاتصال بالمركز أو المديرية.

وكان مسجد القرية - واسمه مسجد (أبي المجد) - يمثل امتدادًا لبيوت القرية، حيث يستخدمون مرافقه للوضوء والاغتسال أحيانًا، فضلا عن قضاء الحاجة، ثم قضاء أوقات الفراغ في ساحته، والتجمع في طرقته الممتدة، وكانت هناك مدرسة ابتدائية وحيدة، كانت تسمى الإلزامية، وتنتهي في الصف الرابع، وعندما دخلتها عام 1952م، امتدت إلى الصف السادس، حيث تنتهي المرحلة الابتدائية، تأتي بعدها المرحلتان الإعدادية والثانوية، وكل منهما ثلاث سنوات، وكان الأمر قبل ذلك مختلفًا.

**الرهبة والغموض:**

في أقصى الناحية الغربية كانت توجد مدافن القرية، وفي طفولتي كانت تختلط لدي المشاعر تجاهها، ولكن الشعور الأبرز كان هو الرهبة والغموض، فهناك ذهبت جدتي لأبي فجأة دون أن تمرض، وأخي الصغير الذي جاء بعدي وبعد أخي التالي لي، ثم ذهبت جدتي لأمي، وخالتي .. وكنت أخشى المرور من هناك وحدي، مع أني أسير في الطريق العام.

بيد أن الأمر اختلف حين كبرت، وأودعت هناك خيرة أحبابي من أهلي، فقد صار الأمر مألوفًا، وأصبح الرضا بقدر الله منهجًا في حياتي.

كانت القرية في طفولتي واسعة، تشعر فيها بالراحة والسكينة والهدوء، ولا يعكر صفوها إلا موكب السيدات الصارخات النائحات لابسات السواد، عندما يموت أحد الأهالي. لقد ظل هذا المنظر مرعبًا، وخاصة أنه كان يتكرر مرتين؛ عند إعلان الوفاة، وعند موعد الدفن، وتكون المحنة أكبر عندما يموت أكثر من واحد، أو عندما يكون الميت في مرحلة الشباب. كان النحيب يتعالى، والأصوات الملتاعة ترتفع، وكل ذلك كان يهز كياني! وظل هذا المنظر المرعب ساريًا حتى قيض الله للقرية إمامًا طيبًا، فكان يتصدى للنساء في مواكبهن، وكن أحيانًا يضعن على أنفسهن الطين حين يكون الميت عزيزًا أو غاليًا. كان الشيخ بدوي يعترضهن ويذكرهن بالآيات والأحاديث والقضاء والقدر، وأخذت الظاهرة تتلاشى، ومع وصول مكبرات الصوت إلى المساجد فقد صار الأمر الآن قاصرًا على الإعلان عن الوفاة من خلاله؛ لتذكير الناس بموعد الجنازة كي يتهيأوا لها. وقد استرحت لذلك، وأعتقد أن الناس استراحوا إلى ذلك أيضًا، فقد وفروا على أنفسهم وعلى نسائهم منظرًا موحشًا ومؤلمًا وغير كريم.

### مباراة غير متكافئة:

كانت القرية مليئة بالمناطق الخالية والساحات الفارغة، وكان الفلاحون يستخدمونها أجرانًا لدراسة القمح، والأرز، وتقشير الذرة، وتجميع أكوام السماد البلدي (السباخ)، وكان الأطفال والشباب يتخذون منها ملاعب لكرة القدم، وإقامة المباريات بين أهل قبلي وأهل بحري، أو بين منتخب القرية وفرق القرى المجاورة. وأذكر أننا - نحن الشباب - كنا نتجرأ لاستضافة فريق المدينة (دسوق) القوي، لنواجهه في مباراة غير متكافئة، تنتهي عادة بهزيمتنا، ولكننا نحصد شرف المقاومة والتحدي، والتعرف على لاعبي الفريق القوي.

### المياه الحمراء:

بيد أن النهر يبقى دائمًا هو المبتدأ والمنتهى. كنا في شهور الصيف، وخاصة يوليو وأغسطس، ننتظر الفيضان أو المياه الحمراء، كان النهر يتخلى عن سكونه وهدوئه،

ويتحرك بقوة وسرعة قادمًا من الجنوب إلى الشمال، ويتغير لون مائه من الأزرق الصافي إلى البني الغامق؛ وهو سبب تسمية الفلاحين والمراكبية له بالمياه الحمراء. إنها مخلوطة بالطمي الذي يحمله التيار القادم من هضبة الحبشة وأرض السودان، فيفيض على أرض الوادي قوة وتجديدًا، بما يحمله من رواسب طينية ومعادن تغسل الحقول وتمنحها العافية؛ مما يجعلها لا تحتاج إلى سماد كيماوي أو عضوي كثير، إنه يزيد خصوبتها وإنتاجها، وخاصة أراضي الشواطئ التي تسمى طرح البحر، وكنا نسميها "المريس"، فقد كان الماء يغمرها تمامًا، وبعد انحساره تعطي محصولا وافرًا لا تنال منه الآفات أو الأملاح .

وقد ارتبط الفيضان في وجداني بالجوافة .. فقد كانت على حدود قريتنا مع بلدة الرحمانية المجاورة من ناحية الشاطئ مساحة مرتفعة نوعًا ما، ونادرًا ما يغطيها الفيضان، وكانت مزروعة بأشجار الجوافة، وكان طعمها من أحلى ما ذقت من أنواعها، وكان بينها أشجار تثمر ثمارًا لونها أحمر من الداخل، كنا نسميها الجوافة الحمراء، ونفرح بها نحن الصغار.

**الفيضان والجوافة:**

وكان الفلاحون ينتظرون مياه الفيضان كل عام بترقب ولهفة، وفضلا عن أهميتها بالنسبة للأرض الزراعية، فقد كانوا يستشفون بشربها، وخاصة في الصباح الباكر، ويرون أنها تذهب الأمراض، ولكنهم في استخدامها العادي للشرب كانوا يستخدمون الشبة البيضاء في ترويقها أو ترسيب الطمي والشوائب أسفل الجرار أو الأواني؛ ومن ثم يشربون من أعلاها الماء النقي، ويتركون الجزء الأسفل الذي يمتلئ بالرواسب.

ثم إن الجائزة السريعة للفيضان التي كان ينتظرها الفلاحون كانت السمك الذي يحمله التيار، قادمًا من الجنوب، أو يحركه من الأعماق الساكنة. كان السمك متنوعًا، وبالإضافة إلى البلطي والقراميط، فقد كان هناك البوري والبياض واللبس والثعبان وأم عبية والفطورة، وكلها كانت لذيذة الطعم، عذبة المذاق، لها نكهة جميلة.

كان صيد السمك لا يقتصر على الصيادين المحترفين الذين يستخدمون القوارب الصغيرة والشباك والسنار، والغزل الطويل الذي يمتد عشرات الأمتار، ويرفعه الفلين على سطح الماء، ويهبط به الرصاص تحته .. بل كان الفلاحون يقومون باستخدام شبكة صغيرة عريضة يحدها من طرفيها ما يشبه العصا الغليظة، ويسمونها (الشلب)، ويقوم على استخدامها شخصان، كل منهما يمسك طرفًا ويهبطان بالشبكة بحيث يغطيها الماء، ويسيران بها بالقرب من الشاطئ، وهي قائمة على مسافة ما، ثم يرفعانها أفقيًّا، فيجدان في مركزها سمكة أو أكثر، ويظلان كذلك حتى يجمعا ما يقنعان به، فيقتسمانه مع الصبي أو الشخص الذي يتابعهما على الشاطئ، ويجمع ما يقذفانه إليه من رزق.

**سكن النهر وتجهم:**

الآن الزمان اختلف، والنهر اختلف، والقرية لم تعد تلك التي كانت قبل ستين عامًا أو يزيد!

سكن النهر وتجهم، ولم يعد ذلك الكائن الحيّ الذي كان يستشفي به الفلاحون الفقراء، ويفيدون منه زراعيًّا، ويأكلون أسماكه لحمًا طريًّا ..

عندما تم بناء السد العالي عام **1967**م توقف الفيضان، ولم تأت المياه الحمراء، ورويدًا رويدًا اختفى السمك أو كاد بعد أن جرّفه التجار الذين يستخدمون الشباك الضيقة أو الغزل الضيق، فاختفى صغير السمك وكبيره جميعًا، واعتمد الناس على سمك المزارع التي تعيش على مياه الصرف الزراعي، أو الأقفاص الحديدية التي يضعونها في النهر وبداخلها زريعة مستوردة من المزارع المذكورة، وهي تسهم في تلويث النهر بما تضعه من مواد غير صالحة لنمو الزريعة.

أضف إلى ذلك، أن عديدًا من مصانع الكيماويات والزيوت والعوامات والفنادق العائمة وبواخر السياح تصرف فضلاتها المسمومة والملوثة في البحر الحزين، فصار ماؤه الراكد لا يساعد على تكاثر الأسماك، ويصيب المواطنين بأمراض كثيرة نتيجة شرب مياهه التي لا تجدي معها المعالجات الكيماوية، وصارت الإصابات بالفشل الكلوي

والكبدي والأمراض المعوية والسرطانية بلا حصر، وسوف أكرر هذا الكلام فيما سيأتي من صفحات؛ لأذكر من يقرأ أن النيل في خطر، والمصريين في خطر أكبر.

**كتلة خرسانية:**

لقد تحولت القرية إلى كتلة خرسانية كئيبة مزدحمة، ليس فيها ملعب أو ساحة أو جرن، واختفى المريس الذي كانت خضرته تبهج الناظرين قبل مطالعة مياه النهر، فقد امتدت إليه الكتلة الخرسانية، التي أكلت كثيرًا من الأراضي الزراعية بعد أن هاجر كثير من أصحابها إلى الخليج؛ سعيًا وراء رزق أوسع، ولو كان مغموسًا بالمتاعب والآلام وضياع الكرامة.

الكتلة الخرسانية الآن مسكونة بالضجيج والأصوات المزعجة، بدءًا من أصوات التوك توك، الذي يعد بتسجيلاته الصوتية صالة ديسكو متنقلة، إلى مكبرات الصوت التي يستخدمها الباعة الجائلون وأصحاب الأفراح وسرادقات المآتم.

اختلف الزمان ولم تعد القرية الهادئة المطمئنة التي أحببتها، وفضلت سكناها – مع مشقة السفر اليومي إلى جهة عملي – على سكنى المدينة الصاخبة التي لا تتسق مع طبيعتي ورغبتي في الهدوء والسكينة.

يبدو أنه لم يعد أمامنا غير الصحراء، لعل في تعميرها فرصة لاستعادة الحياة الهادئة الوادعة التي يحلم بها كثيرون.

**أقسى الشهور:**

كان الشاعر والناقد الأنجلو أمريكي ت. س. إليوت - صاحب القصيدة الطويلة الشهيرة "الأرض اليباب" - أبرز من تحدث عن شهر أبريل بوصفه أقسى الشهور حيث تتغير الطبيعة، وتنتقل من الكمون والجمود إلى الحيوية والنشاط، بما يستتبع ذلك من معاناة الانتقال والتحول من حال إلى حال.

وفي شعرنا القديم والحديث قصائد عديدة عن الربيع، وما يرمز إليه في الحياة من خصوبة وولادة جديدة، يصحبها مخاض قاس وآلام ميلاد، تعلن عن حياة جديدة لكائن جديد!

كنت ممن أتوا إلى الحياة في أوائل أبريل عام **1946**م، لا أعلم متى انطلقت الصرخة، هل كانت ليلا أو نهارًا، ولكن الغالب كانت في الفجر، فقد سمعت أمي وجدتي وخالتيّ، يتحدّثن عن استقدام أبي للقابلة في وقت متأخر من الليل، ولعلها جاءت مع اللحظات الأخيرة في المخاض، وكان الميلاد فجرًا، لتبدأ حياة طفل ضعيف البنية كثير العناء، جاءت قبله طفلتان سبقتاه إلى الوجود، ولكنهما رحلتا عنه في سن صغيرة قد تكون سنة أو سنتين - لا أدري - وخلفا لوعة حرّى، لم تتلاش أو تخف حدتها إلا بعد وصول الطفل العليل الذي هو أنا.

**مواضعات ريفية:**

ومن أجل أن يبقى الطفل كانت الأحجبة والرقى والتسول في المدينة بالطفل، وغير ذلك من مواضعات اجتماعية ريفية كي يعيش، ولا يلحق بأختيه اللتين سبقتاه .. كانت العادات التي تسود البيئة الفقيرة المتواضعة تدفع إلى فعل أي شيء من أجل غاية بسيطة أو طبيعية، وكانت الأم على استعداد أن تفعل أي شيء ليعيش الوليد الذي جاء بعد سنوات عديدة من الزواج، ومن عمليتي حمل وولادة لم يكتب لهما النجاح. وقد فعلت ما استطاعت بغريزة الأم التي ترفع يديها إلى السماء؛ ليحقق الله أمنيتها، بإبقاء الطفل على قيد الحياة.

كانت تسمية الطفل آتية من الطرف الجنوبي للقرية أو بدايته بمعنى أدق، حيث بيت جدتي لأمي، كان بيت أبي وجدتي لأبي في القسم الشمالي، قالت جدتي لأمي: إنها رأت في المنام من يهتف لها أن تسمي الوليد الذي هو أنا باسم "حلمي" .. وقد كان.

**على قدم وساق:**

صار الطفل محط اهتمام الأسرة والجيران، ولأن بنيته ضعيفة فقد كانوا يقفون جميعًا على قدم وساق إذا أصيب بنزلة برد أو ارتفاع في درجة الحرارة. كانت الإمكانات الطبية

يومئذ محدودة. في المركز كله يوجد طبيب واحد يعالج المرضى والمصابين، وطبيب آخر يسمى حكيم الصحة، مهمته الرسمية غالبًا مرتبطة بالحوادث والوفيات، واستخراج الشهادات الخاصة بالمواليد والموتى والإصابات، والتطعيم ورش المنازل والأفراد بالمبيدات التي تقاوم الحشرات والأمراض المتوطنة، ونادرًا ما كان يلجأ الناس إليه للعلاج، فقد كان منصبه أقرب إلى الإدارة منه إلى التعامل مع المرضى.

كانت هناك قرية تبعد عن قريتنا نحو عشرة كيلو مترات، وتقع شمال جسر دسوق المشهور، اسمها سمخراط، ومنها عائلة الوكيل المشهورة، وزينب الوكيل زوج الزعيم الوفدي مصطفى النحاس باشا، وكان بها مستشفى أو وحدة صحية بنيت على النمط الإنجليزي، ولعل لأسرة الوكيل ذات النفوذ آنئذ؛ دور في بناء هذه المستشفى، وكان بها طبيب مشهور في المنطقة بين الفلاحين باسم الحاج سوسو، واسمه الأصلي محمود سوسو، وكانت له عيادة في بيت قديم بالقرية؛ عبارة عن غرفة، لعلها كانت مندرة أهل البيت، أي غرفة الاستقبال، وأمامها صالة صغيرة، بها بعض الكنبات القديمة لانتظار المرضى، وكان الفلاحون من القرى المجاورة يتدفقون عليها، ويدفعون كشفًا قدره خمسة عشر قرشًا، وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الوقت، ولكنهم كانوا يتخذون من هذا الكشف وسيلة لدخول المستشفى والبقاء فيها أيامًا أو أسابيع للعلاج، وكانت المستشفى آنئذ تقدم علاجًا حقيقيًّا في العيادات الخارجية أو الداخلية، ولكن الأهم من وجهة نظر الفلاحين الفقراء كان ما تقدمه المستشفى للمحتجزين بداخلها، ووجبات الطعام الدسمة التي تشتمل على اللحوم والخضار، الشيء الذي يفتقدونه في بيوتهم غالبًا إلا في المواسم والأعياد.

### سوء التغذية:

كان دخول المستشفى فرصة لمعالجة سوء التغذية، وقد رأيت الحاج سوسو يعيد قيمة الكشف لفلاحة كانت تكشف على ولديها، ويضيف إليه ريالا، وقال للمرأة خذي هذا لتشتري به فراخًا للولدين، وطالبها أن تهتم بتغذيتهما حتى يتحسّنا.

في الخمسينيات أنشئت صيدلية جديدة في مدينة دسوق، وكان أصحابها يحاولون جذب الزبائن المرضي بتخفيض الأسعار، وإلى جانب ذلك كانوا يقدمون نوعًا من المساعدة

للفقراء، بتوفير قيمة الكشف عليهم، والاكتفاء بثمن الدواء المخفض، ويمكن إعطاء الحقن مجانًا أيضًا، وأذكر أن شقيقتي الصغرى ارتفعت حرارتها، ولم تُجدِ معها محاولات استخدام الخل، أو غيره من الوسائل التي كان يستخدمها الفلاحون، وكان رأي حلاق الصحة بضرورة التوجه إلى الطبيب لخطورة الحالة. ولكن أمي رأت أن انتظار الطبيب سيستغرق وقتًا، فضلا عن أن قيمة الكشف تمثل عبئًا ماليًّا، وذهبنا إلى الصيدلية التي قامت بالمطلوب: إبرة لخفض الحرارة، بالإضافة إلى لبوس ودواء آخر لا أذكره، وعدنا إلى القرية وقد تمت المهمة بفضل الله، دون حاجة إلى طبيب.

**مفردات العلاج:**

كان الطفل - الذي هو أنا - يتعرض بعد مولده لمتاعب لا تنتهي، وكان يعالج بالطرق الشعبية الشائعة، وكثيرًا ما كان يعصب رأسه بمنديل مبتل بالماء والخل، وكثيرًا ما كان الأسبرين، والكينا، والشيشم من مفردات العلاج لارتفاع الحرارة أو السخونة، والضعف، والرمد على الترتيب.

ولعل ذلك كان له أثره على اللعب وممارسة الرياضة، فقد كان الأمر بالنسبة للطفل فيه شيء من الحرص، فلا يندمج في الألعاب العنيفة التي تقتضي أحيانًا بذل جهد كبير، مثل الجري والاشتباكات مع القرناء الأقوياء، كما يحدث في كرة القدم. كان يكتفي أحيانًا بالوقوف في حراسة المرمى أو في الدفاع ..

ذات مرة أصابته الكرة في بطنه، فخر على الأرض لا يتحرك، وهرع إليه من في الملعب وخارجه مذعورين، وحملوه إلى مكان قريب، وجاءوا بالماء الذي صبوه على وجهه حتى أفاق.

كانت القرية آنئذ محدودة العدد والبيوت، يعرف الناس بعضهم بعضًا، وكلهم أقارب تقريبًا، وكان الدوران حول القرية لا يستغرق وقتًا طويلا، وخاصة إذا كانت هناك بعض الألعاب التي ترتبط بالاستغماية والجري في الشوارع والحارات، وما أشبه.

**ألعاب أخرى:**

كانت هناك ألعاب أخرى هادئة، وأقل عددًا من كرة القدم، وترتبط بالصيف والشتاء في القرية، مثل النحلة والبلى وكرة المضرب والبوّ وكسرة البصلة، ومعظمها اندثر الآن.

كانت هناك السباحة في النهر، كان الصبيان يذهبون مع أمهاتهم، وخاصة عندما يغسلن الأواني والملابس في النيل، فيخلعون ملابسهم ويعومون إلى مسافات قريبة أو بعيدة، حسب السن والقدرة على العوم. كنت محرومًا من هذه المتعة؛ خوفًا عليّ من الغرق، وصارت المياه مخيفة لي، وخاصة عندما ترافق الحديث عنها بالجنية التي تخطف الأولاد الذين ينزلون إلى النهر للسباحة، أو الوقوف على الشط. والجنية - كما تروي الحكايات الأسطورية - نصفها الأسفل على هيئة ذيل سمكة، ونصفها الأعلى على هيئة عروس جميلة، وحين تشعر بوجود ولد في الماء تذهب إليه وتغطس به بعيدًا إلى الأعماق، بحيث لا يعود إلى أهله أبدًا!

عبرت عن عروس البحر هذه بشكل ما في بعض قصصي القصيرة التي نشرتها منذ أربعين عامًا، ولا أدري أين هي الآن.

**مياه المستنقعات:**

في أيام الفيضان يوليو وأغسطس وسبتمبر، كانت زيادة الماء تصنع مستنقعًا كبيرًا أمام البيوت، في فراغ واسع كنا نسميه التحويلة، نتخذه ملعبًا في أيام الجفاف، وكان الفلاحون - كما أسلفت - يعدونه جرنًا لدراس القمح والأرز وتقشير الذرة، وإقامة سرادقات أو خيم العزاء والمولد، أو تخزين أكوام الرمل السافي الناعم، القادم من طمي النيل الجاف على الشاطئ.

كنا نصنع قوارب صغيرة من الصفيح، ونزودها بأشرعة من القماش، ونسيرها في الماء الراكد من مياه المستنقعات، بعد أن نشمر عن السيقان، وننزل إلى المستنقع، ونمشي وراء القوارب، التي تتفاوت من حيث الحجم والإمكانات.

**السيارات .. والطرق:**

لم تكن هنالك وسائل نقل غير المراكب في النيل، ولم نر سيارات الأجرة إلا لمامًا، ونعرف أصحابها الذين يعيشون في المركز باسمهم المفرد الشائع، كانت سياراتهم قليلة والطرق ترابية، وعندما نسمع صوت آلة التنبيه نخرج لاستقبالها ورؤيتها، بوصف ذلك حدثًا فريدًا يهز سكون القرية، وعلى فترات بعيدة كانت تمر سيارات النقل الكبيرة،

وكانت تسمى الكاميون أو الكامبو حسب نطق العوام، ربما لارتباطها بالمعسكرات، وكانت تنقل البضائع أو الأغراض الثقيلة، وأحيانًا كان سائقوها يتوقفون للراحة والتزود بالماء، وكانت - في كل الأحوال - دافعًا ليتجمع الأطفال عندها والدوران حولها، والتأمل في مكوناتها؛ بوصف ذلك شيئًا مهمًّا وغير عادي، يشاهدونه ويتلمسونه في قريتهم البسيطة.

### نوعية إنسانية متميزة:

الفلاح المصري نوعية إنسانية متميزة في التاريخ البشري، صنعه القهر والعذاب والصبر، ومع ذلك كان يتكيف مع الحياة، ويعيش وفق ما هو متاح ويعلو فوق القهر والحرمان ..

من حسن الحظ أن قريتنا لم تعرف ما يسمى بالإقطاع، فمعظم المساحات الزراعية المملوكة للأغنياء كانت محدودة نسبيًّا؛ لذا لم تعرف قريتنا التمييز الطبقي، أو تعاني من اضطهاد الإقطاعيين، أو تشعر بالعبودية، وهو ما كنا نسمع عنه في بعض القرى المجاورة.

كان متوسط الملكية للأسرة الميسورة في قريتنا، يتراوح بين خمسة أفدنة وعشرة، كان هناك عائلتان أو ثلاث تملك العائلة ما بين ثلاثين إلى أربعين فدانًا، وكان معظمها مؤجرًا للفلاحين، أو يزرعونه بالمشاركة، ولكن الأغلبية كانت فقيرة، تعتمد على الطعام المتواضع الذي يتم تجهيزه عادة في البيت (الخبز + الجبن القريش + الجبن القديم + اللبن + ما تيسر من البيض ولحوم الطيور المنزلية في المناسبات، فضلا عن الأرز .. وغير ذلك مما يتم إنتاجه في البيت أو الغيط). والأهم من ذلك هو قدح الشاي من الزردة (الغلية) الأولى أو الثانية أو الثالثة التي كانت تخصص للأطفال، وكان الشاي أحيانًا يكون غموسًا للخبز في وجبة الصباح.

### الصيف والشتاء:

أما الملابس فكان الشخص يرتدي ثوبًا في الصيف وآخر في الشتاء، وكانوا يستعينون على ذلك بملابس من القماش الخشن، وكان يسمى المقطع، ويُشترى قطعة مستقلة من بعض محلات الخردوات، وقماشه يعيش فترة طويلة، ويتحمل الشمس والعرق والتراب، بالإضافة إلى ثمنه الرخيص نسبيًّا.

وكان الأمر مشابهًا بالنسبة للنساء، فكانت البنات والشابات يرتدين ما كان يسمى شيت المحلة، وكانت الأمهات والعجائز يلبسن قماشًا ثقيلا أسود، اسمه (الباسمة)، ويا لها من مفارقة بين الاسم واللون، وكلهن يعصبن رءوسهن بالمناديل، التي تتراوح بين الحمرة والسواد، وفوقها الطرحة السوداء أو الشاش الأسود، وعند الخروج في مناسبات العزاء والأفراح والزيارات، كن يضعن فوق ذلك ما يسمى بالكرك أو الملس، والكرك كان غطاء أسود مكرمشًا محدود الحجم، تستخدمه النساء الفقيرات، أما الأفضل منهن حالا فيستخدمن الملس، وهو غطاء مكرمش أيضًا، ولكنه عريض وممتد نسبيًّا، ويشير إلى يسر صاحبته عادة.

**الجلباب .. والبنطلون:**

في أيامنا الراهنة تغيرت الحال، وصار من يرتدي الجلباب في القرية قلة قليلة، من بينهم أنا، حيث أسير إلى المسجد مرتديًا جلبابي، متوكئا على عصاي، بينما الشباب والأطفال لا يعرفون غير القمصان والبنطلونات زيًّا عاديًّا، وقد يرتدي بعضهم الترينج بديلا للقميص والبنطلون، ويذهب به إلى الحقل، كما تغير زي الفتيات والنساء إلى حجاب الرأس بصورته الحديثة فوق ثوب طويل، ويشذ عن ذلك بعضهن، فيرتدين البنطلونات، وفوقها سترة بحجاب أو طرحة ملونة، كما ظهر النقاب، وإن كان غير شائع في القرية حتى الآن!

**الدراسات العليا:**

ولعل هذا التغير جاء نتيجة انتشار التعليم في القرية، حيث لم يعد قاصرًا على الميسورين أو الفقراء الذين يتجهون إلى الأزهر. صار كل رب أسرة حريصًا على ذهاب أبنائه وبناته إلى المدرسة، ومواصلة الدراسة في الثانوي والجامعة، ومن لا تسعفه قدراته العلمية يتوجه إلى التعليم الفني التجاري والصناعي والزراعي والتمريض والتدبير المنزلي ونحوه.

وعرفت القرية في السنوات الأخيرة أطباء ومهندسين وصيادلة وغيرهم، فضلا عن توجه بعضهم إلى الدراسات العليا؛ للحصول على الماجستير والدكتوراه، وكنت أول من

حصل على الدكتوراه في القرية، وهو ما أثار استغراب كثيرين؛ لأنهم تعودوا على أن من يحمل لقب دكتور هو الطبيب الذي يعالج المرضى، ويضع سماعة في أذنيه.

أما بالنسبة لي فقد كان الأمر غريبًا؛ لأنهم يعلمون أنني لم أدخل كلية الطب، وأعمل منذ سنوات في مجال التدريس العام، فكيف أصبحت دكتورًا؟ خاصة أنني لم أكن أتحدث في أمر دراستي العليا إلى أحد؛ لأن الأمر - كما تصورته - لا يعنيهم، بل إن أبي وأمي - رحمهما الله - لم يكونا يعرفان الأمر بوضوح، فقد كانا يظنان أن سفري من القرية إلى القاهرة على مسافة مائتي كيلو مترًا، تتعلق بالكتابة في الصحف والمجلات، وطبع بعض كتبي، وكانا يفاجآن بحصولي على الدرجة. أخي الوحيد هو الذي كان يصحبني إلى يوم المناقشة العلنية للرسالة، وينقل لأبي وأمي ما جرى. وكان أبي يقول لي كلما رآني ساهرًا، أقرأ على ضوء لمبة الغاز: كفى! لا ترهق نفسك؛ فقد كان يعتقد أن تخرجي وعملي مدرسًا - وفقًا لفهمه - هو نهاية المطاف.

### بحوث ودرجات:

بعضهم من حملة الشهادات العالية فهموا أن المسألة ترتبط بالدراسات العليا، وعرفوا أن هناك بحوثًا ودرجات بعد مرحلة الليسانس والبكالوريوس تؤهل للماجستير والدكتوراه، وقد شجع حصولي على الدكتوراه وتعييني في الجامعة بعض الشباب على مواصلة الدراسات العليا، وحصل بعضهم على الماجستير والدكتوراه، كما حصلت عليهما مؤخرًا بعض الفتيات الأزهريات، وهو أمر أسعدني، شجعت عليه وساعدت.

### رغبة قوية:

لقد صارت في القرية عند كتابة هذه السطور مدرستان ابتدائيتان وأخرى إعدادية، وهناك معهد أزهري ابتدائي للبنين والبنات، وآخر إعدادي وثالث ثانوي للبنين ومثلها للبنات. وقد تم إنشاء المعاهد الأزهرية بجهود الأهالي، وتبرعات أهل الخير من الأشقاء العرب، ومساندة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود – رحمه الله – الذي كان حريصًا على نشر التعليم الأزهري في كل مكان.

ووصل أمر التعليم في قريتنا إلى إنشاء مدرستين للحضانة؛ إحداهما خاصة، وتستقبل الأطفال من سن الثالثة، والأخرى رسمية، وتستقبل الأطفال في سن الخامسة أو ما قبلها بقليل، ليبقى الطفل سنة واحدة، ينتقل بعدها إلى الصف الأول الابتدائي.

وهناك من يرسل أطفاله إلى حضانات خارج القرية؛ بوصفها أفضل مستوى، وأعلى تكلفة، وتحضر السيارات يوميًّا لتوصيل الأطفال إلى الحضانة وإعادتهم إلى بيوتهم مرة أخرى ..

وهذا كله يشير إلى رغبة قوية لدى الأهالي في تعليم أبنائهم وبناتهم، مهما كانت ظروفهم صعبة ومعاكسة.

### تربية الحيوانات:

الفلاحون الفقراء في القرية يعتمدون عادة على تربية الحيوانات، وعادة يعتمد الفلاح على حمار وبقرة وجاموسة، الحمار يقوم بدور مهم؛ بوصفه وسيلة انتقال من البيت إلى الحقل البعيد، وهو أيضًا وسيلة نقل لمخلفات الحظيرة لتسميد الأرض تسميدًا عضويًّا، أو نقل بعض الأحمال إلى البيت، سواء أكانت من البرسيم أو عيدان الذرة الخضراء أو الحشائش، بوصفها طعامًا للحيوانات أو الأرانب أو الدواجن عمومًا.

أما البقرة والجاموسة فمهمتهما توفير اللبن والجبن والزبد والسمن، وهما مصدر دخل مستمر، حتى يتم حصاد الأرض، ويباع المحصول لشراء احتياجات الأسرة من ملابس وتجهيز العرائس والعرسان وفق التقاليد التي كانت سائدة.

### أكياس ضخمة:

كان المحصول الرئيس في زمان طفولتي البعيد هو القطن، وكانت الدولة تهتم به اهتمامًا ملحوظًا، فالعمد والمشايخ ومعاون الزراعة والمقاومة اليدوية لدودة القطن، واحتشاد الفلاحين وأبنائهم لهذه المقاومة – قبل أن يظهر الرش بالمبيدات السامة مثل التوكسافين - ثم جمع القطن وتعبئته في أكياس ضخمة يحمل الواحد منها قنطارًا أو أكثر،

ونجد فرصتنا نحن الأطفال في القفز فوقها واللعب عليها، ومندوب تاجر القطن الذي يحرسها يطاردنا في ود ملحوظ، وكأنه يرى أن الأطفال لابد أن يلعبوا.

ينتهي موسم القطن بتقطيع الحطب، الذي تحمله الجمال، وتأتي به إلى البيوت ليستخدم في أفران الخبيز وكوانين الطبخ. كل دار كان فيها فرن وكانون؛ الأول يخبز فيه الخبز المصنوع من دقيق الذرة، والخبز الطري الذي يصنع من دقيق القمح، كما يخبز فيه الرقاق والفطير، ويشوى فيه الذرة والسمك، وتسوى فيه أبرمة الأرز ومقالي السمك والبطاطا، وغير ذلك.

أما الكانون فكان بديلا للبوتاجاز في أيامنا، وكانت تطبخ عليه اللحوم والخضروات، ويسلق الأرز والمكرونة، ويقلى السمك والبطاطس، ويمكن أن تسخن عليه المياه للاستخدامات المختلفة.

**طلب الستر:**

مطالب الفلاح لم تكن مادية بقدر ما كانت محصورة في طلب الستر. والستر كلمة تحمل في طياتها معاني الرضا والصبر والإيمان بفرج الله. الواقع البائس الذي يعيشه الفلاحون في القرية، يجعلهم يفلسفونه في صياغات بسيطة، ولكنها مقنعة لأصحابها؛ ولذا كانوا يرضون بالنصيب، ويؤمنون بالبركة التي تحل في الصحة والأولاد والمال القليل، وقد أخذوا - مذ وعيت - في الاتجاه نحو تعليم أبنائهم في الأزهر، وكان هو المتاح بالنسبة لهم، حيث كان التعليم فيه بغير مصروفات كبيرة، وكان يصرف ما يسمى بدل الجراية بواقع قرش صاغ – أي عشرة مليمات – عن اليوم الدراسي، وكان هذا القرش يمثل قوة شرائية مهمة بالنسبة للطالب الفلاح الفقير.

كان ميسورو الحال يعلمون أولادهم في التعليم العام؛ فقد كانوا يستطيعون دفع مصروفاته، وكان يمكنهم شراء الزى الإفرنجي الذي يرتديه الطلاب وفوقه الطربوش، على عكس طلاب الأزهر، الذين يرتدون الكاكولة والعمامة، وهما أرخص نسبيًّا في ثمنهما.

**عالمية الأزهر:**

وقد رأيت في طفولتي اثنين أو ثلاثة حصلوا على عالمية الأزهر، ومعاون الزراعة الذي يحمل دبلوم الزراعة، وجاء بعدهم في الستينيات خريجون من كليات اللغة العربية

والشريعة ودار العلوم، ومدارس المعلمين والزراعة والتجارة، ومدرسة الصيارفة التي كانت تقبل حاملي الثانوية الأزهرية. وكان هناك من حصلوا على ثانوية الأزهر أو كفاءة المعلمين أو ابتدائية الأزهر، وعملوا جميعًا في مهنة التدريس بالمرحلة الابتدائية التابعة لوزارة المعارف، وهؤلاء كان مستواهم الاقتصادي أفضل من غيرهم، وكانت العائلات تسعى إلى مصاهرتهم وتزويجهم من بناتها، بحكم أن حالتهم المادية أفضل من غيرهم.

لا ريب أن التعليم منح أصحابه دفعة قوية إلى الأمام، وأتاح لهم وضعًا معنويًّا ملحوظًا، وإن كانت النظرة إلى ملاك الأرض أكثر تميزًا؛ فأصحاب الأفدنة يملكون رصيدًا أو تحويشة كبيرة؛ مما يجعلهم في وضع مالي مستقر، مع نفوذ ملحوظ على غيرهم من بقية الفلاحين.

**دستور يا أسيادنا:**

وقضية النفوذ كانت واضحة إلى عهد قريب - وفقًا للوضع الطبقي - فقد كانت هناك تقاليد تقضي أن يكون للأغنياء في القرية (وهو غنى نسبي يعني الحال الميسور الذي يملك صاحبه فدادين، أو يجعله لا يمد يده إلى غيره) وضع أسبق من غيرهم. كان هناك احترام لهؤلاء الأغنياء، وأحيانًا كان من يركب حمارًا ويمر على أغنياء يجلسون فوق المصطبة، يبادر إلى النزول، ويتبع ذلك بقوله: دستور يا أسيادنا .. فضلا عن التزام الهدوء والصمت عندما يحضر هؤلاء في مناسبات شتى.

والنفوذ في القرية مرتبط بالخوف من الآخر أو المصلحة، فمن ينتمي إلى عائلة قوية لا تفرط في حقها، أو تستخدم العنف في التعامل، يجد ملاينة وتواضعًا ومهادنة إلى حد الانحناء، ومن يبدو ضعيفًا أو فقيرًا، فأمره هين والاستهانة به تكون أمرًا شبه متفق عليه، اللّٰهُمَّ إذا أظهر شوكة أو رفضًا أو تمردًا أو استخدامًا للنبوت، يكلفه بعض العناء، ولكنه بعد ذلك يبقى محفوظ المقام.

**احترام عال:**

أيضًا فمن يملك مصالح الفلاحين، يحظى باحترام عال، ويتقرب منه جميعهم، فالصراف الذي يجمع الضريبة (المال) المقررة على الأرض، له مكانة عالية؛ لأن بعضهم

يضطر إلى تقسيطها أو تأجيلها؛ لأنه لا يملك الدفع الفوري، وكثيرًا ما كان الصراف موضع اهتمام ورعاية من الفلاحين جميعًا، يذكرونه في المناسبات، وعند الحصاد، وتقدم له الهدايا من الألبان والسمن، وغيرها.

والمعاون الزراعي أو المشرف الزراعي أو مسئول الجمعية الزراعية، الذي يحمل شهادة زراعية متوسطة، له مكانة قوية؛ لأنه مرتبط مباشرة بالزراعة والدورة الزراعية والبذور والأسمدة والمبيدات وتسجيل الحيازات وفض المنازعات، وهي أمور تمس صميم حياة الفلاحين وأرزاقهم.

ولو قارنت المشرف الزراعي بأستاذ الجامعة أو حتى وزير الزراعة نفسه، لوجدت الاهتمام بالأول عظيما؛ فالآخر ليس مؤثرًا في حياتهم مثل الأول.

**تضر وتنفع:**

بالطبع كان نفوذ العمدة والشيخ وشيخ الخفراء قويًّا؛ لارتباطهم بالسلطة التي تضر وتنفع، وكانت العلاقة تتفاوت بين من يتعامل بحكمة، ومن يتعامل بعنف وحدة وطغيان، وقد صورت الأفلام والمسلسلات والمسرحيات هؤلاء في صور أقرب إلى الشر غالبًا، واستخدام العنف وقهر الآخرين، ولكن الوضع في قريتنا كان معقولا، باستثناء بعض المواقف النشاز.

وفي كل الأحوال، فقد كان تعامل الفلاح مع من يملكون مصالحه يأتي في سياق الخبث التاريخي والمكر الأزلي، بالانحناء والتقرب من المسئول، أو من يملك القوة لاستمرار حياته، والإبقاء على أسرته!

لا بأس حين ينفرد الفلاح البسيط بأمثاله، من استخدام السخرية والتنكيت؛ ليثأر ممن ينحني لهم، أو ينافقهم، ويعتقد بذلك أنه أشبع روحه الخاوية التي استسلمت للنفاق والتملق!

### التصوير الكاريكاتيري:

السخرية والتنكيت حالة من التعويض في وضع البؤس الذي يعيشه الفلاح، وقد يسخر من نفسه أحيانًا، ويلجأ إلى ما يسمى المبالغة أو التصوير الكاريكاتيري؛ ليكشف عن جوانب بائسة في حياته ..

كان أحدهم يجيب حين سئل عن عدد مرات أكل اللحوم:

"من جمل أبو يونس إلى جمل أبو يونس!".

الإجابة تعني أنه يأكل اللحم مرة واحدة كل خمس سنوات أو ست، وذلك عندما يصل جمل عائلة أبي يونس إلى درجة الشيخوخة أو المرض، ويعجز عن العمل الطبيعي، فتضطر العائلة إلى بيع الجمل إلى الجزارين، الذين يذبحونه، ويبيعونه بسعر رخيص.

ويشبه هذه المبالغة ما يقوله الآخر، أنه عندما رجع إلى البيت بعد سهر طويل، فلم يجد مكانًا في الغرفة كي ينام فيه؛ حيث نام الأولاد وأمهم على الحصير وملأوا المكان كله، فما كان منه إلا أن صاح: حريق .. حريق .. ففزع النائمون، واستيقظوا من نومهم يجرون نحو باب الدار، وهنا اتخذ صاحبنا لنفسه مكانًا في أحد أركان الغرفة ونام!

الفلاحون في الغالب يحرصون - بحكم القهر والفقر - على مصالحهم وجهة تحقيقها؛ لذا يتصرفون بنوع من البراجماتية لتحقيق ذلك، لدرجة أنك ترى بعضهم أحيانًا لا يلقي السلام على من لا يحقق له منفعة.

### أحقاد صغيرة وأطماع بسيطة:

هناك نوع من الغيرة التي تكون النساء عنصرًا أساسيًّا في صناعتها، وهي - بالطبع - تتجاوز الغيرة بين النساء إلى الغيرة بين الأسر، والغيرة بين الرجال أنفسهم، وقد تكون الغيرة مشروعة أحيانًا عند التنافس في تحقيق المصالح المفيدة أو الأعمال الخيرية، ولكنها تكون مدمرة حين يسعى بعضهم لينافس غيره، فيتحمل من الأعباء والمواقف ما يجعله ينوء بالأحمال التي لا يستطيع أن ينهض بها، أو يضطر إلى الاستدانة.

الأحقاد الصغيرة والأطماع البسيطة تحكم سلوكيات بعض أهل القرية، فتنشأ عداوات مكتومة أو معلنة، ولكنها جميعًا تختفي في المناسبات الحزينة أو السارة، وعندما يموت أحدهم، فإنهم جميعًا يحتشدون لتشييعه، ودفنه، والمشاركة في العزاء والمواساة، وتلتزم العائلات - في عرف قديم - بتقديم الطعام على صينية واسعة في الغداء والعشاء، يذهب به إلى السرادق المقام لتقبل العزاء، أو بيت المتوفى.

وفي الأفراح يتشاركون ويتعاونون بالنقوط، وهو المبلغ الذي يدفع من المدعوين، أي أهل البلد، ويظل دينًا في عنق صاحب الفرح حتى يدفعه في مناسبة مماثلة.

**صارت مستوردة:**

في أيامنا تغيرت الأحوال - إلى حد كبير - فقد تقلصت مساحة الأرض الزراعية، وازدحمت القرية بالسكان وتضاعفت البيوت، وانهارت كثير من التقاليد، وبعد أن كانت القرية منتجة للغذاء ومصدرة له، صارت مستوردة، ويقف أهلها في الطوابير انتظارًا لعشرة أرغفة! ويذهبون إلى أهل المدينة لشراء الأطعمة الجاهزة، وخرج كثير من شبابها - إن لم يكن معظمهم - إلى الخليج وأوربة للعمل، والبحث عن المال، ونتج عن ذلك مشكلات اجتماعية خطيرة، وخاصة بالنسبة للمتزوجين منهم، حيث يترك أغلبهم الزوجة الشابة والأطفال فترة طويلة، حتى يعود في إجازة قصيرة، يراه فيها الأطفال؛ وكل ذلك من أجل بناء بيت على الأرض الزراعية، أو شراء سيارة خاصة دون داع، أو التفاخر بملكية بعض الكماليات.

**المراكبية:**

هناك فئة كانت تعيش على هامش من يزرعون الأرض، وهم المراكبية، أي الذين يعملون في النهر على قواربهم الشراعية أو الصنادل الحديدية.

كانت القوارب الشراعية وسيلة انتقال بين القرية والمدينة يوم كانت سيارات الأجرة نادرة، وكان يوجد على شاطئ النهر الذي تطل عليه بلدتنا نحو عشرين قاربًا، تتفاوت في الحجم، تعد مصدر رزق لنحو عشرين عائلة. وكان دخل هؤلاء المراكبية محدودًا للغاية، كان يتحسن في الأعياد والموالد، وهي أيام قليلة في كل عام، وكانوا ينتظرونها؛ لأن عائدها

كان يساعدهم في عملية الإصلاح السنوية للمراكب، وهي عملية تقتضي شراء أخشاب ومسامير وحشو بين الألواح وبويات، فضلا عن أجرة النجار، والإنفاق طوال فترة الإصلاح التي يتم فيها بقاء القارب على الشاطئ اليابس، وكنت في طفولتي أسعد بالجلوس عند القارب الذي يتم إصلاحه، حيث كان يتجمع بعض المراكبية مع بعض الصيادين، وتدور حكايات عن السفر في النهر والرحلات إلى مدن وقرى تقع على شاطئ النهر، وتبدو بمقاييس ذلك الزمان بعيدة في خيالاتنا، وكنا شغوفين بسماع ما رآه أصحاب المراكب، وما حدث لهم، وما عادوا به من هناك.

**مخزن حكايات وقصص:**

وكان هناك أحد النجارين قصير القامة أزرق العينين، يأتي من قرية مجاورة، وكان مخزن حكايات وقصص واقعية، وخاصة عن النساء وخيانات المرأة، وكان يحكي بتؤدة وهدوء، فيستولي على ألباب من يستمعون ويتحلقون حول موقد النار الخشبي، الذي يصنعون عليه الشاي، ويأخذون منه قطع النار لتدخين المعسّل أو الجوزة.

وكان إلى جوار القوارب عدد من المراكب الكبيرة، كانت في الزمن الماضي خشبية، ولها أشرعة كبيرة، ويعمل على ظهرها ثلاثة أشخاص أو أربعة، وتحولت هذه المراكب إلى صنادل من الحديد؛ لتعيش زمنًا طويلا دون أن تحتاج إلى إصلاح، أو تتعطل شهورًا من أجل هذا الإصلاح.

كانت رحلات الصنادل تستغرق أسبوعًا أو عشرة أيام في الذهاب والإياب، تذهب فارغة إلى منطقة قريبة من كفر الزيات، وتعود محملة بالرمل أو الزلط غالبًا لتفرغها في المدينة المجاورة.

**عودة .. وعيد:**

كانت عودة المركب الكبير ومن على ظهره من البحارة أو النوتية ومعهم صاحب المركب، تمثل عيدًا لأسرة العائد، فقد كان يحمل صرة ملابسه، ومعه أجرة الدور (الذهاب والإياب)، وكانت تمثل دخلا طيبًا في ذلك الزمان مع تواضعه (كان يتراوح بين مائة قرش ومائة وعشرين)، وكان يتيح للأسرة أن تشترى القمح والذرة من السوق الأسبوعي،

بالإضافة إلى السكر والشاي والجاز (الكيروسين) والخضروات والبقول، وغيرها من احتياجات المنزل.

كان أصحاب المركب يعدون قبل بداية السفر ما يسمى بالخبزة، وهي نوع من الخبز يتم صناعته في فرن المنزل به ملح زائد، وتكون الخبزة المكونة من شقق صغيرة سميكة بعض الشيء، وتكون أقرب إلى التلدين والجفاف؛ وذلك كي يستخدمها البحارة في عمل فتة العدس التي تعد وجبة رئيسة، يعتمدون عليها في غذائهم اليومي، وخاصة أيام الشتاء.

وكنا نحن الأطفال من جيران أصحاب المراكب، نفرح بيوم الخبيز؛ لنأكل الخبزة المملحة التي نستلذها ونأكلها بشهية.

**اختفاء .. وانقراض:**

في أيامنا تغيرت الأحوال .. انقرضت القوارب والمراكب الكبيرة والصنادل، حتى الصنادل المميكنة (المزودة بموتورات للحركة)، وكانت تنقل البضائع من جمرك الإسكندرية إلى القاهرة، عن طريق ترعة المحمودية التي اختفت، ولم يعد لها وجود. وكانت هناك مراكب كبيرة تأتي من الصعيد تحمل العسل أو غيره من المنتجات، وتستغرق أسابيع في رحلتها من الجنوب حتى الإسكندرية، كانت المراكب الكبيرة أسبق المراكب إلى الاختفاء. لم يعد أحد يعتمد عليها في النقل أو الانتقال، فقد كثرت سيارات الأجرة وسيارات النقل الصغيرة والكبيرة، التي تنقل كل شيء، وتملأ الطرقات وتزحمها وتنجز عملية الانتقال في وقت قصير وسريع.

**أهل المنصر:**

في القرية كان يوجد إلى جانب الفلاحين والمراكبية، بعض أصحاب الحرف والموظفين ولكنهم لا يمثلون كتلة متميزة، وهم لا يختلفون في سلوكهم وعاداتهم عن بقية أهل القرية. بيد أننا كنا نستمع من الكبار إلى جماعة خاصة يطلقون عليها أهل المنصر. وكان ذلك الاسم تعبيرًا عن تشكيل عصابي لا يرتبط بقريتنا وحدها، ولكنه يمتد ليشمل مجموعة متباينة من القرى المجاورة ويتخطاها إلى الشاطئ الآخر من النهر في القرى المطلة عليه.

كان المنصر متخصصًا في السطو على الحظائر التي تربى فيها البهائم، وكان الظلام – حيث لم تكن هناك كهرباء - يساعد على تنفيذ عمليات السرقة وإتمامها، فضلا عن حمل المنصر للأسلحة النارية؛ لمواجهة من يعترضه، وكانت المسروقات تعود إذا تم دفع إتاوة مناسبة، أو تباع مباشرة في الأسواق الكبرى، إذا امتزجت السرقة بالرغبة في الانتقام من صاحبها.

**صورة مثالية:**

بالطبع لم تكن هناك قوة تستطيع أن تواجه هؤلاء اللصوص، فالخفراء النظاميون يغطون في نوم عميق، وبنادقهم تحت رءوسهم؛ خوفا أن يسرقها أحد، بل إن بعضهم كان يشارك في عمليات المنصر بطريقة ما.

كان من المفارقة أن المشاركين في المنصر يحرصون أن يظهروا بين الناس في صورة مثالية، مقترنة بالذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ فضلا عن الكرم والشهامة والمروءة، بحيث تشعر أن العضو المشارك ينتمي إلى الملائكة، ولا ينتمي إلى عالم الأشرار!!

لقد تلاشى المنصر في العقود الماضية، وكف أفراده في أواخر حياتهم عن ممارسة السرقة، وربما تابوا، فقد صار للناس وظائف وأعمال ودخل حلال؛ بسبب انتشار التعليم، ولم يعد العمل قاصرًا على الرجال، بل تشارك نساء كثيرات في العمل في مجالات متعددة: التدريس، والتمريض، والوظائف المكتبية، والطب، والعمل في المحلات التجارية، والتجارة في الخضروات والفاكهة والأسماك، والذهاب إلى الأسواق المجاورة، فضلا عن المشاركة في الزراعة، وهي مشاركة عريقة منذ فجر التاريخ.

* * *

## 2- صاحب الكرامات

**حالة أفضل:**

المدينة بالنسبة للقرية تمثل حالة أفضل في الحياة والعمل والرخاء، ثم إنها تعد مصدر السلع والبضائع، التي لم تكن تتوفر في القرية عادة، كما أن المدينة توجد بها مصادر العلم والمعرفة، ففيها المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ومدارس التعليم الفني، ومعاهد التعليم الديني الأزهري، كما توجد بها ورش الحدادة والنجارة وأدوات الزراعة، وماكينات قطع الأخشاب، ومحلات التصوير، ومكتبات الكتب، ولوازم الطلاب، والسينما الوحيدة مصدر الترفيه للشباب، فضلا عن وجود محلات الخردوات والأدوات المنزلية والأقمشة والترزية البلدي والإفرنجي، ومحلات الموبيليا أو العفش، والأواني النحاسية ومستلزمات البيوت، والصاغة، بالإضافة إلى الصيدليات ومستودعات بيع المبيدات والأسمدة والبذور، وفيها السوق الكبير للماشية والطيور والحبوب ووكالات الخضار والفواكه، فضلا عن محطة السكة الحديد، ومواقف السيارات التي تنقل المسافرين إلى المدن الكبرى أو العاصمة.

**السيد العو:**

في المدينة التي تقع على الضفة المقابلة من النيل، هناك مرسى للمراكب، وآخر للنشات التي كانت تقطع مسافات طويلة بين المدينة ومدينة أخرى في الجنوب، تقع على الضفة الأخرى للنهر التي تضم قريتنا. كانت اللنشات تقطع المسافة الطويلة حوالي خمسة عشر كيلو مترًا في نحو الساعة، وتزيد إذا توقفت عند بعض القرى على الجانبين لتحمل ركابًا، وكنا ونحن أطفال نحفظ أسماء البحارة، منهم واحد كان يدعى عم السيد العو، وكان يعاني من عرج في ساق من ساقيه، وكنا نقف نحن الأطفال لنشاهد اللنش وهو يرسو على الشاطئ أو يغادر، فقد كان المنظر بالنسبة لنا مدهشًا؛ لأنه لا يتكرر كثيرًا، وخاصة بعد فترات الانقطاع، حيث يقال لنا إن اللنش ذهب إلى مصر ليعمل هناك.

**المركب الشراعي:**

كان الفلاحون يفضلون المركب الشراعي في انتقالهم من القرية إلى المدينة؛ لأن سعر الانتقال فيه أرخص، ولكنهم كانوا يضطرون إلى ركوب اللنش عندما تكون الأحوال الجوية غير ملائمة للمركب الشراعي، وتستغرق المسافة وقتًا طويلا، وقد ركبت اللنش عدة مرات وأنا صغير، برفقة بعض الكبار من الجيران؛ لأشتري بعض الأغراض لبيتنا، وكنت سعيدًا لأني أسافر وحدي، وأذهب إلى المدينة وحدي، وأحقق ما تريده الأسرة بنجاح.

عرفت معالم المدينة؛ التي كانت آنئذ تتكون من شارعين كبيرين؛ الأول هو شارع المحطة، كما كان يسميه الناس، أو شارع سعد زغلول بوصفه ابنًا من أبناء المركز (من مواليد قرية مطوبس، التي تحولت مؤخرًا إلى مدينة)؛ والشارع الآخر كان يسمى - لدى العامة - بشارع الدلتا، واسمه الرسمي شارع الجمهورية، وكانت تقع في آخره محطة المياه (وابور المياه كما كان يسمى)، ومحطة قطار الدلتا، وهو قطار ينقل الناس والبضائع والحيوانات والحبوب والدواجن، من دسوق إلى طنطا، ويقف في القرى التي يمر عليها جميعًا، وتستغرق رحلته وقتًا طويلا، وكان بعض الطلاب الذين يدرسون في المدينة من القرى المجاورة يتفنّون في تعطيله؛ ليلحقوا به، أو ليهربوا من دفع التذاكر.

**أفران الخبز:**

كنت أعرف المحلات والمطاعم والترزية وغيرهم، وأحفظ أسماء اللافتات، وأسماء البائعين، وكانت المحطة الرئيسة التي نتوقف عندها نحن الأطفال، هي أفران الخبز التي كنا نسميها الطابونة، وخاصة أفران الخبز الأبيض، الذي كان يسمى الخبز الشامي، فضلا عن المطاعم ومحلات الحلويات، وهي محطة تناغي الجانب البيولوجي للأطفال، الذي يملأ بطونهم، ويشبع شهوة الطعام وتذوق الحلوى. فالخبز الشامي كان يمثل نوعًا من المخبوزات لا يتوفر في قريتنا، مع أن الناس في القرية كانوا يستخدمون أفخر أنواع الدقيق الذي يزرعونه في حقولهم، وأذكر أن نوعًا معينًا هو الذي كان يروج في السوق الأسبوعي للقرية، وهو القمح الهندي، وكان دقيقه شديد البياض بالنسبة لغيره، وكانوا يصنعون منه نوعًا من

الخبز الطري الذي يؤكل بعد خروجه من الفرن الريفي المعتمد على القش والحطب، كما كان يصنع منه الفطير، والأقراص التي كانت تسمى البكاكيم والقراقيش، ولكن الخبز الشامي في المدينة كانت له نكهة مميزة، وخاصة ذلك الخبز الذي يصنعه الخواجات، وكان لليونانيين والطليان مخبزان في المدينة؛ أحدهما بجواره خمارة، يعمل فيها بعضهم، ويتعامل معها الأجانب، وبعض أبناء الأغنياء والمدمنين.

كان الرغيف الشامي كبيرًا ومشرقًا، وثمنه قرش واحد = عشرة مليمات، وهى عملة لا تعرفها الأجيال الحالية، وكان الطلبة يشترون نصف رغيف بنصف قرش (خمسة مليمات)، ويرفضون الشراء من الفرشات الموجودة في السوق؛ لأن خبزها بارد، ويذهبون إلى الخواجة ذي الوجه الأحمر؛ ليحصلوا على الخبز ساخنًا برائحة الفرن.

**الكسوة السنوية:**

أما المطاعم فقد كانت تقدم الفول المدمس والفلافل (الطعمية) والطرشي والسَّلطات، وهي أنواع لا يعرف الريف المصري وجودًا لها في أغلب الأيام، وكانت فرصة تناول هذه الأصناف التي تقدمها المطاعم، تتحقق عند الذهاب إلى المدينة من أجل الكسوة السنوية للعائلات، أو تجهيز العرسان وشراء الذهب (ما يسمى الآن بالشبكة)، وكان عبارة عن قطع رمزية: عقد وحلق أو قرط من الذهب، وخلخال من الفضة، ويكبر الحجم أو يصغر حسب المستوى المادي للعريس، وكانت الأسعار آنئذ معقولة ومحتملة، ولم تكن بالسعار الذي هي عليه الآن.

كانت كل عائلة تفضل مطعمًا بعينه؛ إما لمعرفة قديمة بأصحابه، أو لعلاقة مع بعض العاملين به، أو لأنه يقدم خدمة أفضل من غيره، وكانت بعض العائلات تشتري ما يلزمها من المطعم، وتفترش عادة أرض الدكان الذي تشتري منه الأقمشة أو النحاس أو الأدوات المنزلية، كانت الأرضية غالبًا من الخشب، ويوضع فوقها ورق أو نحوه، ويرص عليه الطعام، الذي يضاف إليه بعض البلح أو العنب أو البطيخ أو الشمام حسب الظروف، وبعد تناول الطعام يُطلب براد الشاي من المقهى المجاور، ويوزع في الأكواب الصغيرة على الأفراد.

### مستشار أهل القرية:

كانت هناك معرفة وطيدة من جانب العائلات بأصحاب المحلات، وكان بعضهم يؤجل ثمن البضاعة إلى وقت الحصاد أو حين ميسرة، بل كان بعض أبناء القرية يلجأون إلى أصحاب المحلات حين يتعرضون لمواقف صعبة تتعلق بنفاد أموالهم، أو سرقتها، أو ضياع أشياء منهم.

وكان هناك محل لبيع الحصر والمقاطف والحبال، يملكه أحد أفراد القرية وورثه ابنه، وكان أهل القرية أسرًا وأفرادًا يمرون به باستمرار؛ إما لوضع أمتعتهم وأغراضهم حتى ينتهوا من شراء ما يريدون، أو الفراغ من المهام التي أتوا إليها، وكان صاحب المحل مستشارًا لأهل القرية في أمور البيع والشراء، أو التوسط لدى بعض التجار؛ لتأجيل الدفع، أو تخفيض السعر، أو التوصية بتقديم بضاعة جيدة وسعر أقل، أو نحو ذلك .. لقد كان المحل مركزًا لأهل القرية، يتقابلون فيه أو يتركون رسائل لبعضهم هناك، وفي الوقت نفسه يشترون منه ما يريدون، وخاصة المقاطف (الغلقان)، وحصير الجبن (يضعون فيه اللبن الرايب، فيتحول إلى جبن قريش)، ومن الطرائف أن بعض الطلبة من أهل القرية الذين يتعلمون في المدينة، الذين كانت تطردهم المدرسة أو المعهد لسبب أو آخر، كان يلجأ إلى صاحب المحل ليتوسط له لدى إدارة المعهد أو المدرسة، بوصفه ولي الأمر؛ كي يتم العفو عنه وينتظم في الدراسة، وكان ذلك يقتضي أن يكون هناك بعض التعنيف وبعض الصفعات من جانب الرجل أمام المسئول التعليمي، الذي كان يتدخل ليوقف الصفع ويعيد الطريد إلى فصله، وكان الطلبة يتندرون بذلك طول العام في ذهابهم من القرية وإيابهم من المدينة.

### خد الجميل:

محلات الحلوى كانت تستهوي الأطفال، وكانت هناك عائلة مشهورة، لها عدد من المحلات الكبيرة، ولهم مصانع في داخل بيوت المدينة، تنتج الحلاوة الطحينية، والحلاوة الشعر، والملبن والهريسة والبسبوسة والبسيمة والملبس والفارطة، أو البمبوني بلغتنا هذه الأيام، والعلف والسمسمية والحمصية والشربات والمربى وعسل النحل، فضلا عن

البسكويت والموز وخد الجميل، وأنواعا أخرى، إلى جانب مقلاة الفول السوداني واللب والحمص.

كانت حلاوة الشعر أو الغزل هي أكثر ما يحبه الأطفال، وكان الكبار يبحثون عن الطازج منها الذي وصل في اليوم نفسه من المصنع؛ لأنها تكون منفوشة وشاهقة البياض، وطعمها أكثر لذة من تلك التي بقيت يومًا أو أكثر في الفاترينة؛ ولذا كان العمال يحرصون على تقليبها باستمرار لتبدو طازجة أمام الزبائن، ويكفي الطفل وإخوته ورقة بقرش صاغ ليأكلوا منها جميعًا، أو يغمسونها بالخبز الشامي الأبيض، وبصفة عامة، فقد كان أصحاب هذه المحلات من كبار الأغنياء في المدينة، وكانوا يجمعون العملات المعدنية المتشابهة (التعريفة والقرش والشلن والبريزة) في أكياس منفردة، حتى يسلموها إلى التجار الكبار، الذين يشترون منهم المواد الأولية لصناعتهم وتجارتهم، أو يسلمونها إلى البنوك لتوضع في حساباتهم، وبعضهم كان يشتري بأرباحه الكبيرة أراضي زراعية أو عمارات، أو نحو ذلك.

### تبدلت الأنشطة:

مع امتداد الزمان وتكاثر النسل وتنوع الاتجاهات، وظهور أطراف جديدة، آلت المحلات إلى فروع أسرية أخرى وشخصيات مغايرة، وتبدلت الأنشطة، واختلف الزمان، وتغيرت الأذواق، والاهتمامات، ولكن ظلت محلات الحلوى مقصدًا للناس، وخاصة في المواسم والأعياد والمناسبات الاجتماعية، فالحلوى بأنواعها تعد أفضل الهدايا وأقربها لجميع الطبقات، ولكل طبقة يوجد ما يناسبها ويتفق مع مستواها المادي والاقتصادي.

ومما يذكر في هذا السياق، أن أحدهم قد جاء من الصعيد، وكان يعمل في المحلات قديمًا آثر أن يستقل بنفسه، وكان يصنع صينية بسبوسة يبيعها في الميدان، وقد فتح الله عليه، واستطاع بعصاميته أن يصبح صاحب محل يتدفق عليه الناس للشراء منه بسبب شهرته، وتحول المحل إلى محلات، وإلى جانب الحلوى، صارت هناك محلات للذهب والفضة تابعة له، ثم استطاع أولاده أن يشتروا مؤخرًا عددًا من الأفدنة بملايين

الجنيهات، ليجعلوا منها مصانع تستوعب عشرات العمال، وتصدر منتجاتها إلى خارج المدينة والمحافظة، وربما إلى خارج البلاد .. وسبحان المنعم الوهاب.

**الفسيخ والسردين:**

تشتهر المدينة - إلى جانب صناعة الحلويات - بإعداد الأسماك المملحة (الفسيخ والسردين)، وكانت المدينة على عهد الطفولة تضم جانبًا خاصًّا من السوق، تتجاور فيه مجموعة من المحلات لأسرة واحدة، تبيع الفسيخ والسردين وأم الخلول، التي تأتي في موسم الصيف عادة، وأغلب الظن أن هذه العائلة قدمت من رشيد، المدينة البحراوية التي أنجبت الشاعر الكبير على الجارم، ويقال إن أصول الروائي الشهير نجيب محفوظ تمتد إليها، وهي مدينة ارتبطت بمقاومة الحملة الفرنسية على مصر، التي قادها السفاح الفرنسي نابليون بونابرت، وقام أهل رشيد ببطولات، عبر عنها أدبنا العربي الحديث في أعمال أدبية مهمة.

ومثلما أتى تجار الأسماك المملحة من رشيد، فإن كثيرًا من العائلات التجارية - ومن بينها أصحاب محلات الحلويات - جاءوا من القرى والبلاد المجاورة، واستوطنوها وأقاموا بها، فضلا عن أولئك الذين انتقلوا إليها للعمل في التدريس والشرطة والقضاء والوظائف الحكومية المختلفة، فاستقروا على أرضها، وصاروا جزءًا من نسيجها، لدرجة أن الأجيال الجديدة لم تعد على صلة بالجذور القديمة التي كان يحرص عليها السابقون في مرحلة طفولتي، ويتحدثون عنها أمامي بفخر واعتزاز.

**تخطيط مستمر:**

كانت المدينة قديمًا تتميز بفضاء واسع في الشوارع والمحلات والمؤسسات والمساكن، وكانت تحفها الأراضي الزراعية، وكانت أطرافها تحيا حياة الريف الحقيقي، فكان لديهم ماشية وجمال وحمير ودواجن، وألبان وسمن وجبن، ولكن الزمان اختلف .. لقد خضعت المدينة لتخطيط مستمر ومتغير، وصارت فضاءاتها أضيق من ذي قبل، المحلات والمساكن والمؤسسات، وارتفعت المباني ارتفاعًا شاهقًا يشبه ناطحات السحاب، والشوارع مكدسة بالباعة الجائلين، لدرجة أن السيارات يصعب أن تتحرك في الشارع

الرئيس، كما احتل التجار وأصحاب المحلات الأرصفة والأماكن التي أمامهم، فاستولى كل منهم على منتصف الشارع تقريبًا بفرشته وبضاعته، وقد سمعت مؤخرًا - بعد الثورة - أن السلطة قامت بإزالة هذه التعديات، وفتحت الشارع أمام المارة والسيارات، وإن كنت لم أر ذلك؛ لأني لا أذهب إلى هناك بسبب المرض.

### كان هناك متنزه:

كان هناك متنزّه كبير على شاطئ النيل، وكنا نستمتع بالجلوس فيه أيام الدراسة، وننتظر موعد إقلاع المركب العائدة إلى القرية. كان المتنزه مليئًا بالزهور والورود والأشجار الجميلة، وكانت مقاعده الخشبية الممتدة فرصة متاحة لمن يريد أن ينام قليلا، أو يقرأ، أو يتناقش مع الزملاء الكبار في قضايا العلم والمعرفة. لقد اختفى هذا المتنزّه، وتحول إلى مبنى أسمنتي كالح؛ ليكون مقرًّا لمجلس المدينة وسكنًا للمسئولين عنه، بالإضافة إلى ما يشبه الكافتيريا أو الاستراحة الخاصة بالنادي الرياضي التي يؤمها كبار القوم وأغنياؤهم.

لقد تحول شاطئ المدينة إلى حالة تجارية عشوائية، غصت بالمباني الكالحة والعمارات الضيقة الشاهقة، وحديقة مليئة بالأراجيح ولعب الأطفال البائسة، ومأوى للباحثين عن السهر وتزجية الفراغ.

كان هذا الشاطئ - على أيامنا البعيدة - يمتد عدة كيلو مترات .. كان فيها المرسى النيلي للمراكب الشراعية، ومكان صناعة الصنادل، وكانت أرصفة حجرية عديدة موجودة على الشاطئ لحمايته من النحر، ويقبع فيما بينها عدد من الفواخير لصناعة الفخار بأنواعه المختلفة: الأزيار والقلل والأبرمة والطواجن، وغيرها، حاولت السينما تصويرها في بعض الأفلام، مثل فيلم المولد، الذي مثله عادل إمام.

### عمارات قبيحة:

ومع الانفتاح والتحول الرأسمالي وكثرة السكان والوافدين، تحولت هذه المساحة المملوكة عمليًّا للهيئة التي تحمي النيل، إلى عمارات قبيحة ومحلات وقاعات أفراح، وورش لإصلاح السيارات، ونحو ذلك .. وفي كل الأحوال لحقت هذه المنطقة بأراضي الأوقاف التي كانت تحيط بالمسجد الإبراهيمي، وتمتد حتى الشاطئ، وصارت كتلا من

الخرسانة الكالحة بهياكلها وألوانها وتخطيطها وتباينها، وكانت الغاية التي نجحت فيها هي التضييق على الناس، حتى اختنقت أنفاسهم، وضاقت صدورهم.

### المسجد الإبراهيمي:

يذكر أن المسجد الإبراهيمي الذي يقوم على ضريح العالم الصوفي إبراهيم الدسوقي، وهو إبراهيم بن عبد العزيز أبو المجد (653 – 696هـ= 1255 – 1296م)، ويعد آخر أقطاب الولاية الأربعة لدى الصوفية، وإليه تنسب الطريقة الدسوقية أو الإبراهيمية. ينتهي نسبه من جهة أبيه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، ومن جهة جده لأمه إلى أبي الفتح الواسطي خليفة الطريقة الرفاعية في مصر، تأثر بأفكار أبي الحسن الشاذلي، وكان على صلة بأحمد البدوي بمدينة طنطا، الذي كان معاصرًا له. وضريح والده عبد العزيز أبي المجد يقوم عليه مسجده الكبير في قريتنا، وهو على خط استقامة واحدة مع مسجد الدسوقي عبر النهر.

وقد تولى الدسوقي منصب شيخ الإسلام في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، ويقال إنه كان من قادة الجهاد في الحروب الصليبية، وأبلى ومن معه من المجاهدين بلاء حسنًا، وخاصة في موقعة المنصورة، التي انتهت بأسر لويس التاسع ملك فرنسا في دار ابن لقمان.

### العديد من الكرامات:

يُنسب للدسوقي العديد من الكرامات الخارقة للعادة، التي يشكك بها بعض المتصوفة، وغيرهم من أهل السنة والجماعة. وقد انتشرت طريقته الصوفية في مصر والسودان خصوصًا، بجانب بعض الدول الإسلامية والأورُبيّة، وتفرعت من طريقته العديد من الطرق الأخرى، أشهرها: البرهامية، والشهاوية البرهامية، والدسوقية المحمدية في مصر، والبرهانية الدسوقية الشاذلية بالسودان، وهي طريقة منحرفة كفرها علماء الأزهر.

ويُقام للدسوقي احتفالان في مدينة دسوق سنويًّا؛ أحدهما في شهر أبريل يُسمى بالمولد الرجبي، والثاني في أكتوبر أو نوفمبر، وهو الاحتفال بمولده، الذي يُعد من أكبر الاحتفالات الدينية في مصر، حيث يزور مسجده - الذي يعد مركز المدينة - أكثر من مليون زائر في

المتوسط من داخل مصر وخارجها على مدى أسبوع؛ ولذلك أصبحت المدينة عضوًا في منظمة العواصم والمدن الإسلامية، ويعمر هذا المولد - بصورة أساسية - أصحاب الطرق الصوفية؛ من شاذلية ورفاعية وأحمدية وبرهامية وغيرها، فضلا عن العامة، وهو فرصة اقتصادية سنوية للتجار وأصحاب النشاط الخدمي في المدينة وما حولها، يفيدون منه في البيع والشراء والخدمة مقابل العوائد الجيدة التي ينتظرونها طول العام.

**دق الطبول:**

وتشارك السلطة في المولد بسرادق خاص، يحضر فيه بعض العلماء والمسئولين وقادة الطرق الصوفية، ويتلى فيه القرآن الكريم، وتلقى فيه بعض الكلمات، وينشد المبتهلون شيئًا من المدائح النبوية، وتبدأ احتفالات المولد عادة بموكب للطرق الصوفية، يرفعون فيه الأعلام، ويدقون الطبول، ويتحركون بطريقة منظمة، وقد يشاركهم بعض الحرفيين والمراكبية والطوائف المهنية، ويتقدمهم رئيس المولد، ويسمى هذا الموكب بجمعة الحاكم.

يتكرر الموكب في الجمعة التالية، التي تسمى جمعة الخليفة، حيث يقوده خليفة صاحب الضريح، وهو عادة رئيس الطريقة الإبراهيمية الدسوقية، ويقيم في المدينة، ويطلق عليه الناس تسمية دائمة، وهي الخليفة دون ذكر لاسمه الأصلي، وله نصيب كبير من عائد صندوق النذور، وهذا النصيب يفترض أن يُنفق على أتباع الطريق أو الدراويش الذي يدينون بالولاء والحب لصاحب المقام المنتمي لآل البيت.

**التياترو:**

ويرتبط المولد في ذهني بما كان يسمى التياترو أو المسرح، فقد كانت تأتي فرق مسرحية شعبية – غالبًا من الإسكندرية – وكانت تدور مع الموالد في طنطا والقاهرة والصعيد، وتقيم مسارحها من شرائح الخشب، المعدة لذلك، وتغطيها بالمشمعات العريضة، وتصنع المقاعد في الداخل على هيئة الدكك الخشبية، أو الكراسي المصنوعة من الخشب والقش المبروم أو خوص النخيل. وكانت تعتمد تقديم الرقص والأغاني والمونولوجات وإلقاء النكت، وبعضها كان يقدم فقرات تمثيلية أو مسرحيات قصيرة، يؤلفها ويمثلها، أو قل يرتجلها أعضاء الفرقة، الذين كانوا أيضًا يتناوبون الجلوس في شباك التذاكر لبيع التذاكر

للجمهور، الذي يكون معظمه من المراهقين، وكان من أشهر الفرق التي تأتي، وتظل أسابيع بعد انتهاء المولد، فرقة "حمام العطار"، وهو سكندري، كان له مسرح باسمه في الإسكندرية، وظل إلى وقت غير بعيد بمنطقة الأزاريطة فيما أذكر.

**السيرك:**

إلى جانب المسارح، كان يأتي السيرك الذي ينسب إلى عائلة الحلو، وهم مشهورون بترويض الحيوانات المفترسة مثل الأسود، وقد تم تأميم السيرك الذي كان في القاهرة، وصار تابعًا لوزارة الثقافة حتى الآن. وكان إلى جانب الأسود توجد النمور والأفيال، التي كان يصعب على أبناء القرية رؤيتها في حديقة الحيوان بالقاهرة أو الإسكندرية، فيرونها بسهولة في سيرك المولد.

كان أصحاب المسارح والسيرك بعد انتهاء المولد، يذهبون إلى المدارس والمعاهد، ويعرضون حفلات نهارية مخفضة السعر للطلاب، كانت الحفلات الليلية العادية بثلاثة قروش، وكانت حفلات الطلاب المخفضة بقرش واحد.

**عادات سيئة:**

ارتبط المولد في وجداني بالزحام والقذارة والفوضى والخيام الكثيرة التي تتراوح أحجامها، فتضم العشرات أو الآحاد، ولكن روادها من الدراويش أو الزائرين أو العابرين، يتميزون بعادات مقززة، مثل قضاء الحاجة في الطرقات، ورمي الفضلات تحت أقدام المارة، وتجد بعضهم في هذا الجو يذبح الخرفان أو العجول، ووسط الدماء وبقايا الحيوانات تجد من يطبخ ويقدم الطعام لأحباب الدسوقي.

كنت أكره أيام المولد التي يحبها بعض الناس، أو يحبون ما يجري فيها من ممارسات أو سلوكيات منافية للآداب، كما تكثر السرقات وعمليات النصب والاحتيال. كانت المناسبة تخنقنا ونحن ذاهبون إلى الدراسة أو عائدون منها، وكانت الإدارة تمنحنا نحن الطلاب والمدرسين والموظفين والعمال إجازة يومي الأربعاء والخميس؛ لنتفادى الزحام والعناء، حيث يكون الميدان والمرسى ومواقف السيارات والشوارع المحيطة بالمسجد

ملأى بالخلق، ولا مكان لإبرة، تلقيها فلا تسقط على الأرض. كان الفلاحون يسمون زحام المولد بيوم الحشر؛ تشبيهًا له بيوم القيامة، الذي سمعوا عنه ولم يروه!!

**العبور إلى قريتنا:**

لا يكتفي الدراويش والزوار بالبقاء في المدينة، ولكنهم يعبرون النهر بالمراكب أو اللنشات أو عبر الكوبري، مشيًا على الأقدام إلى قريتنا؛ حيث يوجد ضريح والد إبراهيم الدسوقي، وهو عبد العزيز أبو المجد، فينقلون إليها الزحام والفوضى والقذارة، وقد تحدث معارك دامية بينهم وبين أهالي القرية، وما زلت حتى اليوم أتذكر وأنا في الرابعة من عمري تقريبًا، معركة رهيبة، جرت بين الزوار وأهل القرية. عرفنا أن من أشعلوا المعركة جاءوا من المحلة الكبرى، وشب القتال بسبب احتقار الغرباء لأهل القرية، بوصفهم فلاحين جهلاء تافهين، يجب أن يُضربوا ويسكتوا! ولكن الفلاحين لقّنوهم علقة ساخنة، امتنعوا - على إثرها - عن الحضور إلى القرية عدة سنوات تالية.

وقد ذكّرتهم هذه المعركة بأخرى سابقة، قام فيها واحد من الأهالي بضرب أحدهم فأفقده عينه، وقضى بسبب ذلك خمس سنوات في السجن!

وقد حدثت كوارث عديدة في الاحتفالات بالمولد، منها غرق بعض المراكب التي تنقل الزوار من المدينة إلى القرية وتعيدهم إليها، وقد حدثت أواخر السبعينيات أو أوائل الثمانينيات حادثة مروعة غرق فيها مركب شراعي، وراح ضحية الحادث عشرات الغرقى الذين قضوا، وأحيل صاحب المركب - وكان من أقاربي - إلى الجنايات، وقضى - رحمه الله - عددًا من السنوات داخل السجن في مدينة دمنهور عاصمة المحافظة!

**علامات المولد:**

وكان من علامات المولد أن يحضر إلى القرية بعض الحواة وباعة الأدوية الشعبية التي تشفي كل الأمراض كما يزعمون، وأعداد لا حصر لها من الفقراء ولابسي الخرق البالية أو المرقّعات والمجاذيب، الذين يعيشون في عالم خاص؛ بسبب أمراض نفسية أو عقلية، وأصحاب قِرَب الماء يسقون المصلين أو المارة في الشوارع؛ من أجل أن يتصدقوا عليهم ببعض القروش (عملة لا وجود لها اليوم).

وأذكر أن رجلا طيبًا كان يأتي مبكـرًا إلى القريـة كل عام، ويـستخدم قربتـه في سـقيا الناس، وكان ينام أمام باب المسجد، وفي أحد الأعوام فوجئنا بـه يـأتي بطفلـة صـغيرة في الخامسة أو السادسة، وحين عرف أبي أنها ستنام بجواره أمام باب المسجد، أحضرها لتنـام معنا في البيت. كنت أكبر منها بعامين أو نحو ذلك، وكانت أمي تعدها ابنتها، ويوم سـفرها مع أبيها – عم طلبة كما كنا نناديه - تودعهـا بـالدموع والدعـوات، وتنتظرهـا في العـام التالي، وظلت بضع سنوات تحضر مع والدها في المولد، ثم توقفت، وعلمنا فيمـا بعـد أنهـا تزوجت وأنجبت، ثم لحق الرجل برحاب ربه.

لقد خفّ حضور الزوار إلى القرية في العقدين الأخيرين، ولكن ذكرى المولد - لسبب لا أعرفه - تصيبني بالاكتئاب، وتشعرني بالتقزّز، وأفضل أن أكون بعيدًا عن مـصر كلهـا في هذه المناسبة.

**محاولات لإلغاء المولد:**

منذ عدة عقود لم أذهب إلى المدينة في أيام المولد. لا أعرف كيف يقام الاحتفـال الآن وسط زحام العمارات وضيق الشوارع. وقد سمعت أن السلطات خصصت بعض الشوارع في جنوب المدينة، وأغلقتها في وجه المرور لينصب الدراويش والمريدون خيامهم، ويقيمـوا لياليهم ثم ينصرفون. ولا أظن أن هناك مجـالا الآن للمـسارح أو الـسيرك؛ بـسبب ضـيق المكان، ويبدو أنها انقرضت، بعد أن وفر التلفزيون بـالألوان فرصـة تقـديم المـسرحيات الكوميدية والأغاني والسيرك من خلال التصوير، الذي يقدم ما كانـت تقدمـه المـسارح والسيرك حيًّا على الشاشة.

هناك محاولات لإلغاء الموالد، ولكنها لم تنجح؛ بسبب مصالح التجار والمنتفعين منهـا ماديًّا، بالإضافة إلى أن النظام المستبد منذ أيام الاستعمار كان يرى في الموالد، والاسـتعداد لها وإقامتها، وما يمارس فيها من بدع وخرافات وألعاب قمار وممارسات انحرافية، وسـيلة لإلهاء الشعب عن التفكير في الحرية ومقاومة الاستبداد والطغيـان. والأمـل معقـود على انتشار التعليم، وزيادة الوعي ومحاربة البطالة والتـشرد، ورفـع المـستوى الثقـافي للطـرق الصوفية.

**أربع مآذن عالية:**

ويعد المسجد الإبراهيمي من أكبر المساجد التاريخية في مصر، وقد بني على الضريح الذي يضم رفات الدسوقي وشقيقه موسى العمران، وقد صار الضريح الآن شبه مستقل عن المسجد ذي المساحة الواسعة، وقد دخلت عليه توسعات وإصلاحات وتعديلات عديدة طوال الخمسين عامًا الأخيرة، أهمها فصل الحمامات ومكان الوضوء بعيدًا عنه، وتخصيص مكان متسع للسيدات من طبقتين، وقاعة للاحتفالات وعقود القران، كما صارت له أربع مآذن عالية ورشيقة، وفي الداخل تمت زخرفته بالخطوط العربية والتصميمات النباتية، بما جعل السقف والمحراب وأطراف الجدران تحفة فنية رائعة. ويشبه المسجد الإبراهيمي - في هيئته العامة - المسجد النبوي الشريف، وقد كنا ونحن طلبة نجد فيه فسحة للاستذكار، وخاصة في أيام الامتحانات؛ حيث يتوفر الهدوء والسكينة. وقد تمت توسعة الميدان الكائن أمامه، وإنشاء حديقة مستطيلة، تبدأ من الميدان، وتقترب من النهر، حيث مقر مجلس المدينة، ويزيد طولها عن مائتي متر.

**صفارة الإفطار:**

كان من أبرز معالم المدينة، وجود مضرب للأرز، وبجواره شونة كبيرة، مثل الشونات الأخرى التي خصصت للحبوب والبذور، ويبدو أنه تم تأميمه مثل المحالج الثلاثة التي كانت مخصصة لحلج القطن، وهي محلج فرغلي، وكان مملوكًا لرجل الأعمال الشهير محمد فرغلي، الذي بنى إمبراطورية اقتصادية خاصة به، وكان يسمى ملك القطن، وقد نشأ الرجل نشأة عصامية قبل انقلاب يوليو 1952، الذي أتى على كل ممتلكاته بالتأميم أو المصادرة، وكان هناك محلج مفتاح، ومحلج ثالث لا أذكر تسميته، وقد بقي المحلج الأول قائمًا حتى اليوم، ولم تصل إليه يد الخصخصة التي أوشكت أن تخلعه من ملكية الدولة وتنقله إلى ملكية ملوك الانفتاح والنهب. وكان مرتبطًا في أذهاننا بصوت صفارته التي كان يطلقها عند لحظة الإفطار في رمضان، فتنبعث على أثرها أصوات المؤذنين في كل مساجد القرى المحيطة التي تسمع صوته، كما كانت هذه الصفارة ذات حضور واضح في عدوان 56، حيث كانت تنطلق معلنة عن حدوث غارات طيران العدوان الثلاثي على مصر، ولكن

صوتها اليومي كان ينطلق عند الخامسة صباحًا، وكنا نقيس بها موعد صلاة الفجر، حيث تكون قبلها أو بعدها، ونرتب عليها ونحن طلاب موعد النزول إلى النهر للإبحار بالمركب نحو المدينة.

### انهيار زراعة القطن:

كانت الصفارة تنطلق عند تغيير الورديات، وظلت تعمل حتى انهارت زراعة القطن المصري، وحلت مكانها زراعة الكنتالوب والفول السوداني وبطيخ اللب، وبالتالي لم يعد هذا المحلج وأمثاله يعمل طوال العام؛ لأن الكميات التي يقوم بحلجها صارت قليلة، وقد تم تقليل العمالة، وتقليل العمل، ولم تعد هناك حاجة إلى ورديات مسائية أو ليلية. وردية واحدة تكفي وزيادة، ويحمد الله الناس أن بقي هذا المحلج على مساحته الواسعة، لم تمتد إليه يد النهب التي استطالت في العقود الثلاثة الماضية ولم تبق على شيء مملوكًا للشعب إلا قليلا. لقد كانت عمليات الخصخصة وبيع القطاع العام أو تسليمه إلى اللصوص الكبار بثمن بخس بابًا قانونيًّا لنهب البلاد والعباد، ومن بين ما تم نهبه المحلجين الآخرين، فقد بيعا بثمن بخس، ونقلت آلاتهما إلى أماكن أخرى، وتشرد العمال في أرجاء المدينة والقرى المجاورة، أما الأرض فقد تحولت إلى عمارات تشبه بقية العمارات الكالحة، ووصلت أسعار الوحدات فيها إلى أرقام خرافية كما علمت!

### البير فهمي:

كان في المدينة عدد من الأطباء القليلين، معظمهم من النصارى، فقد كان أبناء الطائفة أفضل حالا ماديًّا، وأكثر اهتمامًا بالتعليم فيما قبل 52؛ ولذا كان من النادر أن تجد طبيبًا مسلمًا، وأذكر أن طبيبًا عمّر طويلا، كان اسمه البير فهمي، اشتهر في المدينة وما حولها من القرى طوال عقود، وجاء بعده أطباء للعيون، والأسنان، والأنف والأذن والحنجرة، والجراحة العامة، والصدر والعظام، وقد كانت معاملتهم بصفة عامة جيدة، وكان هناك طبيب متخصص في الباطنة والأطفال، اسمه سامي بطرس، حظي بشعبية عالية في قريتنا، وكانت عائلة أمي لا تذهب إلى طبيب غيره، إلا إذا أشار هو بذلك، وكان يعرف أفراد العائلة بالاسم، ويسأل عنهم إذا ذهب أحدهم للكشف عنده.

**معاهد ومدارس:**

كانت المدينة تضم معهدين أزهريين؛ أحدهما ابتدائي (يعادل الإعدادي الآن) وآخر ثانوي، وكان عدد طلابهما كبيرًا بمقاييس ذلك الزمان، وبالإضافة إليهما، كانت هناك جمعية لتحفيظ القرآن (تعادل المدرسة الابتدائية).

أما التعليم العام، فقد كانت هناك مجموعة من المدارس الابتدائية، ومدرستان إعداديتان للبنين، وواحدة للبنات، ومدرسة ثانوية للبنين، وأخرى للبنات، تكاثر العدد الآن في كل المراحل، وبعضه يعمل فترتين: صباحية ومسائية، كل فترة مدرسة مستقلة. بالإضافة إلى المدارس الفنية: التجارة، الصناعة، الزراعة .. وكانت هناك مدرسة للمعلمين، درست فيها لمدة خمس سنوات، واستمرت عقودًا، وتمت تصفيتها بعد التوسع في كليات التربية الملحقة بالجامعات.

**الضفة الأخرى من النهر:**

كانت المدينة - مع أنها تابعة لمحافظة أخرى (كفر الشيخ وقبلها الفؤادية) غير محافظتنا (البحيرة) - إلا أنها كانت أقرب إلى قريتنا؛ لأنها على الضفة الأخرى للنهر مباشرة، وكانت المدينة المركز الذي تتبعه قريتنا - وتسمى شبراخيت - بعيدة عنا نسبيًّا، وكانت آنئذ أقرب إلى القرية منها إلى المدينة، ولا توجد فيها حركة تجارية مثل التي في دسوق، باستثناء ما يوجد فيها من معالم السلطة :مركز الشرطة، والمحكمة، والإدارة الزراعية، ومكتب التموين، والمستشفى الحكومي، وبعض الأطباء الذين يعملون في عيادات متواضعة، وبعضهم يجري فيها عمليات جراحية مألوفة، مثل الزائدة الدودية أو الفتاق أو البواسير، أو نحو ذلك. وكان أهلها يحضرون إلى دسوق؛ للتزود بالبضائع ومستلزمات الحياة، وإن كانت اليوم قد تغيرت وتوسعت، وصار فيها تجار للجملة.

**المستشفى الأميري:**

ثم إن مستشفى دسوق الأميري - كما كان يسمى آنئذ - كان مشهورًا بكثرة أقسامه وأطبائه، بالمقارنة مع غيره من مستشفيات أخرى في المراكز المجاورة. وكانت العيادة الخارجية مجالا لمعالجة الأمراض المتوطنة - كما كان يطلق عليها - وهي البلهارسيا

والإنكلستوما، التي كانت شائعة في ذلك الحين؛ بسبب الحفاء وانتشار القواقع في نهر النيل، الذي كان الأطفال يسبحون فيه، والكبار يستخدمون مياهه في الشرب والغسيل، وهو ما كان يسهل الإصابة والعدوى، وكانت علاجات البلهارسيا سببًا في إصابة ملايين المصريين بأمراض الكبد المتفشية الآن بين الشباب والكبار، وتحصد أرواح كثير منهم على مدار اليوم والليلة.

**مشاهير معاصرون:**

لقد انتسب إلى المدينة عدد لا بأس من العلماء والمشاهير، الذين عاشوا على أرضها أو غادروها إلى الإسكندرية أو القاهرة، وكان لهم تأثير ما على واقع الحياة المصرية بصورة ما.

ومنهم عبد الوهاب مطاوع (1940 - 2004)، وكان صحفيًّا مرموقًا بجريدة الأهرام، وصل إلى منصب مدير تحرير، ولكن الأهم من المنصب هو تحويل بريد القراء الذي كانوا يراسلون الجريدة، إلى عالم من الحركة والحيوية في بابه اليومي أو صفحته الأسبوعية، حيث كانت الرسائل تعالج مختلف شئون الوطن؛ من السياسة إلى الاقتصاد، وما بينهما من هموم وشجون في المجالات المختلفة على المستوى العام والمستوى الشخصي.

وكان بريد الجمعة صفحة أسبوعية اجتماعية، تعالج قضايا خاصة، يصوغ رسائلها بأسلوبه في إطار أدبي جميل، متضمنًا مقتبسات شعرية ونثرية لأعلام الأدب والفكر العرب والأجانب؛ لخدمة القضايا التي يعرضها ويقدمها للقراء، بوصفها تجارب إنسانية ثرية ومليئة بالعِبر والخبْرات.

**بريد الجمعة:**

وقد ظل يحرر بريد الجمعة لما يقرب من ربع قرن من الزمان، وقد اشتهر البريد بين القراء، وأصبح من أسباب زيادة التوزيع لعدد الجمعة من الجريدة. وقد كان حريصًا في كتابته لبريد الجمعة على تأكيد القيم الإسلامية والخلقية، والإعلاء من شأن الأسرة والأبناء، وكان أهم ما يميز شخصيته جديته في العمل، وتواضعه مع كل من حوله، والدقة في التعامل مع مشكلات القراء وتبرعاتهم. وقد جمع حصاد ما كتبه في بريد الجمعة في

مجموعة كبيرة من الكتب، يقبل القراء عليها حتى الآن؛ لما تحمله من نبض إنساني حي، وسرد قصصي شائق، وأسلوب أدبي رفيع متميز - رحمه الله.

### جائزة نوبل:

ومنهم العالم الشهير أحمد زويل (1946 - ...)، الذي حصل على جائزة نوبل في العلوم، وكان عمه إبراهيم وأولاده يسكنون في قريتنا، ويمارسون أعمالا متواضعة، وكان والد أحمد زويل يعمل سائقًا في وزارة الصحة، ويعرف أبي، رحمهما الله. وكانت سيارته تحمل - عادة - مجموعة من الممرضات، اللاتي يقمن برش الأطفال لمقاومة الحشرات التي تسكن الشعر أو الملابس أو الغرف، وكنا نسمي سيارته بسيارة الرش، وكانت مرتبطة في أذهاننا بالضحك والمرح؛ لأن الرشاشة أو البخاخة - كما كانت تسمى - كانت ذات طرف طويل ضيق يدخل في الجلباب من الرقبة، وتضغط الممرضة فتنتشر البودرة في الظهر، ثم تنتقل إلى الأمام، فتضع طرف الرشاشة في الصدر، وهو ما كان يثير الهرج والمرج، وكان الرجل يأتي إلى القرية ويترك السيارة عند المسجد، ويقول للموجودين: إنه ذاهب إلى زيارة أخيه إبراهيم وأولاده.

لم أعرف ابنه أحمد - وهو من مواليد السنة التي ولدت فيها - وعندما انتقل والده إلى دمنهور التحق بمدرستها الثانوية، وزامله هناك الصحفي فاروق جويدة، ورجل النظام المصري البائد مصطفى الفقي، وقد تحدث الثلاثة عن صداقتهم في المرحلة الثانوية كثيرًا على شاشة التلفزيون.

### علاقة بالصهيونية:

عندما عرفت بعلاقة زويل بالكيان الصهيوني، وخدماته له لمواجهة المقاومة الفلسطينية واللبنانية، وخاصة في مجال تقنيات الصواريخ، وقبوله بعض جوائزه، وثنائه على الصهاينة في الكنيست، سقط من نظري، مع تقديري لما قدمه من إنجازات علمية لخدمة البشرية، ثم كان ما تسرب عن طريقة تعامله مع بعض أقاربه – وكأنه يعتزّ منهم – حائلا بين الارتياح إليه، كما لم أسترح إلى لجوئه إلى الدعاية لنفسه عن طريق بعض

الصحفيين، وهو ما يتنافى - من وجهة نظري - مع تواضع العلماء، وهدوئهم الرزين، وترفعهم عن المظاهر والشكليات التي لا تليق بهم.

وقد عرفت المدينة عددًا بارزًا من علماء الدين، وفدوا إليها من القرى المجاورة، أو مناطق بعيدة من أنحاء الجمهورية، وقد أثروا في الناس من خلال خطبهم المنبرية، أو دروسهم الوعظية، أو مشاركتهم الاجتماعية في قضايا الجمهور.

وأذكر منهم الشيخ محمود فايد، والشيخ عبد المنعم حجاب، والشيخ حجاج السيد، والشيخ توفيق عاشور، والشيخ مختار أبو زيد – رحمهم الله جميعًا.

**الخيالة أو السينما:**

بقي أن أشير إلى دار السينما الوحيدة في المدينة، وكان اسمها المقابل في اللغة العربية (الخيّالة)؛ لاعتمادها على الخيال أو القصص الخيالي، لكن عنوان السينما في دسوق كان (سينما مصر)، وكانت تقدم حفلين يوميًّا؛ أحدهما مسائي، والآخر ليلي، وتقدم حفلة نهارية يومي الاثنين والخميس، وكان دخولها وحضور حفلاتها شيئًا غير مستحب، خاصة بالنسبة للطلبة، وقد ارتبطت في الذهن العام بأنها تقدم ما لا يحسن رؤيته، وإن كنا نسمع من روادها عن معارك فريد شوقي وحش الشاشة، الذي يهزم كل من يتعاركون معه أو يعتدون عليه، كما كنا نسمع عن إسماعيل ياسين الفكاهي المضحك، الذي يجذب المشاهدين من كل مكان.

ولعلها مرة واحدة التي شاهدت فيها هذه السينما وأنا طالب، حيث ركبنا مجموعة من الطلبة وبعض الشباب مركبًا، ودخلنا ومعنا المراكبي صالة العرض، وشاهدنا فيلمًا، اسمه على ما أذكر "تنابلة السلطان"، وآخر لا أذكر اسمه، ولكننا عدنا في منتصف الليل، وكان قلق أبي وأمي واضحًا، وعرفت غضب أبي في وجهه، فتواريت سريعًا، وذهبت إلى النوم، وقد عدت إلى السينما مرة أخرى في وضح النهار مع زملاء المدرسة؛ لحضور حفل تنصيب اتحاد الطلاب، وكنت عضوًا فيه، حيث كانت السينما مجهزة بمسرح كبير، تقام عليه الاحتفالات، وتعرض فوقه المسرحيات المدرسية وغيرها، وهذه المرة لم يكن هناك أحد يقف على باب السينما، أو يطلب تذاكر من الداخلين.

**مدير السينما:**

كلما مررت يوميًّا على السينما في طريقي بعد انتهاء الدراسة، أجد رجلا ربعة أبيض الوجه، قريبًا إلى الاحمرار، يرتدي نظارة لا تتغير، ويهتم بتسريحة شعره التي يصنعها على هيئة فرق، ويبدو أنيقًا في هندامه ومظهره، ويضع نوعًا نفاذًا من الروائح، وقيل عنه إنه مدير السينما، وكان يعيش وحيدًا بداخلها، وظللت أراه لفترة طويلة اختفى بعدها، لا أعرف هل غيبه الموت أو ذهب إلى بلد آخر.

عرفت أن السينما آلت ملكيتها إلى مذيع بإحدى الإذاعات كان يكتب الدراما، وأعدّ بعض الأفلام التي دارت أحداثها أو جزء منها في المدينة، وبعد رحيله آلت الملكية إلى ورثته، ولكنها توقفت قبل عقد من الزمان أو أكثر، ولا أدري هل تحولت إلى عمارة شاهقة ومحلات، أو بقيت على حالها، فمنذ زمان لا أستطيع المشي في الشوارع، بل لا أذهب إلى المدينة إلا للطبيب، أو لضرورة قصوى، وتحملني السيارة من الباب للباب.

**الخطاط يربطني بالسينما:**

الطريف أن ما ربطني بهذه السينما هو الخطاط الذي كان يكتب الإعلانات الخاصة بالأفلام الجديدة على الحوائط وما أشبه. كان يفعل ذلك عادة يوم الأحد من كل أسبوع، ما لم تكن هناك استثناءات، مثل أفلام العيد والمولد. كنت أقف لأشاهده وهو يستخدم الفرشاة التي يشبه طرفها طرف القلم البسط المقطوع بطريقة مائلة من الأمام، وأتابع طريقة إمساكها بيده، التي يحركها بطريقة معينة، وهو يكتب العناوين بخط الرقعة أو النسخ أو الفارسي. وأمام السبورة في الفصل كنت أحاول تقليده، وقد تحسن خطي وصار جميلا بفضل هذا الرجل، الذي لا أذكر الآن ملامحه، ولا أعرف اسمه، ولكنه كان يرتدي ملابس متواضعة؛ قميصًا وبنطلونًا، وأحيانًا سترة غامقة، وكانت تظهر عليها آثار الألوان التي يكتب بها. وكان معه دائمًا جردل صغير وسلم، بالإضافة إلى علبة، فيها أكثر من فرشاة، تتناسب مع حجم الخطوط الصغيرة والكبيرة.

**حالة نادرة:**

كانت هذه السينما حالة نادرة في المنطقة كلها، فلم تكن المراكز المحيطة تعرف دور السينما، بل إن عاصمة المحافظة لم تعرفها إلا مؤخرًا. لعل دمنهور هي الوحيدة التي عرفت السينما في وقت مبكر. وقد اكتشفت في الستينيات أن مدينة رشيد - وكنا في رحلة مدرسية إليها - بها دار وحيدة للسينما، فتحوها من أجل طلاب الرحلة، نظير تسعة مليمات ثمن التذكرة (كانوا يحصلون على القرش كاملا)، وشاهدنا فيها فيلمًا لفريد شوقي وهدى سلطان.

ومهما يكن من أمر، فقد وفر ظهور التلفزيون - سواء بما يقدمه من دراما أو أفلام عربية وأجنبية - فرصة التسلية المجانية، دون أن يتجشم الناس عناء الذهاب إلى دور السينما، ودفع ثمن التذاكر، أو التعرض لتحرش بعض الشبان بالسيدات والبنات.

الحياة تتغير، وهذه سنة الله في خلقه!

* * *

## 3- التبر السائل

**حالة خاصة وحالة عامة:**

النيل .. التبر السائل

كنت أحبه ولما أزل!

وحزنت من أجله ولما أزل!

إنه النيل .. النهر .. شريان الحياة ووريدها!

هو الملعب والبهجة والرحلة والفرح والحزن والألم والمرض والماضي والحاضر والمستقبل!

هو الفيضان المتدفق، وهو السكون الغامض، وهو الموج الصاخب، وهو الصفحة الوادعة اللامعة، وهو الأزرق والأحمر وفق المواسم ..

ويظل النيل بالنسبة لي حالة خاصة، مع أنه حالة عامة قومية وإنسانية، بل هو موضوع إستراتيجي خطير في زماننا والأزمنة القادمة.

كانت هناك قصائد وأغان رددها كبار المطربين عن النيل، وتغنوا فيها بجماله وقيمته وتاريخه، لقد جعلوا منه موضوعًا حيويًّا لأغانيهم، التي أقبل عليها الجمهور وأحبها وحفظها، فقد اهتمت به أم كلثوم، وقدم محمد عبد الوهاب أكثر من قصيدة وأغنية، وأدى عبد الحليم حافظ أغنية مؤثرة، وقد تناول النيل معظم شعراء النهضة الأدبية الحديثة: السيد توفيق البكري، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، وأحمد محرم، والزجال الشهير بيرم التونسي .. ويكاد الشاعر أحمد شوقي يكون الشاعر الوحيد الذي كتب في النيل أطول قصيدة، إلى جانب قصائد أخرى عديدة بالفصحى والعامية، تتعلق به بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

**قصيدة شوقي:**

وتعد قصيدة النيل، التي كتبها أحمد شوقي، وغنتها أم كلثوم، من أشهر القصائد التي تحدثت عن النيل، وتغزلت فيه، ومزجت بين ماضيه وحاضره، ومع صعوبة القافية وجزالة الألفاظ، فقد غزت أفئدة الناس وحركت مشاعرهم:

**مـن أَيِّ عَهـدٍ في القُـرى تَتَـدَفَّقُ ... وَبِـأَيِّ كَـفٍّ في المَـدائِنِ تُغـدِقُ**

**وَمِنَ الـسَماءِ نَزَلـتَ أَم فُجِّـرتَ مِـن ... عَليـا الجِنـانِ جَـداوِلا تَتَرَقـرَقُ**

**وَبِـأَيِّ عَـينٍ أَم بِأَيَّـةِ مُزنَـةٍ ... أَم أَيِّ طوفـانٍ تَفـيضُ وَتَفهَـقُ**

**وَبِـأَيِّ نَـولٍ أَنـتَ ناسِـجُ بُـردَةٍ ... لِلـضِفَّتَينِ جَديـدُها لا يُخلَـقُ**

**تَـسوَدُّ ديباجًـا إِذا فارَقتَهـا ... فَإِذا حَـضَرتَ اخـضَوضَرَ الإِستَبرَقُ**

**في كُلِّ آوِنَـةٍ تُبَـدِّلُ صِـبغَةً ... عَجَبًـا وَأَنـتَ الـصابِغُ المُتَـأَنِّقُ**

**أَتَتِ الدُهـورُ عَلَيـكَ مَهـدُكَ مُـترَعٌ ... وَحِياضُـكَ الـشُرقُ الـشَهِيَّةُ دُفَّـقُ**

**تَـسقي وَتُطعِـمُ لا إِنـاؤُكَ ضـائِقٌ ... بِـالوارِدينَ وَلا خُوّانُـكَ يَنفُـقُ**

**وَالمـاءُ تَـسكُبُهُ فَيُـسبَكُ عَـسجَدًا ... وَالأَرضُ تُغرِقُهـا فَيَحيـا المُغـرَق**

لقد اختارت أم كلثوم بعض الأبيات من القصيدة الطويلة، وغيّرت بعض الكلمات، وأدتها بطريقة قوية، جعلتها حية حتى اليوم، ويتلقاها الناس بالاستحسان، ويرونها ملائمة في المناسبات الوطنية والقومية.

**الوردة البيضاء:**

وقد وضع شوقي أغنية بالعامية المصرية، غناها محمد عبد الوهاب في أحد أفلامه - الوردة البيضاء عام **1933**م - وتناقل الناس الأغنية؛ لما تحمله من معان ذات دلالة تاريخية وإنسانية واجتماعية:

النيل نجاشي .. حليوه أسمر

عجب للونه دهب ومرمر

أرغوله فى إيده

يسبح لسيده

حياة بلدنا

**يا رب ديمُه**

وفي الأغنية استحضار لحركة النيل والفلايك (الزوارق الصغيرة) التي تجري على صفحته، وغناء المراكبية الشهير هيلا هوب هيلا.

**النهر الخالد:**

كما غنى عبد الوهاب قصيدة من أجمل قصائد النيل، نظمها الشاعر محمود حسن إسماعيل تحت عنوان: "النهر الخالد"، وهي مليئة بالصور والتشخيص، وترى النيل كائنًا حيًّا يتحرك، ويتفاعل، ويتأثر، وينفعل:

**مسافر زاده الخيال والسحر والعطر والظلال**

**ظمآن والكأس في يديه والحب والفن والجمال**

**شابت على أرضه الليالي وضيعت عمرها الجبال**

**ولم يزل ينشد الديارا ويسأل الليل والنهارا**

**والناس في حبه سكارى هاموا على شطه الرحيب**

**آهٍ على سرك الرهيب وموجك التائه الغريب**

**يا نيل يا ساحر الغيوب**

**يا واهب الخلد للزمان يا ساقي الحب والأغاني**

**هات اسقني ودعني أهيم كالطير في الجنان**

**يا ليتني موجة فأحكي إلى لياليك ما شجاني**

**وأغتدي للرياح جارا وأسكب النور للحيارى**

**فإن كواني الهوى وطارا كانت رياح الدجى نصيبي**

**آهٍ على سرك الرهيب وموجك التائه الغريب**

**يا نيل يا ساحر الغيوب**

**سمعت في شطك الجميل ما قالت الريح للنخيل**

**يسبح الطير أم يغني ويشرح الحب للخميل**

**وأغصنٌ تلك أم صبايا شربن من خمرة الأصيل**

**وزورق بالحنين سارا أم هذه فرحة العذارى**

**تجري وتجري هواك نارا حملتُ من سحرها نصيبي**

**آهٍ علي سرك الرهيب وموجك التائه الغريب**

**يا نيل يا ساحر الغيوب**

**عمل خالد:**

إن رقيّ كلمات محمود حسن إسماعيل، جعلت من قصيدته عملا خالدًا على ألسن الناس وحيًّا في أذهانهم، وعبر عن مشاعر الملايين من المصريين تجاه النهر الخالد. ولمحمود حسن إسماعيل بعض القصائد الأخرى عن النيل أشارت إليه منها قصيدة أغنية للنيل في ديوانه "صلاة ورفض".

لم أكن أحب عبد الحليم حافظ، ولا أستمع لأغانيه، لعل ذلك يرجع لارتباطه في ذهني بهزيمة يونيه **1967**م المذلة، وارتباطه بالنظام الناصري الإرهابي الذي ضيع البلاد وأذل العباد، ولكنني من أجل النيل كنت أحب أغنيته " التبر السائل " التي كتبها سمير محجوب ولحنها محمد الموجي، ومن حبي للأغنية أذكر أني كتبت مقالا يحمل عنوانها، ونشرته في مجلة "الثقافة الأسبوعية" عقب حرب رمضان، أتناول فيه أهمية النيل، وطميه الذي اختفى، وفيضانه الذي توقف. تقول الأغنية:

**يا تبر سايل بين شطين**

**يا حلو يا اسمر**

**لولا سمارك جوه العين**

**ما كانت تنور**

**يا حلو يا اسمر**

***

**الدنيا من بعدك مرة**

**يا ساقي وادينا الحياة**

**د اللي يدوق طعمك مرة**

**م المستحيل أبدا ينساه**

**يا نعمة من الخلاق .. يا نيل**

**دي ميتك ترياق .. يا نيل**

**يا حلو يا اسمر**

***

**خيرك علينا ما لوش آخر**

**ياللى القلوب بتعيش بهواك**

**خلتنا نحكي ونتفاخر**

**على الوجود كله بذكرك**

**يا ريحة من الأحباب .. يا نيل**

**وأهل مش أغراب .. يا نيل.**

**شمس الأصيل:**

وهناك أغنية شهيرة ألفها بيرم التونسي، وغنتها أم كلثوم بعنوان "شمس الأصيل"، وتشيد بالنيل، وتتغزل فيه، وتمنحه أو تربط به بهجة الحياة:

**شمس الأصيل دهبّت**
**خوص النخيل يا نيل**
**تحفة ومتصورة**
**في صفحتك يا جميل**
**لو الناي على الشط غنى**
**والقدود بتميل**
**على هبوب الهوا**
**لما يمرّ عليل**

***

**يا نيل أنا واللي أحبه**
**نشبهك بصفاك**
**لانت ورقّت قلوبنا**
**لما رقّ هواك**
**وصفْونا في المحبة**
**هُوّ هوّ صفاك**
**ما لناش لا إحنا ولا أنت**
**في الحلاوة مثيل ...**

**الموغل في التاريخ:**

هذه الأغاني وتلك القصائد وغيرها لم تكن نابعة من فراغ، ولكنها جاءت تعبيرًا عن تأثير هذا النهر الموغل في التاريخ على حياة الشعب الساكن على ضفتيه، وارتباطه بوجودهم وزراعتهم وحركتهم ونشاطهم ..

هناك تراث هائل من الأغاني الحزينة أو المواويل التي كان يغنيها الصيادون فوق زوارقهم الصغيرة بجوف الليل. هذا التراث المجهول لا يعرف له مؤلف ولا ناظم، ولكن صاحب الزورق ينطلق به صوته تحت جنح الظلام وهو يسحب الغزْل (الشّباك) أو يلقيه في عمق النهر، يبكي همومه وأشجانه، ويتحدث عن النصيب والقدر، ويسلم أمره لله في كل الأحوال.

عادة تنطلق زوارق الصيد الصغيرة في المساء لتذهب إلى أماكن الصيد التي تكثر فيها الأعشاب المائية حيث تتجمع الأسماك، وهناك يرابطون ويعملون حتى وقت متأخر من الليل، ثم يعودون إلى مرساهم بما قسم الله لهم من رزق، فيبيعونه إلى الجلّابة، وهم من يبيعونه إلى المستهلكين. قبل رحلة الصيد يحمل الصيادون ما يحتاجون إليه في جوف الليل من طعام وشراب وشاي وأدخنة تكفيهم حتى الصباح، وهم في كل الأحوال تعودوا الصبر والاحتمال صيفا وشتاء، ومن بين العناصر التي تساعدهم على ذلك غناء الموال في سكون الليل، وهو غالبًا موال حزين – كما سبقت الإشارة – يتكلم عن الحظ والمكتوب، والغدر والوفاء، والود والجفاء .. وقد يتم الغناء على إيقاع رتيب ينتج عن الخبط بعصا فوق ظهر الزورق، ويقال عن هذا الإيقاع إنه يجذب الأسماك إلى الشّباك أو السنّار.

**موسم أكل السمك:**

كانت لي فرحتان بمنظر النيل، الأولى في الصيف والأخرى في الشتاء. الأولى كانت مرتبطة بالفيضان الذي يأتي من الجنوب نحو الشمال، حاملا الغِرْين أو الطمي، ومعه السمك الكثير الذي يصطاده الفلاحون وغيرهم بطرق شتى، تجعل من الفيضان موسمًا لأكل السمك بأنواعه المختلفة: البلطي والبوري والقشر والبياض والثعبان والقرموط وأم عبية وغيرها، وكان طعمها جميلا وعذبًا ومختلفًا عما نطعمه الآن من أسماك شبيه

لحمها بالكاوتش أو البلاستيك، وخاصة ذلك الذي يسمونه سمك المـزارع، الذي يـتربى في مياه راكدة أو على مخلفات عضوية غير طيبة.

كان منظر المراكب الكبيرة القادمة من الجنوب مع تيار الفيضان، وخاصة من الصعيد، وتحمل البلاليص أو العسل من أجمل المناظر؛ لأنها كانت لا تحدث إلا في صـيف كل عام. وفي المقابل حين تقلع المراكب الشراعية قادمة من رشيد، وتعبر مع الـصنادل الفارغـة في اتجاه الجنوب عبر كوبري دسوق، الذي كان يفتح لها من أجل العبور في العاشرة من صباح كل يوم، وأحيانًا يفتح في المساء إذا كان هناك عدد كبـير مـن المراكـب ينتظـر العبـور في الاتجاهين، ومن كان في عجلة فهو يلجأ إلى إنـزال الـشراع والـصاري ليتـساوى بـسطح المركب، ثم يعبر معتمدًا على العوامات الموجودة أسفل النهر .. الآن لا يفتح الكوبري؛ لأنه لا توجد مراكب!

**همزة الوصل:**

كوبري دسوق القديم أو كوبري السكة الحديد، هو جـسر قـديم يـربط بـين مدينـة دسوق ومركز الرحمانية، وهمزة الوصل بينهما جزيرة الرحمانية، وهـو عبـارة عـن كـوبري معدني متحرك مقام على نهر النيل - فرع رشيد، أنشئ أول الأمـر عالـم 1897م في عهـد الخديوي عباس حلمي الثاني، وأعيد بناؤه عام 1927 في عهـد الملـك فـؤاد الأول، ويبلـغ طوله الإجمالي 615 مترًا. وقد بني على غرار مجموعة من الكباري المـشابهة، مثـل كـوبري مطوبس / إدفينا في الشمال، وكوبري كفر الزيات، وكوبري بنها، وكوبري روض الفـرج، وكوبري أبي العلا - قبل إزالته – في الجنوب، وكان معظمها مخصصًا لعبور قطارات السكة الحديد، إلى جانب عبور المشاة والسيارات، وقد صار كوبري دسوق القـديم قـاصرًا الآن على عبور القطار، بعد إغلاقه في وجه السيارات؛ بسبب ضعف بنيته، التي تجاوزت أكـثر من ثمانين عامًا، وقد أقامت الدولة جسرًا علويًّا في جنوبه، يبعد عنـه نحـو ثـلاث كيلـو مترات، وهو أقوى احتمالا، وتمر عليه السيارات الصغيرة والسيارات الضخمة التي تنقـل البضائع والأحمال الثقيلة.

### جزيرة الرحمانية:

وقد اعتمد بناء الكوبري القديم والكوبري الجديد على جزيرة الرحمانية التي تتوسط النهر، وإن كانت أقرب إلى الشاطئ الغربي، أي البحيرة، وتعد من أكبر جزر النيل إن لم تكن أكبرها جميعًا، وكانت على عهد طفولتي مكانًا خصبًا لزراعة الخضروات والفاكهة، وإلى جانب ذلك، فقد عرفت مجموعة من مصانع الطوب الأحمر التي كانت تعتمد على طمي النيل قبل توقف الفيضان، وكانت تستوعب عشرات العمال من الرجال والنساء، وقد توقف معظمها، إن لم تكن توقفت كلها، وبيعت أرضها لإقامة مساكن.

كانت الجزيرة قليلة السكان، وكنا نعرفهم بالاسم، ولكنها صارت الآن قرية كبيرة مكتظة بالسكان، يسكنها - إلى جانب الفلاحين - عدد كبير من الموظفين والتجار والمهنيين .. بل إن بعض العرب المقيمين في مصر انتقلوا إليها وأسسوا بيوتًا بالجزيرة، ووطدوا من علاقاتهم بأبنائها وأبناء الوطن.

### عكس الريح:

أيام الدراسة في المعلمين

فرحتي الأخرى بالنيل كانت في الشتاء، حين أرى صفحة النيل بالليل لامعة هادئة، ينعكس عليها ضوء القمر، وفوقها تجري المراكب القادمة من الجنوب، محملة بالرمل والزلط أو غيرهما، وكانت حوافها قريبة من المياه، ونخشى عليها من الغرق، وهي عادة تبحر عكس الريح فيما يسميه المراكبية بالملاوعة، أي السير بطريقة وتر المثلث؛ لأنها تواجه الريح، حيث ينتقل المركب من الشاطئ القريب إلى الشاطئ المقابل، في خط يشبه وتر مثلث قائم الزاوية، معتمدًا على تعبئة الشراع بالريح المقابلة، ويتيح له ذلك أن يقطع مسافة محدودة إلى الأمام، بدلا من الوقوف وعدم السير.

منظر النيل في ليل الشتاء، خصوصًا حين تسكن الريح، يمثل قطعة من الجمال النادر، وتبدو الأشرعة البيضاء معالم هادية، تشبه الخيام المنتشرة على بحر من الفضة. ووسط هذا كله تسمع من بعيد صوت ناي حزين، يشق صمت الليل بموال، يعكس متاعب الحياة وقسوتها التي يعيشها المصريون في كل زمان وكل مكان.

**العزف على الناي:**

والموال فن مصري أصيل، مع أنه نشأ في العراق في عصر الدولة العباسية، وهو يعبر عن الحزن هنا وهناك، ولكنه ينقل الغناء الفطري من حالة المتعة السمعية المحدودة إلى التعبير عن حالة حزن عامة أو إحساس بالظلم الجماعي، ويبدو الناس غير قادرين على مواجهتها فرادى أو جماعات.

قد تسمع الموال معتمدًا على صوت من يلقيه، وقدرته على التعبير المرتجل عن أشجانه وعنائه. وقد يجيد من يلقيه العزف على الناي، وهو آلة نفخ موسيقية حزينة من البوص، وأظنها أقدم آلة تعبر عن الشجن في العالم، يتسلى بها المصري، ويواجه المتاعب والأحزان.

ويساعد على أداء الموال أنه يؤدى بالعامية غالبًا أو ممزوجًا بالفصحى، وتستخدم فيه ألوان المقابلة اللفظية؛ كالجناس والطباق والصور البلاغية القوية والتورية، وفيه أشكال شعرية متعددة وقواف متنوعة، ولما كان الأصل فى الموال هو الارتجال النغمي، فإن الموال قد يُغنّى من مقامات مختلفة، ولا يشترط غناؤه من المقام ذاته كل مرة.

**سبع سواقي:**

هناك الموال الذي يؤديه المطربون وينظمه زجّالون متخصصون، وقد أداه كبار المطربين والمطربات في أفلام مثلوها، أو في مناسبات أخرى، وعرف المصريون في العصر الحديث مواويل بيرم التونسي، وقد غنى بعضها محمد عبد الوهاب، واشتهر منها:

اللي انكتب ع الجبين، كل اللي حب اتنصف، سبع سواقي، فى البحر لم فتّكم، والأخير من نظم بيرم، ويقول فيه:

**في البحر لم فتّكم في البرّ فتّوني**

**بالتبر لم بعتكم بالتبنِ بعتوني**

**أنا كنتِ وردة في بستان قطفتوني**

**وكنت شمعة جوّه البيت طفيتوني**

**لو عدت دي المرة هاتوا المر واسقوني**

**يا ليل .. يا ليل ..**

والموال كما نرى حافل بالمقابلات التي تأتي في سياق حزين وأسيف، تبدو فيه المرارة أو الإحساس بها عاليًا؛ نتيجة الوفاء في مقابل عدم الوفاء، والإخلاص مقابل الجحود، من خلال تصوير حي، يستقي مفرداته من الواقع والذاكرة الشعبية.

**حالة البؤس:**

كما غنى محمد عبد الوهاب موال "كل اللي حب اتنصف" من نظم إبراهيم عبد الله، يقول:

**كل اللي حب اتنصف وأنا اللي وحدي شكيت**

**حتى اللي رحت اشـــتكي له قال لي ليه حبيت**

**لا شـــكوى نفعت ولا يا قلب الحبيب رقيت**

**احتـــرت والله واحتـــار دليلي يا ناس**

**يا ربي أمـــرك وباللي كتبـــته أنا رضيت**

والموال يعبر عن حالة البؤس التي يعيشها المصري بصفة عامة، حتى في الحب فهو مستسلم للحظ والمكتوب، راض بما يجري له وعليه، ويبدو في كل الأحوال منبوذًا مقهورًا، لا يغني عنه ما يقدمه من خضوع وتذلل. ويعد هذا قدرًا لا مفر منه.

**يا ليل .. يا عين:**

وأشهر أنواع الموال موال الليالي الذي يغنى فقط بكلمة يا ليل أو يا عين، وليس الغرض منه التغني بالكلمات بل هدفه الأساسي الطرب، وهو استعراض ارتجالي فوري للمطرب الذي يستعرض فيه إمكانات صوته، وحسه النغمي، ومعرفته بالمقامات التي يتنقل بينها، بينما يعود إلى المقام الذي بدأ منه، وقد يكون غناء الليالي تمهيدًا لوصلة غنائية أو داخل الأغنية كجزء حر.

ولكن موال النهر الذي يأتي من صياد شاب أو بحار عجوز، يبكي فيه حاله من خلال نايه الحزين، أو معتمدًا على صوته فقط، يبقى ملمحًا من ملامح الليل على صفحة النيل في ذلك الزمان البعيد، فقد توقف الموال، وانطفأ الغناء، وحلت وسائل أخرى لصيد السمك، بل تربيته في قلب النيل.

**عشرات المراكب:**

كان الفيضان يأتي في يوليو وأغسطس عارمًا ومندفعًا وقويًّا، يحمل عشرات المراكب الكبيرة والصغيرة من الجنوب، كما كان يحمل معه مخلفات كثيرة تعوم على سطحه، مثل الأخشاب والأشجار والزراعات التي اقتلعها الفيضان في تقدمه إلى الشمال، والوصول بها إلى البحر المتوسط، مصبه المنخفض عند مدينة رشيد، أو فرعه الذي تقع عليه قريتنا، ورأس البر بالنسبة لفرع دمياط.

كنا أحيانًا نرى بعض الجثث الطافية على السطح، وكانت السلطات تحضر لاستخراجها ودفنها لأنها بلا هوية، ولا يعرف أحد عنها شيئًا، وقد تكون الجثة لغريق لا يعلم أهله أين غرق، أو قتيل في ثأر أغرق في النهر، فلا تظهر إلا بعد أيام، ويحملها التيار في أعماقه حتى تطفو بالقرب من قرى الشمال أو مدنه.

كان أصحاب الزوارق والمراكب الكبيرة يرحبون بالفيضان والتيار المتجه بقوة إلى الشمال؛ لأنه كان يوفر عليهم كثيرًا من العناء في مواجهة الريح الشمالية، فلا يفردون القلوع ولا يستخدمون المجاديف، ولا يبذلون جهودًا ملموسة غير تحريك الدفة أو السّكّان لتوجيه الزورق أو المركب في الاتجاه المطلوب.

وكان التيار الشديد - مع قيمته بالنسبة للمراكبية - يمثل أحيانًا بعض المفارقات المضحكة أو المحزنة.

**وصلنا المالح:**

كانت تتردد في طفولتي حكاية عن آل الجرف، وهم أصحاب زوارق تنقل الركاب من القرية إلى المدينة، وكان لهم أكثر من زورق، ولأنهم أناس طيبون، فقد تواتر أنهم ذات ليلة

أقلعوا في السحر قبيل الفجر، متجهين إلى المدينة، وساروا مع التيار، وأحس بعضهم بالعطش وكان نائمًا، فأخذ القُلة الموجودة بجواره ومال بها على جانب الزورق ليملأها ماء، ورفعها إلى فمه وراح يعبّ منها فإذا به يجد الماء بطعم الملح، فصاح وهو في غمرات دهشة النوم والماء الذي شربه: لقد وصلنا المالح، أي البحر المتوسط!

كانت القلة التي ملأها هي دليله على الوصول إلى البحر، واكتشف القوم أنها قُلّة الملح التي توضع في الزورق لاستخدام الملح حين يشترون طعامًا من المدينة مثل الفلافل والفول، فيضعون عليه الملح أو بجواره لتسويغه.

شاعت القصة بين المراكبية وانتقلت إلى بقية الناس في القرية؛ فرددوها بوصفها نكتة تشير إلى الطيبة وحسن النية في مواجهة الأمور.

**مفارقة:**

في المقابل كانت هناك مفارقة محزنة، تسبب فيها تيار الفيضان الشديد. كانت مصانع الطوب الأحمر تعتمد على مجموعات من العمال شبابًا وصبايا، يبحرون قبيل الفجر إلى جزيرة الرحمانية حيث مكان العمل، وقد انطلق المركب ذات سحر مع التيار، ويبدو أن صاحبه لم يستطع التحكم فيه بسبب قوة الاندفاع، فاصطدم بالعمود الصخري الذي يحمل كوبري دسوق المعدني؛ فتحطم المركب وغرق عدد من ركابه ونجا عدد آخر. والمأساة أن من غرق لم يستطيعوا استخراجه من الماء إلا بعد أيام، ومتابعة الشاطئين طوال مسافة تقرب من أربعين كيلو مترًا، تصل إلى مصب النيل عند رشيد، وهناك تم العثور على الغرقى، وتم إحضار جثثهم إلى القرية لدفنها في مشهد حزين غير مسبوق، وكأن الناس يدفنون الضحايا مع الفقر، مع سوء الحظ وقلة البخت، كما يقال في المخزون الشعبي الحزين!

**غسل النهر:**

كانت مياه الفيضان المحملة بالغرين أو الطمي القادمة مع التيار العنيف، تمثل وسيلة من وسائل غسل النهر من السموم والنفايات التي تلقى فيه، كما كانت طريقًا عمليًّا لاقتلاع القواقع التي تتسبب في الإصابة بالبلهارسيا والإنكلستوما، ونزع الحشائش

المائية المتجذّرة في العمق، وقبل ذلك وبعده تخصب الأرض الزراعية وتغسلها من الأملاح، فلا تحتاج إلى كثير من الأسمدة أو المبيدات؛ لأن الطمي يحمل عناصر معدنية وغيرها، تقوم بتجديد الأرض وتخصيبها.

كانت مياه الفيضان من أعذب أنواع المياه التي شربتها في حياتي. كنا نسميها المياه الحمراء - كما سبقت الإشارة - لأن الطمي كان يغيّر لونها إلى اللون الداكن، فرأى الناس أنها حمراء، لم يقولوا إنها بنية أو غامقة أو غير ذلك. الوصف بالحمرة نوع من الرقي في التعبير.

عندما كانت هذه المياه تنقل بالبلاليص إلى الأزيار داخل البيوت، كانت المياه التي تنزّ منها، ونسمّيها المنقوطة؛ لأنها تنزل من الزير على هيئة نقاط صافية نقية، وكنا نشبهها بأنها أصفى من عين الديك، وعذوبتها لا مثيل لها. كان بعض الفلاحين يزعم أن شرب مياه الفيضان الحمراء، غير النقية أو غير الخالية من الطمي، يغسل البطن، أو يطهرها من الأمراض المزمنة!

وكانت هناك طريقة يدوية لتنقية مياه النيل الحمراء في البيوت، عن طريق استخدام الشبة، ولها اسم كيميائي لا يعرفه الناس "كبريتات الألمونيوم"، وهو استخدام سهل وبسيط، حيث يأخذ من يريد تنقية المياه قطعة صغيرة، يحكها بجدار البلاص أو الإناء الذي يحمل المياه الحمراء، ويدير يده في الماء عدة مرات، ويترك الماء لمدة عشر دقائق أو نحوها، فيهبط الطمي والشوائب إلى أسفل الوعاء، ويبقى الجزء العلوي صافيًا ونقيًّا، فينقل إلى وعاء آخر، أو يترك كما هو، مع مراعاة عدم تحريك الماء؛ حتى لا يتعكر ثانية.

**أرض جديدة:**

أما أرض الشاطئ فقد كانت تعد - بعد انحسار الفيضان - أرضًا جديدة تمامًا، حيث كان الفلاحون قبل قدوم الفيضان ينقلون ترابها، ويخزنونه في أكوام عالية أمام البيوت أو في الساحات الواسعة الممتدة التي تحيط بالقرية، ويستخدمون هذا التراب الذي يكون ناعمًا أو سافيًا عادة، في فرش حظائر الحيوانات، ثم ينقلونه إذا صار طريًّا بفعل الفضلات

التي تتخلف عن الماشية في الحظائر، ويتم تجميعها؛ لتكون سمادًا عضويًّا في الحقول التي تزرع المحاصيل أو أشجار الفاكهة.

أرض الشاطئ أو طرح النهر - وتسمى "المريس" - تعد من أقوى الأراضي الزراعية في عصر الفيضان. كانت الأرض الطامية تعد من أخصب الأراضي لزراعة الخضروات. كنت أرى أحد أصحاب هذه الأراضي ينزل الأرض اللينة بعد انحسار الفيضان، ويبذر بذور الفجل والجرجير، على اتساع الأرض، أما حوافها فكان يبذر فيه الترمس، وهو نوع من البقول يتسلى الناس بأكله مثل الفول السوداني واللب في المناسبات المختلفة بعد سلقه وتمليحه، وكنا نحن الأطفال، نحرص على الذهاب إلى ماكينة الطحين مع الأمهات، لنشتري الترمس، ونحظى بالتلذذ بأكله هناك، وكانت بائعته تسمى خالتي "عزّ"، التي نقف أمامها فتعبئ مكيالها الفخاري بالتسلية اللذيذة، وتضعه في حجر الجلباب، ونذهب إلى جوار الأمهات لنتناول ما نعده فاكهة ترتبط بالذهاب لطحن القمح والذرة كل بضعة أسابيع.

**مذاق فريد:**

لم أذق خضروات بمثل نكهة المزروعة في المريس عقب انحسار الفيضان أو طعمها. كان مذاقها فريدًا، لم يصنعه السماد العضوي أو الكيماوي، وكانت تنبت دون ري أو مطر؛ لأن الطمي اللين كان يحمل كل عناصر التغذية المطلوبة. وبعد نضج الخضراوات يبدأ المزارعون في تجهيز الأرض لأنواع أخرى من الخضروات أو المحاصيل.

كانت هناك بعض مساحات المريس المرتفعة، ولا يصل إليها الفيضان إلا نادرًا، واستغلها أصحابها في زراعة بعض أشجار الفاكهة، ومنها الجوافة، وكانت مساحة الأشجار ممتدة بمحاذاة الشاطئ، وكانت ميزة الجوافة - من وجهة نظري - أن بها نوعًا من الجوافة الحمراء ، كما أشرف من قبل ، ثمرتها عادية تشبه الثمرات الأخرى، ولكن حين تفتحها تجد لونها أحمر يميل إلى اللون البمبي، وهو ما كان يفرحنا نحن الأطفال.

### أشجار الجوافة:

وكان الطريق إلى أشجار الجوافة - أو الجنينة كما كنا نسميها - يقتضي أن نقطع مسافة طويلة، ثم يحتاج الأمر إلى نزول المريس، وقطع مسافة أخرى في أرض لينة حتى الوصول إلى مكان الأشجار.

كان لدي سلة صغيرة، أستطيع أن أحملها وفيها الجوافة التي كنت أحبها، وكان من الممكن أن أملأ السلة بقرشين، وكان أصحابها يهتمون بنا أنا ورفاقي حين نصل إليهم، فيزيدون الكميات المستحقة؛ إكرامًا لنا وللمشوار الطويل الذي قطعناه من أجل الشراء منهم.

بالطبع كانت هذه الجوافة مختلفة الطعم؛ لأنها كانت تسقى من ماء النيل العذب، ولم تكن مثل الجوافة المعاصرة المشبعة بالكيماويات والمبيدات، وربما الهرمونات!

لقد ظلت أشجار الجوافة قائمة إلى سنوات شبابي، ثم اختفت فجأة بعد احتباس الفيضان وراء السد العالي، لا أعرف السبب الذي كان من وراء اختفائها، ولكني أحسست أن شيئًا جميلا في حياتي اختفى، مثلما اختفى الفيضان ومياهه الحمراء العذبة، والخضروات العذبة، والأيام العذبة أيضًا.

### ورد النيل الكريه:

سبق أن أشرت إلى السمك بأنواعه المختلفة الذي يأتي مع الفيضان، حيث يمثل منجمًا غذائيًّا غنيًّا، في مناسبة سنوية ينتظرها الفلاحون على جانبي النيل من الجنوب حتى آخر مكان يصب فيه النيل وينتهي .. ولكن توقف الفيضان حوّل النهر أو التبر السائل إلى بحيرة آسنة كئيبة المنظر، تملؤها الحشائش المائية ويكسو صفحتها ذلك النبات الكريه الذي يسمى ورد النيل، وبلغت درجة كثافته أن سد المجرى المائي في بعض الأماكن!

لم يقتصر الأمر على هذا التغير الطبيعي بسبب توقف الفيضان، ولكن يد الإنسان المدمرة امتدت لتكثر فيه الفساد .. فقد قام الصيادون باختراع بعض الممارسات الضارة للحصول على الأسماك، واستخدموا الشّباك الضيقة التي نزحت السمك بأحجامه

المختلفة، فلم يبق فيه أثر لمعظم الأنواع، ولولا أن سمك البلطي غزير التناسل لما بقي شيء من صغاره التي يجرفها الصيادون بشباكهم الضيقة المخالفة للقانون.

**الأقفاص السمكية:**

لم تفلح الشباك الضيقة في الحصول على كميات ذات قيمة، فلجأ الصيادون إلى صنع ما يسمى الأقفاص السمكية، وهذه الأقفاص توضع في عرض البحر وبداخلها زريعة مشتراة من المزارع السمكية التي تقام في حقول الأرز ونحوها بمنطقة البرلس وشمال الدلتا والبحيرات المتصلة بشاطئ البحر المتوسط، ومن أجل نمو هذه الزريعة، فإنه يلقى إليها بالفضلات العضوية وبقايا الذبائح والأعلاف، وهو ما يجعل المنطقة المحيطة بالأقفاص منتنة، ورائحتها لا تطاق، وتجعل المياه مسمومة.

يضاف إلى ذلك أن أصحاب الأقفاص يزرعون أنواعًا من الأعشاب المائية التي تنمو وتحول مساحات كبيرة إلى كتلة يصعب الحركة فيها؛ لغزارة الأعشاب وتجذّرها، ويهدفون من وراء ذلك إلى تأمين منطقة الأقفاص؛ حتى لا يصل إليها غيرهم، وربما تكون هذه المنطقة فرصة لتنمية الزريعة الطبيعية خارج الأقفاص وصيدها بالطريقة الاعتيادية.

سمك الأقفاص وخارجها لم يعد طبيعي المذاق، بل يبدو مسمومًا لا أثر لطعمه، وكأنه مجرد قطع من الكاوتش التي تزعج العين والذوق والمعدة جميعا.

لقد أنتجت الأقفاص السمكية صراعًا على مياه النهر، حيث يتصارع أصحابها على المساحات التي يعملون فيها، والحكومة غائبة تمامًا، وحماية النيل تعيش في العالم الآخر منذ زمان بعيد، وخفر السواحل لم يعودوا ينطلقون بزوارقهم شمالا وجنوبًا كما كانوا يفعلون في الزمن القديم، وهو ما أعطى لمنطق الأمر الواقع قبولا ما.

**توفيق أوضاع لم يتم:**

الأخطر من ذلك كله هو ما تفعله مصانع الكيماويات والأسمدة والزيوت والصابون التي تقع في بعض المدن على شواطئ النيل، وخاصة في منتصف فرع رشيد الشمالي، وتقوم

هذه المصانع بصرف فضلاتها وعوادمها في النيل مباشرة، وكانت هناك محاولات لتوفيق أوضاع هذه المصانع لتصرف في مجاري الصرف الصحي بعيدًا عن مياه النيل، ولكن هذه المحاولات لم تنجح، وتناثرت أقوال عديدة، ملخصها أن أصحاب المصانع أطاحوا بوزيرة شئون البيئة، عندما أصرت على توفيق أوضاع الصرف في هذه المصانع!

يلحق بالمصانع الكيماوية وأشباهها البيوت والمنازل العشوائية التي أقيمت على شواطئ النهر، في المناطق التي كانت تغطيها مياه الفيضان ثم تنحسر عنها. لقد صارت أرضًا ثابتة، وصارت لقمة سائغة لأصحاب المباني الخرسانية الكالحة، وهو ما حدث أيضًا في الجزر التي تتوسط النهر، وأصبحت في مأمن من الفيضان ومخاطره. لقد صارت تصرف في النهر دون حسيب أو رقيب، ولم يعد هناك من يستنكر هذا الوضع أو ينتقده، أو يبتكر حلولا مناسبة له. ولم يقتصر الأمر على الصرف والتلوث البشع، بل امتد إلى ردم الشواطئ بمخلفات المباني، وتوسيع مساحة الأرض على حساب مساحة مجرى المياه، وهناك من يتنبأ أن النهر سيتحول إلى ترعة في خلال عقد أو عقدين من الزمان.

**مزيد من التلوث:**

ولوحظ في السنوات الأخيرة إنشاء أعداد من العوامات التي يؤجرها أصحابها بوصفها قاعات أفراح أو احتفالات، وبعضها يسع أكثر من ألف شخص، وتصرف مخلفاتها في قلب النهر مباشرة؛ لأنها ببساطة لا تصرف في مكان آخر، ولا تفكر فيه.

والأعجب من ذلك أن يلجأ الفلاحون إلى إلقاء الحيوانات النافقة في عرض النهر، ومخلفات الذبائح ونحوها، دون أن يجدوا غضاضة في ذلك.

لقد تحول التبر السائل الذي أحببته منذ طفولتي إلى شيء آخر، يصدّر الهموم والآلام والأمراض للشعب الذي يشرب ماءه، ويروي زراعاته به.

لقد طالبت في مناسبات أخرى بضرورة العمل على حماية النيل من التلوث، واستخدام القانون ضد من يلوثونه ويسممون مياهه، وقد تخلف عن ذلك أمراض مزمنة، ذهبت

بحياة الملايين على مدى عقود مضت، ولا مبالغة في هذا القول؛ يكفي أن نعلم أن مياه النيل الملوثة أو المسممة فتكت بكلى المصريين وأمعائهم وأكبادهم، وأصابتهم بالأمراض المسرطنة التي لا شفاء منها في الغالب.

**التراكم الطيني:**

لا أعرف هل يمكن استعادة الفيضان، وتحريك الطمي من الجنوب إلى الشمال مرة أخرى، بدلا من احتجازه خلف السد العالي؟

الطمي يتراكم خلف السد العالي، وتزيد كمياته عامًا بعد عام، وقيل إنها يمكن أن تمثل خطرًا على السد نفسه، وتوقف توليد الكهرباء التي يعتمد عليها القطر كله.

كان صديقي الأديب الكبير وديع فلسطين يطالب في الأهرام بأن تكون هناك جرافات وراء السد تلقي بالطمي أمامه، وتخلص بحيرته من التراكم الطيني ومخاطره. ولكن أحدًا لم يسمع لذلك، ولا يفكر في أمر التبر السائل الذي تغنى به المصريون، وجعلوا له مكانة عظمى في حياتهم منذ فجر التاريخ.

ووصل إهمالنا للنيل إلى الخارج، فقد قررت دول حوض النيل أن تخفض حصة مصر من المياه، وبعضها يقيم سدودًا لتخزين كميات ضخمة من المياه، تحرم مصر والمصريين من سبب الحياة ومن التبر السائل. وتبدو السلطة غير مبالية بما يجري، وذلك من خلال ردود فعل سلبية وباهتة وغير مؤثرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

## 4 - البركة والستر

### حياة فطرية بسيطة:

كانت دارنا صغيرة وأسرتنا صغيرة، وكانت الدار والأسرة عالمي الذي أدركته في السنوات الأولى، وارتبطت به في حياتي التي أعيشها بسيطًا فطريًّا، لا يدرك من الدنيا خارج هذه الدائرة الصغيرة شيئًا.

كانت الدار تضم فرنًا ريفيًّا، يعمل بالحطب والقش، وكانت أمي توقده بصورة شبه يومية، تخبز لنا فيه الأرغفة الفلاحي، وأحيانًا تصنع الرقاق، أو الفطير (المشلتت أو فطير الذرة). أمي تعمل وحدها؛ تعجن الدقيق، وتعده للخبيز، وتجلس أمام الفرن لتسويته، وأحيانًا كانت تصنع صينية بطاطس أو مقلاة سمك، أو تشوي باذنجانًا أسود، أو ذرة شامية، أو تصنع لنا أبرمة الأرز وبداخلها اللحم العجّالي (لحم صغار الجاموس) أو الأرانب.

في بعض الأيام كانت تلجأ للجارات اللاتي يخبزن في دورهن، حين يكون ما تريد تسويته أو إنضاجه كمية محدودة لا تحتاج إلى إشعال الفرن في بيتنا.

### نكهة مفقودة:

الفرن الريفي في البيت له نكهة أفتقدها منذ عقود بعد رحيل أمي، صحيح أن له الآن بديلا من الصاج والحديد ويوقد بالبوتاجاز، ولكنه لا يحقق نكهة الفرن الريفي التي كنا نشمها في الخبز والبتاو والرقاق والفطير والصينية والبرام، وغير ذلك. كان الفرن الريفي يستهلك الحطب وقش الذرة وقش الأرز، الذي يصنع حريقه ما يسمى الآن بالسحابة السوداء. وكان هذا الوقود الطبيعي رخيص القيمة، ويوفر على الدولة كميات كبيرة من الوقود الذي تستهلكه أفران البوتاجاز، وتستورده الدولة من الخارج، ولكن تطور الزمان

جعل الناس يستسهلون الوقود المصنّع وملاءمته للبيوت الجديدة التي تعتمد على الطوب الأحمر والخرسانة المسلحة.

لم يعد هناك خبز طبيعي يستهلكه أهل القرية، ولكنهم يتقاتلون على الأرغفة العشرة التي تتاح لكل أسرة مسجلة لدى التموين، وهي أرغفة لا تُؤكل، لأنها لا تُعجن جيدًا، ولا تختمر، ولا تأخذ الوقت اللازم في الفرن، بل تخرج عجينًا كئيب اللون والملمس والرائحة، ومع ذلك فالناس يصرون على الحصول عليه، ولو قدموه لدواجنهم وحيواناتهم.

**المرأة المصرية المجهولة:**

كانت أمي، ومثلها نساء القرية جميعًا، يقمن بالخبيز بصورة شبه يومية. لم تكن هناك مخابز في القرية تبيع الخبز، كل بيت يقوم بصنع خبزه بالطريقة التي يريدها، ويصحب الخبيز تجهيز الطعام سواء في الفرن أو على الكانون الذي بجواره، ثم الانصراف إلى بقية أعمال البيت أو الحقل.

أمي نموذج للمرأة المصرية المجهولة، التي تعمل وتشارك في صنع الحياة، وتملك حياءها وحريتها وكرامتها، دون أن يعرفها أحد خارج حدود الأسرة، وهي تختلف عن النساء اللاتي يظهرن في الصحف والمجلات والإذاعة، ويطالبن بحرية المرأة بمنظور آخر، وينصب اهتمامهن على الموضة والأزياء والمناصب.

ما تغدقه أمي من حب على أسرتها يكفي العالم كله، لا تطلب في مقابله شيئًا غير الستر والرضا الإلهي. لم تتعلم في مدرسة، ولكنها عرفت الحروف في كتّاب أبيها، وهو جدي الشيخ عبد الله البنا. كان أول كتّاب في القرية يقدم للناس مجموعة من علماء الأزهر وخريجيه، عمل بعضهم بالتدريس، وعمل بعضهم الآخر بإدارة الأزهر، وبعضهم الثالث راح يبحث عن رزقه في القرية أو مشارق البلاد ومغاربها، تعينه معرفته بالقراءة والكتابة، فضلا عن حفظ القرآن الكريم أو بعضه، وكان أبي ممن لحقوا بهذا الكتاب في أواخر عهده، فتعلم القراءة والكتابة، وتفوق فيهما بالنسبة لنظرائه، وهو ما أهله لأن يقرأ الرسائل ويكتبها لبعض الجيران حين تأتيهم من ذويهم أو يرسلونها إليهم، كما كان يكتب بعض العقود التي تجري في المبايعات والأمانات ونحوها، وقد تعلمت منه مبادئ

القراءة والكتابة قبل سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، وساعدني في حفظ جزء عمّ قبل أن أذهب إلى سيدنا أو المحفّظ الذي تكفّل بتحفيظي القرآن الكريم كله – رحمه الله.

### زمالة جدي لسعد زغلول:

كان جدي لأمي زميلا لسعد زغلول الذي ولد في إبيانة مركز دسوق، (تتبع مركز مطوبس الآن وهي قريبة من دسوق وفوة). لقد تزاملا معًا للدراسة في المسجد الإبراهيمي بدسوق، ثم انتقلا إلى الدراسة بالجامع الأزهر في القاهرة، عاد جدي إلى القرية، وبقي سعد زغلول ليواصل دراسته في مدرسة الحقوق (كلية الحقوق فيما بعد)، ويدخل المعترك السياسي مع شقيقه فتحي زغلول، لا أعرف الأسباب التي جعلت جدي يؤثر العودة إلى القرية ويفتتح الكتّاب، وتكون زوجه التي هي جدتي لأمي هي الزوجة الثانية التي تزوجها بعد رحيل زوجته الأولى. كان له من الأولى ولدان عبد الله ومحمد (الكبير)، ومن زوجته الثانية (جدتي) ثلاثة أولاد (محمد الصغير)، وبنتان كبراهما أمي، في الثلاثينيات غرق ابنه عبد الله (خالي الأكبر) بالقرب من رشيد، وتردد أن الغرق كان انتقامًا منه لنشاطه السياسي. كان شابًّا لم يتزوج، وكان - كما أخبرتني جدتي التي ربته مع أخيه الشقيق - مشغولا بالسياسة، وكان منتميًا لحزب الوفد؛ ربما لشعبيته، وربما لعلاقة أبيه بسعد زغلول زميله القديم، وقد حزن الجد على رحيل الابن حزن يعقوب على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن، ومرض وذهب للقاء ربه راضيًا مرضيًّا، يشيعه حب تلاميذه والناس.

### أمي تحفظ بعض السور:

الحاجة حميدة – أم حلمي

كانت أمي تستمع وهي صغيرة لما يقوله أبوها لتلاميذه في الكتاب. حفظت بعض سور القرآن، وعرفت حروف الكتابة، وكانت تكتب اسمها الأول بصعوبة، وكانت تتأمل عناوين الصحف فتقرأ بعضها، ولكنها كانت تحفظ آيات كثيرة من القرآن، وخاصة بعد دخول الراديو إلى بيتنا، والاستماع إلى المصحف المرتل، وكانت تصحّح لي حين أخطئ في التلاوة، ويوم ختمتُ حفظ القرآن فرحت بي،

وكانت تعد لاحتفال كبير بهذه المناسبة، اقتصر في النهاية على إقامة ليلة قرآنية، حضرها سيدنا (الذي حفّظني القرآن) وبعض القرّاء الآخرين، وبعض الجيران، وتناولوا جميعًا عشاء فاخرًا بمقاييس بيتنا آنئذ.

**أبي يحفظني بعض السور:**

وكانت سعادة أبي بحفظ القرآن الكريم كبيرة، لا تقل عن سعادة أمي، ولكنه كان كتومًا لمشاعره، لا يبالغ في إظهارها. كان في سنواتي الأولى قبيل التحاقي بالمدرسة الابتدائية - كما سبقت الإشارة - يحفظني سور القرآن من جزء عم، حتى أتممته قبل أن أدخل المدرسة، كما كان يحاول أن يعلمني القراءة والكتابة، وكنت في ذلك الحين أتوق إلى دخول المدرسة. لم تكن هناك حضانات لأطفال ما قبل الابتدائي، كانت هناك مدرسة واحدة لتلاميذ المرحلة الأولى، تضم أربعة فصول من الصف الأول حتى الصف الرابع الابتدائي.

صنعت لي أمي كيسة من القماش، بها علّاقة، أضعها على كتفي، وفيها الكراسات والكتب والقلم الرصاص، واشترى لي أبي حذاء جلديًّا وجلبابًا جديدًا وطاقية بيضاء، وكلما ذهبت إلى المدرسة أجلس حتى قبيل الظهر وقبل توزيع الوجبة الغذائية المدرسية على التلاميذ، يأتي بعض المدرسين ليصرفوني إلى المنزل؛ لأنني ما زلت صغيرًا، ويقولون لي: سوف نبعث إليك حين تكبر. وكان ذلك يؤلمني ويحزّ في نفسي، ولكني كنت أنسى بعد قليل، وأنشغل باللعب مع لداتي من أطفال الحارة.

**اللعب في التراب:**

كانت أنواع اللعب متنوعة؛ للبنات لعبهن الخاصة، وللصبيان لعبهم، ولكن كانت هناك لعبة مشتركة تجمع بين الطرفين وهي الاستغماية.

في زمن طفولتي كان التراب السافي الذي يصنعه الفيضان بما يخلفه من طمي النيل وينقل من المريس (شاطئ النهر) على هيئة أكوام، مجالا للعب، كنا نضع التراب في أحجارنا حيث كنا نلبس جلابيب من قماش قوي، يسمى العبك (الدمور)، وننقل التراب إلى أماكن أخرى، نصنع منها أكوامًا صغيرة، أو بيوتًا أو جمالا أو عرائس، أو غير ذلك مما يعن لعقولنا الصغيرة.

كان الأطفال يذهبون مع أمهاتهم إلى النهر لملء الجرار أو غسل الأواني والملابس على الشاطئ، وكانوا يخلعون ملابسهم ويسبحون في المنطقة القريبة من اليابسة، وبالنسبة لي

فلم يكن هذا الأمر متاحًا لي؛ خوفًا عليّ. - كما سبقت الإشارة - كنت أذهب لأجلس بالقرب من أمي، وأتفرج على ما يجري على الشاطئ، وعلى المراكب الذاهبة والآيبة أو المسافرة شمالا أو المتحركة جنوبًا، وفي كل الأحوال، فقد كانت ألعابنا ونحن في مرحلة الطفولة محدودة، وربما كان أفضل ما نسعد به هو الأراجيح التي نركبها في الأعياد، أو التي تصنع من حبال قصيرة داخل البيوت، أو تعلق في السلالم الخشبية العالية.

### أرجوحة في بيت جدتي:

وكانت جدتي لأمي تصنع لي أرجوحة في بيتها بمعرفة خالتي، كما كانت تقص لي وأنا مستلق على ركبتها حكايات الأنبياء، وتفسر لي بعض آيات القرآن من السور القصيرة، وتحكي لي عن أبيها الذي ترك أرضًا زراعية واسعة ناحية كفر الدوار؛ بسبب انفعاله وغضبه من شيء لا أذكره الآن، وعاد إلى القرية ليعمل في أرض أبيه المحدودة، وقد عرفت من خلالها كيفية الصلاة، وعدد ركعات كل فرض من الفروض الخمسة، ومعنى الصيام في رمضان، ووقفة العيد الكبير (عيد الأضحى) ويوم عاشوراء ورجب وشعبان .. كانت بالنسبة لي موسوعة في الفقه والسيرة النبوية وقصص الأنبياء، وخاصة قصة يوسف، وقصة موسى عليهما السلام، وحين وصلت إلى الصف الرابع أو الخامس كانت تتوكأ عليَّ وأنا في صحبتها، عندما نذهب إلى المدينة لقضاء بعض الأمور، أو حل بعض المشكلات التي تعرضت لها، كما كنت أكتب خطاباتها إلى خالي محمد (الصغير)، وكان يعمل في المحلة الكبرى، وله قصة طويلة، لعلي أعود إليها فيما بعد.

### جدتي لأبي تهدد:

في المقابل كانت جدتي لأبي محدودة الثقافة، وكانت تحبني حبًّا غامرًا، وتفرح إذا ذهبت إلى بيتها، تقدم لي أفضل ما عندها، وتغضب إذا عنفني أبي أو ضربني عقابًا على خطأ، بل تهدد بأنها ستأخذني بعيدًا وتترك له البلد وما فيها. لقد ترمّلت مبكرًا، وكان عليها أن تربي أولادها الذكور الثلاثة، وكان أبي أكبرهم. كان جد أبي يتولى أمر أحفاده بعد موت والدهم، وظل يرعاهم مع أمهم حتى رحل عن الدنيا. أما هي فقد توفيت فجأة وأنا في الصف الثالث الابتدائي، وقد حزنت من أجلها كثيرًا؛ لأني فقدت ركنًا مهمًّا في العائلة، كان يغدق عليَّ حبًّا طائلا خالصًا.

**امرأة مدبرة:**

لا ريب أن أمي وقفت إلى جانبي، وشجعتني على القراءة والتفوق، وعلمتني المحافظة على فرائض الصلاة، وقد كانت من النساء القليلات في القرية اللاتي يؤدين الصلاة بانتظام، ولديهن وعي ما بأصول الدين، وقد ضحت كثيرًا مع أبي لأواصل التعليم في المرحلة العالية وما بعدها، واحتضنت أبنائي وصبرت كثيرًا على المتاعب والعناء، وكانت مثالا للمرأة المدبرة التي تحفظ النعمة وتشكر الله عليها، وقد سعدت بوصولي إلى التدريس في الجامعة، وكانت تعبر عن فرحها حين ترى اسمي مطبوعًا في مقال أو على غلاف كتاب، وقد أهديت إليها بعض كتبي؛ عرفانًا بفضلها مثلما فعلت مع أبي وأبنائي، فالإهداء أبسط مظاهر العرفان والتقدير.

في أواخر حياتها أصيبت بالفشل الكلوي، وكان أبي قد غادر الدنيا قبلها بعامين، لم يكن هنالك ما يعرف اليوم بأجهزة الغسيل الكلوي، على الأقل في منطقتنا، ولكن كانت هناك حقن تقوم بتصفية المياه المتجمعة في بعض أماكن الجسم، وللأسف لم تعد هذه الحقن تجدي بعد أن تفاقم المرض أمام جسم عليل قارب نهايته في سن السبعين تقريبًا، فأحسست باليتم وأنا في سن الأربعين، وما زلت أشعر به، ولم يزل حنيني قائمًا إلى خبزها وطعامها ونظرتها إلى وجهي، وهي تستشعر بإحساسها الداخلي آلامي وأفراحي.

لم أبك يوم وداعها، ولكني بكيت وحدي بمرارة بعد عدة أيام، وما زلت لا أستطيع أن أمسك دموعي حين يهوم طيفها في خيالي من حين لآخر، فما زلت في حاجة إليها، ولكني أحمد الله أني أطالع ملامحها في وجه بعض أبنائي وحفيدتي "رقية"، التي أناديها: أمي!

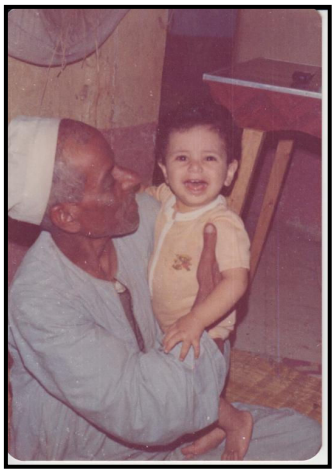

**والدي الحاج محمد – مع نجلي محمد الخامس – أول الأحفاد**

**رجل بسيط:**

أما أبي فقد كان - يرحمه الله - رجلا بسيطًا راضيًا بما قسم الله، قانعًا بنصيبه من الدنيا، لم يتكالب عليها، ولم يشك من الفقر يومًا، وكان الرزق يأتيه يومًا بيوم، وهو يهتف في كل الأحوال: الحمد لله!

ثم إنه لم يمدّ يده لأحد أبدًا كي يقترض منه، أو يطلب سلفة لأجل أو نحو ذلك، كان يحرص على شراء ما يريد إذا كان يملك الثمن، أما إذا لم يملك فلا يفكر في تعريض نفسه للحرج، ولذا كان بعض الأهالي وكثير منهم من الأقارب يتصورون أنه يكنز مئات الجنيهات (المئات في ذلك الزمان كانت تعد ثروة هائلة)، ويتواضع حتى لا يحسده أحد، وقد اقتديت به في هذا السياق، فلا أستدين، ولا أشتري شيئًا إلا إذا كان ثمنه معي!

كانت مشكلة أبي في تعامله مع الناس أنه كان حريصًا على كرامته، لا يعرف التملق ولا النفاق، وهو ما كان يفقده فرصًا كثيرة في الحياة والتجارة، وقد لاحظت أنه كان لا يحلف أبدًا مثل الآخرين، ولا يستخدم يمين الطلاق الذي كان عديد من الناس في القرية يستخدمونه عادة دليلا على سلامة مواقفهم وصحة كلامهم.

كان حريصًا على الصلاة في مواقيتها، وكان مستودعًا لهموم الأقارب والجيران، وفي الوقت نفسه كان عاملا مهمًّا في حل كثير من المشكلات التي يتعرضون لها مع أصدقائه وأصحابه ممن يجلسون معه.

لم يحاول أن يكسر عاداته اليومية في الطعام والشراب. يأكل في مواعيد محددة، يشرب الماء بانتظام، لم يتناول في طعامه لحوم الطيور أو الأرانب أو البقر أو الجاموس. اللحم الذي يتناوله هو لحم العجالي (صغار الجاموس) أو ذكور الماعز، لا يتناول شيئًا عدا ذلك، وكان أقرب إلى تفضيل البقوليات، ولعلي ورثت منه شيئًا من ذلك.

الجد والحفيد

**المرض العضال:**

وقد ظلت صحته جيدة بصفة عامة، فلم يذهب إلى الطبيب إلا مرات قليلة في المرحلة الأخيرة من حياته، وهي مرحلة قصيرة على كل حال، تم فيها اكتشاف المرض العضال، وكانت هناك إجراءات لإجراء جراحة لاستئصال الجزء المصاب، ولكن الانهيار الذي بدا على الجسم كله من خلال الضعف والهزال، لم يسمح بفرصة الجراحة؛ لأن رسول الموت كان على الأبواب، وسبقت إرادة الله باسترداد الوديعة،

فودعته في أواخر أكتوبر عام 1986م. وكأني أودع صديقًا حانيًا لا يمكن تعويضه، وفقدت برحيله حارسًا متطوعًا بالغريزة على حياتي وصحتي وجهدي وأبنائي وسفري وعودتي، وقد بكيته بحرقة؛ خاصة أني عشت مرحلة مرضه أولا بأول، ورأيت معاناته الصامتة وآلامه القاسية! رحمه الله.

**الذكاء والتمرد:**

أما خالي محمد عبد الله البنا، أو خالي محمد الصغير، فقد كان نموذجًا للذكاء والتمرد والتفرد. كان ربعة أبيض، جميل الوجه، قوي البنيان، تعلّم في كتّاب أبيه، كما كان جميل الخط، وبعد وصوله إلى مرحلة الشباب في رعاية جدتي، ترك القرية ومضى يجول في البلاد من شرقها إلى غربها، ذهب إلى القاهرة وبورسعيد والسويس وطنطا والإسكندرية وغيرها، ولكنه استقر أخيرًا في المحلة الكبرى التي قضى بها معظم حياته العملية، حتى رحل إلى بارئه عام 1974م.

في فترة الغياب عاشت أمه (جدتي) عذابًا وقلقًا؛ فهي لا تعرف له مكانًا، ولا يطمئنها عليه أحد، وقلب الأم حين يغيب الابن - أو "الضنى" كما يسمى - يعيش حيرة غير مسبوقة في انتظار المجهول، خاصة أنها تعيش مع ابنتيها وابنة ثالثة أكبر منهما، أنجبتها من زواج سابق، انتهى بوفاة الزوج، وترملت قبل أن تتزوج جدي لأمي، وها هي الآن لا تجد من يرعاها مع بناتها. كانت تأمل أن يكون ولدها الغائب راعيًا ومسئولا، ولكنه ذهب ولم يعد، وكان أخوه الأكبر وسميّه غير الشقيق قد سبقه بسنوات طوال إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة، ليقيم هناك إقامة دائمة، وينجب أولادًا يقتربون من خالي الصغير في السن، وتنقطع علاقته بصورة شبه تامة مع القرية ومن فيها من الأقارب.

كان الناس يعرفون خالي الأول غير الشقيق بالشيخ محمد الكبير، ويعرفون الآخر الشقيق بالشيخ محمد الصغير، وإذا كانوا قد نسوا الأول، فالآخر عاد إليهم بعد سنوات يرتدي زيًّا إفرنجيًّا وطربوشًا، وكان الطربوش قبل انقلاب يوليو 52 يمثل مرتبة اجتماعية، تدل على تميز الوضع الاجتماعي والثقافي بالنسبة لأهل القرية، وقد خلعه بعد سنوات قليلة من الانقلاب، كما فعل غيره من الناس، وصار خالي الأصغر يحمل لقب محمد أفندي.

### ارتباط بالقرية:

كان في غربته قد تعرف على امرأة يونانية متمصّرة، تكبره في السن وتزوجها، وظل بقية حياته يشيد بها وبوفائها وحبها وإخلاصها ومهارتها في تنظيم البيت، وعندما توفيت زوّجته أمه فتاة من القرية، أنجبت له بنتًا وولدين، ثم تزوج أخرى من المحلة، أنجبت له بنتًا، وصار مرتبطًا بالقرية في المواسم والأعياد، كما كان يحضر في المناسبات المهمة، وأخذ حضوره يشدني، فقد نما وعيي، ورأيته يحمل معه بعض الصحف اليومية، وكان يطلب مني أن أقرأ العناوين الرئيسة؛ ليتعرف على قدرتي في القراءة، ويحكي لي بعض الحكايات، أو يطلب مني جمع أو طرح بعض الأعداد في عمليات حسابية صغيرة تناسب سني.

ونمت علاقتي به حتى صرت أقرأ الجريدة، وأقرأ موضوعاتها، ونبهني إلى بعض القصص التي ينشرها في الصحف اليومية الكتاب القصصيون، فعرفت أن هناك ما يعرف بفن القصة، الذي يختلف عن المقال، وقد كان - رحمه الله - يحرص على قراءة جريدة الجمهورية التي أنشأتها حكومة الانقلاب، وتم دمجها مع جريدة الشعب، وكانت الجمهورية تنشر ما يسمى بالكوبونات للتأمين على الحياة، وكوبونات تخفيض ثمن كتاب التحرير، الذي يصدر عن الجمهورية، وبدأت أشتري الجمهورية من أجل كوبون الكتاب المخفض، فارتبطت لأول مرة باقتناء الكتب.

### تشجيع على القراءة:

كان خالي يشجعني على القراءة، ويمتدح خطّي، وقد صرت وأنا في أواسط المرحلة الابتدائية، أكتب إليه الخطابات التي تمليها جدتي لأمي بأسلوبها، وأقرأ لها الخطابات التي يرسلها هو. وقد وفّرتُ على جدتي بهذه القراءة ما كان يقوم به عم سيّد البوسطجي، الذي كان يحمل بريد القرية على دراجة ويوزعه على الأهالي عند المسجد، ويحجز ما يخص جدتي ليمر عليها عند البيت، ويسلمه لها، ويقرأه على مسامعها؛ فقد كانت متقدمة في السن وحركتها محدودة، ونظير ذلك كانت تمنحه بعض القروش أو الهدايا الريفية، بالإضافة إلى تقديم الشاي.

### المصري الصبور:

عم سيد البوسطجي كان نموذجًا للمصري الصبور الذي يقنع بما قسم الله، كان يرتدي فوق رأسه الأشيب طربوشًا داكنًا، يصنع العرق على حافته السفلى طبقة، تصعد باستمرار

في الفضاء العلوي للطربوش، وكان وجهه الأسمر يتفصد عرقًا في الصيف، فكان يضع بين رأسه وبين الطربوش منديلا محلاويًّا مليئًا بالمربعات، يمسح به على جبينه كلما ازداد العرق، وقد كنا ونحن صغار نذهب إليه حيث يجلس على درج المدخل الخاص بالباب الكبير للمسجد، نسأله عن خطابات لنا، فيرد بضحكة أبوية: "في المرة القادمة"، أو يقول: "إنهم يكتبون الخطابات، وسوف يحملها عندما ينتهون من كتابتها"، وبالطبع لا نسأله من هم الذين يكتبونها، ونكتفي بفرحنا أنه رد علينا وبشرنا بقرب وصول خطاب لنا.

كان عم سيد خدومًا وطيبًا، وعندما يحمل الخطاب المسجل حوالة بمبلغ مالي قدره نصف جنيه أو جنيها كاملا (كان ذلك مبلغًا محترمًا في الخمسينيات) لا يتأخر عن أخذ خاتم صاحب الحوالة أو صاحبتها، ويصرفها من مكتب البريد بدسوق التي كان يسكنها ويعمل بمكتبها، نظير قروش يتمنّع في البداية عن قبولها، ولكنه أخيرًا يتناولها شاكرًا، وواعدًا بتقديم أية خدمة تطلب منه.

ظل عم سيد يعمل حتى أحيل على التقاعد، ورأيته وأنا طالب بدسوق - بعد سنوات من تقاعده - يمشي مثلي الآن متوكئًا على عصا، منحنيًا ضعيف البصر، لا يعرف من يكلمه إلا إذا عرفه بنفسه، وسمعت بعدها أنه انتقل إلى رحاب ربه!

### رحلة إلى المحلة الكبرى:

في سن باكرة - حوالي السابعة أو الثامنة - ذهبت إلى المحلة الكبرى في صحبة أبي وبعض الأقارب. ذهبنا إلى دسوق بالمركب، ومنها ركبنا القطار إلى قلين، وهناك انتظرنا وقتًا طويلا مملا؛ لكي نركب القطار الذي سيوصلنا إلى محطة اسمها محلة روح، ويمر بمحطة اسمها قطور، وهناك انتظرنا وقتًا أقل لنستقل القطار القادم من طنطا إلى المحلة، وهناك استقبلنا خالي، وذهبنا إلى البيت، وفي المساء سرنا بجوار شاطئ ترعة كبيرة يسمونها البحر، وقد تم ردمها بعد سنوات قليلة، وصارت شارعًا يسمى حتى الآن شارع البحر، وإن كان اسمه الرسمي شارع 23 يوليو. عبرنا جسرًا صغيرًا إلى الضفة المقابلة، ودخلنا لأول مرة السينما الوحيدة بالمحلة آنئذ. كان الفيلم يغني فيه فريد الأطرش أغنية جميل جمال، وأذكر أن من أبرز الممثلات فيه فاتن حمامة وماجدة. ولا أذكر شيئًا من

الرحلة بعد ذلك، غير أنهم ذهبوا بي إلى الصيدلية واشتروا لي دواء، ولا أدري كيف عدنا، وكانت لهفة أمي عليّ واضحة.

**رحلة أخرى:**

المرة الثانية التي ذهبت فيها إلى المحلة كانت في الشتاء برفقة خالي. كنت آنئذ قد صرت في أواخر المرحلة الابتدائية، ركبنا الأتوبيس من دسوق إلى كفر الشيخ، ومنها استقللنا أتوبيسًا آخر إلى المحلة، وفي موقف الأتوبيس كان المطر يهطل، فعرفت لأول مرة ركوب الحنطور الذي حملنا إلى البيت.

لا أذكر من أصداء هذه الرحلة إلا الحفاوة الكبيرة التي أسبغها عليّ خالي، لعله ذهب بي إلى معالم المدينة، وشوارعها، ومساجدها، وسوقها الذي كان بالقرب من خزانها الكبير الذي يسمى الصهريج، وأهم ما في هذا السوق بالنسبة لطفل مثلي هو الفاكهة، وكان البرتقال واليوسفي والموز أهم ما يعرضه الباعة في تلك الأيام!

لا أدري تمامًا كيف عدت إلى القرية. لعل خالي أركبني الأتوبيس إلى كفر الشيخ، وأوصى السائق أن يضعني في الأتوبيس المتجه إلى دسوق، والباقي سهل بالنسبة لي كي أصل إلى القرية عن طريق المركب الشراعي.

**خسارة كبيرة:**

زرت المحلة بعدئذ مرات عديدة بصورة شبه دورية في نصف العام الدراسي وإجازة الصيف، ولم تنقطع الزيارة إلا بعد تجنيدي في القوات المسلحة عام **1968**م، وقبيل انتهاء فترة التجنيد عام **1974**، ذهبت للعزاء في وفاة خالي، وكان رحيله خسارة كبيرة بالنسبة لي، فقد أحسست أن جزءًا غاليًا مني ضاع إلى الأبد، وأذكر أنني كتبت قصة قصيرة ضمن مجموعتي رائحة الحبيب، وقد أهديتها إلى الرجل الذي كان يحبنا حبًّا جمًّا، ورحل غريبًا! ولا اذكر أني زرت المحلة بعدئذ إلا مرات قليلة في مناسبات مختلفة، من بينها إلقاء محاضرة في قصر ثقافة الغزل، ثم مررت عليها عابرًا إلى المنصورة أو دمياط في مرات نادرة.

### خبرات وتجارب:

كانت فترة الستينيات التي تعددت فيها زيارتي للمحلة، وخاصة في الصيف كل عام، حافلة بخبرات وتجارب كثيرة، عرفت فيها أناسًا عديدين من زملاء خالي، وأهل المنطقة التي كان يعمل بها، والبيت الذي يسكنه، ومنهم شخصيات غنية إنسانيًّا، وتمنيت لو كان لدي الوقت للتعبير عنها أدبيًّا، كما رسخت في ذهني معالم المدينة، مسجد عطاء الله، الذي كان يخطب فيه الشيخ عبد السلام أبو الفضل، وهو رجل صالح – ولا أزكيه على الله – وكان يعتكف في شهر رمضان بالمسجد، وله تأثير معنوي ملحوظ على رواد المسجد من التجار وغيرهم، وكانوا يستجيبون له على الفور حين يطلب منهم إصلاحات أو ترميمات يحتاجها المسجد، ونتيجة لهذه الاستجابة توسعت مساحته، وتحسنت هيئته، وأضيفت إليه صندرة كبيرة تستوعب النساء، ويوم نقل الشيخ عبد السلام إلى مسجد آخر، هبّ أهل المنطقة لرفض القرار، وذهبوا إلى القاهرة ليعبروا عن احتجاجهم في وزارة الأوقاف، وأعيد الرجل إلى مسجده.

المفارقة أن الشيخ عبد السلام كان يأتي كل عام إلى دسوق حيث المسجد الإبراهيمي، ومنها إلى قريتنا، وفيها مسجد أبي المجد، ومعه بعض التجار الكبار والمسئولين من أصدقائه؛ ليوزع الصدقات على الفقراء، ثم يعود إلى المحلة ثانية. وفي أواخر التسعينيات، أو أوائل القرن الحادي والعشرين، علمت برحيله - رحمه الله.

### قصر عبد الحي خليل:

عرفت في المحلة الطريق إلى قصر الثقافة، وكان اسمه على اسم صاحب القصر الذي يحتله الآن، وهو عبد الحي خليل باشا - رحمه الله - وكان رجلا ثريًّا، قيل إنه لم ينجب، فوجه ثروته لعمل الخير والصدقات، وبنى معهدًا لتحفيظ القرآن، ومسجدًا كبيرًا يعد من أكبر مساجد المدينة - إن لم يكن أكبرها - وهو تحفة معمارية فريدة، وخاصة مئذنته، وقد استمعت من خلال ميكروفونه لأول مرة إلى المصحف المرتل بصوت الشيخ محمود الحصري - رحمه الله - وكان يذاع بعد صلاة العصر كل يوم، وما زلت حين أسمع صوت

الشيخ الحصري وهو يرتل، أتذكر على الفور مسجد عبد الحي خليل، والجلوس في حديقة شارع البحر للاستمتاع بصوته العذب.

بالقرب من قصر الثقافة مدرسة للبنات في شارع محب، أديت فيها امتحان الثانوية العامة – منازل. كنت أيامها طالبًا في دار المعلمين، وكنت أسعى للدراسة في الجامعة، فقد دخلت المعلمين مرغمًا؛ من أجل وظيفة توفر لقمة عيش كريمة، وتسند حياة الأسرة؛ خاصة أن أخي كان يواصل دراسته بالأزهر. أجبت في الامتحان عن المواد كلها إجابة طيبة عدا الإنجليزي والفرنساوي، فلم أحقق الدرجات الدنيا. ليس عن تقصير مني، بقدر ما كان الأمر عجزًا عن الجلوس إلى مدرس خصوصي يتقاضى ما لا أقدر عليه في ذلك الحين. فأنا لم أدرس الفرنساوي من قبل، وما درسته من الإنجليزي في دار المعلمين كان محدودًا، وكنت آتيًا إلى المعلمين من الأزهر، حيث لم أدرس هناك إلا مبادئ اللغة الإنجليزية، أو ما يعادل السنة الأولى الإعدادية يومئذ (أطفال الابتدائي اليوم يدرسون قدرًا لا بأس به من الإنجليزية حتى الصف السادس).

وقد ظللت أحاول استيعاب مقرر اللغتين الأجنبيتين، حتى وفقني الله بعد حصولي على دبلوم المعلمين أن أدخل الامتحان مجددًا، وأنجح بمجموع لا بأس به، فدخلت الجامعة.

### الصحف العربية:

وفي المحلة عرفت الطريق إلى قراءة الصحف العربية التي تأتي من خارج مصر، وكانت مختلفة عن الصحف المصرية الثلاث التي نعرفها. كان هناك مكتب صحف عرفني عليه خالي لأشتري منه كتاب التحرير المخفض بعد تقديم الكوبون، وكنت أقلب الصحف والمجلات التي يعرضها. عرفت الصحف والمجلات اللبنانية: الأنوار، النهار، البيرق، الأديب، الآداب، العلوم، الحرية، الطريق، وغيرها. انفتح أمامي أفق آخر، اتسع - فيما بعد- حين عرفت طريقي إلى رأس البر بدمياط، ثم الإسكندرية، ومواقعها الثقافية.

كنت أحرص على السير في أهم شوارع المحلة وأظنه كان يسمى شارع العبّاسي، ويحفل بالمحلات من مختلف الأنواع، وكان يهمني فيه محل الترزي، وأحد صاحبيه كان يسمى عم عجمي، والآخر عم مشمش، بالإضافة إلى شركة "المسلم"، ودكان الكتب المستعملة.

**اختلفوا فيما بينهم:**

وشركة المسلم نشأت استجابة لرغبة بعض الإسلاميين في المدينة لبيع البضائع بربح بسيط؛ تيسيرًا على الناس، ويلتزم البائعون بآداب الإسلام، ويغلقون الشركة عندما يُرفع الأذان، فيُصلّون ويعودون إلى ممارسة البيع. وكان قسم المكتبة والأدوات الكتابية يتيح شراء الكراسات والأدوات وبعض الكتب بأسعار معقولة؛ ولذا حرصتُ على توفير ما أحتاجه من كراسات وأدوات في كل إجازة من هذا القسم.

ومن المؤسف أن القائمين على شركة المسلم اختلفوا فيما بينهم كما علمت، وآثرت الأغلبية أن يستمر العمل في الشركة دون توقف للصلاة، وأن يرتفع هامش الربح تحت حجج مختلفة، فانسحب منها فريق يقوده طبيب كان مشهورًا، اسمه الدكتور سعيد، وهو ابن أخت عبد الحي خليل باشا كما قيل لي، وكان أقرب إلى مبادئ الجمعية الشرعية، وانتخب فيما بعد عضوًا بمجلس الشعب عندما اختيرت أعداد ملحوظة من الإسلاميين، وكان أول من رفع الأذان في المجلس. وقد أسس الدكتور سعيد شركة أخرى اسمها "الفتح الإسلامي"، ولكن زبائنها لم يكونوا بالكثرة التي عرفتها المسلم في أول أمرها، ولعل ذلك يرجع إلى نوع من التزمت في المعاملة وافتقاد البشاشة والمرونة، ولا أدري هل بقيت الشركتان أم أغلقتا؟

**المصباح المنير:**

أما دكان الكتب المستعملة فكان صغيرًا، ولكنه مكدس بالكتب من كل نوع، وأذكر أنني اشتريت منه نسخة من معجم "المصباح المنير"، منزوعًا منه بعض الصفحات الأولى، وكان مطبوعًا في المطبعة الأميرية، وقد دفعت فيه خمسة قروش، وجلّدته بربع جنيه تجليدًا فاخرًا، وما زالت لدي النسخة حتى اليوم، أرجع إليها عند الحاجة.

ومن المشاهد التي لا أنساها أنني في إحدى المرات التي ترددت فيها على دكان الكتب المستعملة، تعرضت لعملية سرقة في عز النهار، فقد كنت أضع بعض النقود الورقية في جيب القميص، فإذا بولد طويل يركب دراجة يضع يده في جيبي وينشل ما فيه. ويبدو أنه كان يترقبني، ويتابع استغراقي في تقليب الكتب، فوجدني صيدًا سهلا، ولكني صحت به وأمسكت بالدارجة من الخلف، فألقى أوراق النقود، وولى هاربًا!

كانت المحلة محطًّا مهمًّا في حياتي، وعشت فيها كأني واحد من أبنائها، وما زالت تذكرني بمن فقدت ومن عرفت.

### كان يتمنى لو رآني:

سألت خالي عن أخيه الذي يعيش في القاهرة، فعلمت أنه زاره مرة أو مرتين، وكان يسكن في السيدة زينب، أو الدمرداش، وفي أوائل الستينيات زارنا في القرية بعض أبنائه، عرفت أنهم يعيشون ما بين القاهرة والإسكندرية، كنت قد أرسلت كارت معايدة لخالي الكبير فرد عليّ، وأخبرتني زوجه حين قابلتها عند أحد أبنائه في الإسكندرية، أنه كان يتمنى لو رآني. لم يبق من أولاده غير واحد فقط هو "عبد المنعم" الذي يقارب الثمانين عند كتابة هذه السطور، ويعيش في الإسكندرية، وكان إداريًّا كبيرًا بكلية الهندسة، وقد زارنا في القرية وزرته في الحضرة القبلية، وما زال بيننا اتصال عن طريق الهاتف في المناسبات، وتفضل مشكورًا، وقابلني قبل سنوات عندما كنت في أحد المؤتمرات بالإسكندرية.

### علاقة قوية:

يقع بيتنا الذي ولدت فيه بجوار المسجد، وكانت العلاقة بين الاثنين قوية، فنحن نبدأ بعد اليقظة من النوم بالذهاب إلى المسجد للوضوء والصلاة، ثم نتردد عليه في بقية الأوقات حتى يغلق أبوابه عقب صلاة العشاء. والمسجد حلقة علم على مدى اليوم والليلة، فهناك درس علمي يلقيه إمام المسجد بعد المغرب. يجلس وأمامه مصباح غازي نمرة **10**، ومعه كتاب في الفقه أو السيرة يقرأ منه ويشرح لمن يتحلقون حوله، وفي شهر رمضان يكون الدرس بعد صلاة العصر مباشرة، ويستمر إلى قرب الإفطار، وهناك

دروس أخرى في أوقات مختلفة، يلقيها متطوعون من خريجي الأزهر الذين يعملون في التدريس، وبعض طلابه الذي قطعوا شوطًا كبيرًا في التعليم الأزهري، يقومون بتفسير بعض السور أو قراءة بعض أحداث السيرة في أوقات أخرى. كما كان هناك وعاظ، يأتون من دمنهور أو شبراخيت أو دسوق في مناسبات مختلفة، وكان بعضهم يلقي دروسًا خاصة للنساء في يوم محدد كل أسبوع.

**أصول الفقه المالكي:**

والحق أني استفدت من دروس رمضان وغيرها، ويكفي أني استوعبت وأنا في سن باكرة أصول الفقه المالكي في العبادات والمعاملات من دروس شهر رمضان، التي كانت تبدأ بفرائض الوضوء، وتنتهي بزكاة الفطر مع قدوم وقفة عيد الفطر. والمفارقة أن إمام المسجد آنئذ - وكان اسمه الشيخ علي صالح رحمه الله – كان حنفي المذهب، ولكنه كان يراعي أن أهل القرية يتبعون المذهب المالكي، فكان يصلي وفقًا له، ويشرح دروس الفقه على أساسه، ويقدر زكاة الفطر وفقًا لما يراه الإمام مالك، وكان هذا تعبيرًا عن أفق واسع في الفهم ومراعاة الواقع.

كان المسجد صنو البيت، المسجد يمثل القوة والشموخ والرحابة، والبيوت - مع تواضعها وضآلتها وضيقها - تمثل الألفة والتعاون والمودة، وترتبط به بصورة وثيقة، ففيه المياه والحمامات والمكان الفسيح الذي يستوعب من يقضون وقت الفراغ بعد الصلاة، أو ينامون القيلولة انتظارًا لصلاة العصر، أو يتجمعون في طرقته الطويلة الواسعة، ذات الهواء العليل المنعش في الصيف؛ للحديث فيما يحدث في القرية، ويتعلق بأهلها.

**المئذنة:**

كان الهدف الذي يسعى إليه الأطفال في المسجد - وخاصة من هم في مثل سني - هو المئذنة. يريدون الصعود إليها ومعرفة ما بداخلها. وننتظر مشاهدة المؤذن الذي يصعد ويؤذن للصلوات الخمس، كان هناك مؤذنون أصواتهم جميلة وآخرون غير ذلك، ولكن الذي يشغلنا هو المئذنة نفسها، وليس صوت المؤذن. فقد كانت تمثل لغزًا غامضا؛ لأنها

دائمًا مغلقة الباب المفضي إليها، إنه متصل بالمصلى الواسعة القريبة من مكان الوضوء، يفتحه المؤذن، ويصعد السلالم الرخامية حتى سطح المسجد. وبعد السطح يصعد سلمًا حلزونيًّا رخاميًّا أو حجريًّا - لم أعد أذكر - حتى يصل إلى باب الشرفة التي يطل منها على القرية، ويؤدي الأذان. وبعد ذلك يستمر السلم، ولكن بدرج خشبي يصل حتى طرفها العلوي المخروطي.

كما كان يشغلنا - نحن الأطفال - أعشاش العصافير الموجودة بفتحات المئذنة، ويوجد بها صغار يمكن أن نصطادها بأيدينا، بالإضافة إلى عمود الراية المستعرض الذي كان يعلو بوابة الشرفة، وكانت الراية الخضراء تستخدم في شهر رمضان للإعلان عن حلول وقت المغرب وبدء الإفطار، حيث يقوم المؤذن بشد الحبل الذي يبسطها، فتأخذ في الحركة مع الريح، وهي لحظة من أجمل اللحظات التي يلتئم فيها شمل أفراد الأسرة جميعًا حول المائدة، بما تضمه من طعام رمضاني، له مذاق مختلف عن الطعام في بقية الشهور.

**خزين السنة:**

بيوت الحارة متلاصقة، معظمها يتكون من دور أرضي، وأغلبها مبني بالطوب اللبن، وتضم أفرانًا للخبيز، وحظائر للحيوانات، وعششًا للدواجن، وعلى السطوح يتم تخزين وقود العام من القش والحطب، وعلى السطح توضع الأمطار (تشبه الصوامع الصغيرة)، التي يحفظ فيها خزين السنة من الحبوب: قمح وذرة وأرز وفول ونحوها، وهي أوعية تصنع من الطين بطريقة خاصة، لها فوهة علوية، يدخل منها الخزين، ولها فتحة ضيقة في أسفلها، تفتح عند الضرورة، ويسحب منها ما تفرضه الحاجة للطحين أو الطبخ.

وفي العادة تكون في البيت غرفة كبيرة للعائلة، كلها تسمى المندرة تستقبل الضيوف، ويتناولون فيها الطعام، وبعضها تقام فيه ما يشبه المصاطب بجوار الحوائط الأربعة، ويفرش عليها حصير، وتتحول إلى ما يشبه الكنبة، ويجلس عليها الضيوف وينامون، وخاصة القادمون من خارج القرية؛ إذ يكون الأمر سهلا؛ حيث لا يحتاجون في الصيف إلى غطاء، وفي الشتاء تكفي بطانية أو لحاف.

### اختلف الوضع:

كان البيت الذي لا يعمل صاحبه بالزراعة، ولا يملك حيوانات، لا يشتري اللبن؛ لأن أهل الحارة يرسلون إليه شيئًا منه كل بضعة أيام، وخاصة بعد ولادة الجاموسة أو البقرة، وكان شراء الجبن والزبد والسمن سهلا وهينًا، ومقابل قروش معقولة. اليوم اختلف الوضع، فاللبن يُشترى من البقال في القرية أو المدينة، وأمست سيارات تجار اللبن تمر على الفلاحين أو من تبقى منهم؛ لتشتري كل الكمية الموجودة لديهم، وتتسلمها بالميزان الدقيق الذي يعلو كل سيارة. وأعرف أسرًا عديدة في القرية، تستخدم اللبن المجفف بديلا للبن الطازج الذي يصعب الحصول عليه أحيانًا!

في أيامنا الراهنة قلّ إنتاج الزبد والسمن، وأصبح الأصل الآن لدى الناس في القرى استخدام المسلى الصناعي أو زيت الذرة أو ما شابه، وترتب على ذلك وعلى أسباب أخرى أن الأجيال الجديدة لا تعرف شيئًا عن الفطير أو المخبوزات المنزلية الأخرى التي عرفها جيلي والأجيال السابقة.

### المنتجات المنزلية:

كان الطعام المنزلي في الريف بسيطًا بصفة عامة، يعتمد على المنتجات المنزلية والمحلية. كل بيت فيه مخزون من الجبن المملح أو الموضوع في المش يكفي عامًا كاملا أو يزيد، وهناك الدجاج وإنتاجه من البيض ومثله البط والإوز، والأرانب وكلها تسهم بقدر ما في تحسين نوع الطعام كل حين من الزمان، الذي يتفاوت حسب وضع كل أسرة، فالدواجن تذبح في المناسبات والمواسم، والبيض المسلوق أو المقلي في أيام الرغد والبهجة، أما في الأيام العادية فالبطاطس المطبوخة أو المقلية، ومثلها الكوسة أو اللوبيا أو الفاصوليا أو الباميا أو الملوخية بدون لحم، تعد حالة نموذجية للطعام اليومي. أما اللحم الذي يشترى من لدن الجزار، فيكون عادة في الأعياد إن كانت ظروف الأسرة تسمح بالشراء، وإلا فإنها تبحث عن دجاجة أو بطة أو أرنب.

**الحمد لله:**

وفي كل الأحوال فقد كان الرضا بما قسم الله هو الحال السائدة، لا تململ ولا غضب ولا ثورة. الحمد لله هي الرد أو التعليق على الأحوال، والثقة في فرج الله، إيمان لا يتزعزع. اليوم نسمع لغة لا صلة لها بالرضا أو الإيمان. لا بأس أن يبحث الناس عن الدنيا ومباهجها وأطايبها، ولكن الإحساس بالرضا أو الامتلاء الروحي من الأمور النادرة في واقعنا الآن.

كان الكلام بين أهل القرية عن الستر والبركة لا ينقطع في الدعاء والصلاة، والحديث فيما بين الرجال والنساء يدور حول طلب الستر والمزيد من البركة. كانت أعصاب الناس هادئة، والدنيا تمضي على مهل؛ ولذا لم نسمع آنئذ عن أمراض الضغط أو السكر أو الفشل الكلوي أو الكبدي، أو غيرها بمثل ما نسمع الآن.

**الحس العائلي:**

كانت هناك أخلاق القرية الحقيقية التي يتندر بها أهل الهوى من المتغرّبين، فالمروءة والنخوة والتضامن عند الملمات والمشاركة في الأفراح والمناسبات السارة، كانت أمرًا طبيعيًّا، ولعل ذلك يرجع إلى الحس العائلي أو الأسري الذي يسيطر على جميع الناس، فولادة طفل في القرية حدث لا يعني الوالد والوالدة ولا الأسرة الصغيرة أو العائلة الكبيرة فحسب، ولكنه يعني القرية كلها؛ حيث ينتظرون "السبوع"، وتوزيع عقود الفول النابت وأكياس الملح والحبوب، وكذلك قراءة الفاتحة من شاب على فتاة، وإعلان أحدهم عن نية الحج هذا العام، وخبر وفاة شخص ما؛ حيث يجتمع الكبار ويتشاورون من أجل توديعه بما يليق، ونصب السرادق أو الخيمة، ومشاركة الأسر عن طريق تقديم الصواني في الغداء والعشاء؛ ليجد الغرباء القادمون للعزاء ما يليق بهم من طعام واستقبال. ولا بأس أن تقدم في السر مساعدات نقدية لأهل المتوفى؛ كي يستطيع مواجهة تكاليف الوداع والعزاء، سواء أكانت هذه المساعدات دينا يسترد فيما بعد، أو مجاملة ترد في مناسبات مماثلة، أو مساعدة خالصة لا ينتظر لها ردًّا.

**المروءة تعبر عن ذاتها:**

ويبدو التضامن القروي ساطعًا عندما يشب حريق في منزل أو مجموعة منازل؛ بحكم وجود القش والحطب على السطوح، ويمكن أن تشتعل النار فيهما بسهولة عن طريق تطاير الشرر من أماكن أخرى، أو وجود القش والحطب أمام الأفران التي لم تنطفئ تمامًا، أو استخدام اللمبات الشعلة المكشوفة، التي يسهل أن تشعل أي طرف يتدلى من القش، فيسري في بقية الهشيم، وهنا تعبر المروءة عن ذاتها بأقوى ما يمكن، ويشارك الرجال والنساء في عملية الإطفاء. وقد رأيت بعضهم يلقي بنفسه في قلب النيران؛ لينقذ طفلا أو عجوزًا لا تستطيع الحركة، أو ليرش المياه التي تأتي بها النساء من النهر في الحلل والبلاليص، ويتكاتف جميع القوم حتى تنطفئ النيران قبل أن تصل سيارة الإطفاء الحكومية. ولا يتوقف الأمر عند إخماد النيران، بل يتعاون القوم في تقديم ما يشبه التعويض من الحبوب والخزين إلى المتضررين، وإذا كان بعضهم فقيرًا، فإنهم يجمعون له ما يقدرون عليه من مال، إضافة إلى ما سبق.

والأمر ذاته يحدث عندما تسقط جاموسة أو بقرة في الساقية أو تنكسر لسبب ما، أو يصيبها مرض، وتباع لجزار "الوقيع"، فهم يتعاونون إما بشراء الوقيعة بسعر يقترب من ثمن اللحم السليم مساعدة له، أو يجمعون ما يستطيعون لتقديمه إلى المتضرر إذا كانت الوقيعة لا تؤكل.

**قيم الفردية:**

في أيامنا الراهنة تغيرت أشياء كثيرة، وإن كانت هناك بقية من مروءة وتعاون لا يمكن إنكارها، تتحقق بصورة ما. ويرجع ذلك إلى تكاثر السكان، وضعف قيم التضامن العائلي، وازدهار قيم الفردية؛ بسبب السفر إلى الخارج، والهجرة الداخلية، وانتشار التعليم، والرغبة في الاستقلال عن الأسرة في العمل والسكن والحياة.

في كل الأحوال كانت أسرتي البسيطة مسالمة، لا تمثل مشكلة لأحد من الجيران أو أهل القرية، وكانت تحظى بشيء من الألفة والرضا، فكانت موجودة وغير موجودة في آن، على

العكس من الأسر التي كانت تمثل وجودًا متحركًا، يهدف إلى إثبات الوجود، وإظهار الشوكة، أو بسبب الصراع على ما يمكن تسميته السيادة في القرية.

**صراع السيادة:**

كانت بعض الأسر تندفع إلى العنف الشديد؛ ردًّا على بعض أخطاء الآخرين البسيطة، قد تكون بسبب الأطفال أو خلافات النساء، وتتصاعد الأمور إلى حد إسالة الدماء، وربما إزهاق الأرواح، وهو ما يفضي إلى ثارات وخصومات مزمنة؛ من أجل التأكيد على أهمية القوم ووجودهم، الذي يجب وضعه في الحسبان.

أما صراع السيادة، فيتمثل في منصبي العمدة وشيخ البلد، وهو صراع ممتد ومتوارث، ولو أثقل أصحابه بكثير من التكاليف المادية والمعنوية. بيد أن هناك ما يمكن تسميته "بالاتفاق الضمني" على التعايش وفقًا لموازين القوى، واستمرار الحياة بمنطق أخلاق القرية التي تتضامن عند الملمات، وتتشارك في المسرات، وتتناسى الخلافات مؤقتًا.

**تجربة غريبة:**

ومع الإحساس بالأمان والاطمئنان الذي يسود المجتمع القروي بصفة عامة، فقد عشت تجربة غريبة وأنا في الرابعة أو الخامسة من عمري؛ كنا مجموعة من الأطفال نلعب أمام بوابة المسجد الرئيسة في رمضان. كان المصلون يصلون التراويح، ونحن نجري ونلعب في ضوء فوانيس المسجد، وإذا بي أجدني محمولا بين شخصين، وقد نزعاني من بين أقراني، ومضيا سريعًا نحو الظلام على الطريق المؤدي إلى خارج القرية، وقد وضعا منديلا على فمي. ولكني بحكم غريزة البقاء، ظللت أصرخ وأتملص من الرجلين اللذين لم أعرفهما، ولم أصدق نفسي، وأنا أعدو منطلقًا صارخًا في طريق العودة إلى البيت، لا أدري كيف قطعت المسافة قفزًا لأرتمي في حضن أمي، والدموع واللهاث هما ما أرد به على سؤالها ولهفتها.

بعد حين رحت أجيب عن أسئلة حول الرجلين وشكلهما. هل كانا يمزحان؟ هل كانا يريدان شرًّا؟ من هما؟ ولماذا أنا دون بقية الأولاد؟ يشبهان من؟ ظلت الأسئلة تتوالى. ولا

أعرف كيف أجبت ولا ما قلت، ولكن الذي تأكدت منه أنني كنت في طريقي إلى مجهول، نجوت منه بفضل الله.

لقد كان عهدًا جميلا مع كل ما فيه من مفارقات، فقد كانت الطفولة البريئة تشعرني بطعم الحياة وجمالها، وتسمو فوق الفقر وصعوبات الواقع، وكان الرضا سمة من سمات الدنيا آنئذ، وعلامة على الستر والاستغناء والبركة.

* * *

## 5 - اقرأ باسم ربك

### ورقة صغيرة:

يوم ذهبت إلى المدرسة ودخلت الصف الأول الابتدائي كان يوم عيد.

قبله بأيام جاءت ورقة صغيرة إلى أبي، كنا نسميها "إنذارًا"، وتتضمن – ما عرفته بعد سنوات - أن ابنكم المولود في **1946/4/5** قيد بالصف الأول الابتدائي بالمدرسة، ويلزم حضوره بانتظام، وإلا نحملكم المسئولية. التوقيع ناظر المدرسة: يوسف علي حمودة، وكان رجلا ممتلئًا، يرتدي بدلة بنطالها له حمالتان، وكان له طربوش أحمر، ويحضر من الرحمانية القرية الكبرى المجاورة لقريتنا على حمار قوي، تبدو العناية به واضحة، وبردعته جيدة، وذات ألوان، وكانت المدرسة كلها تخافه أو قل تهابه، فقد كان رجلا طيبًا، ولكن اهتمامه بالمدرسة والحضور والغياب، ومعرفته بالتلاميذ وآبائهم، ومتابعته المستمرة للمدرسين والمستوى التعليمي، ودخوله الفصول ليشرح ويدرس، كل هذا كان يجعل له حضورًا حقيقيًّا وهيبة عظيمة في واقع التلاميذ والمدرسين بل القرية كلها، لا سيما أنه وزوجه يمتان بصلة قرابة إلى بعض الأسر في قريتنا، وكنا نعرف قرينته واسمها الخالة مريم – الحاجة مريم فيما بعد – فقد ذهبت معه إلى الحج في رحلة، ودعهما فيها معظم أهل قريتنا.

### صورة مضحكة:

أذكر أن أبي - رحمه الله - بعد أن تلقى إنذار المدرسة، ذهب بي إلى دسوق ليصوّرني من أجل الملف الذي تحتفظ به المدرسة، ولابد أن يكون فيه شهادة الميلاد وطلب عليه صورة، وعند مصور يملك آلة تصوير مائي أجلسوني على كرسي، ولم يتمكن المصور من تهدئتي أمام آلته الغريبة، بل المخيفة بالنسبة لي، وذهبت محاولاته سدى، وخرجت الصورة وأنا أضغط شفتي العليا على شفتي السفلي، وظلت صورة مضحكة للأسرة

والأقارب، وللأسف فقد ضاعت هذه الصورة النادرة مع صور أخرى، كنت أتمنى الاحتفاظ بها؛ لأنها تكشف الطبيعة الإنسانية في مراحلها المختلفة.

**بيت قديم:**

كانت المدرسة عبارة عن بيت قديم يملكه أحد أفراد العائلة الكبرى في قريتنا، وتستأجره الحكومة بإيجار شهري أو سنوي .. لا أدري، ويتكون من طبقتين. الطبقة الأرضية تضم ثلاث غرف أو فصول، والبوفيه أو ما يشبه البوفيه (مكان لعمل الشاي). أما الحمامات فكانت في مبنى مقابل، يملكه أيضًا أصحاب المبنى المدرسي المستأجر، وفي الطبقة العليا أربع غرف كبيرة. كانت الصفوف الثلاثة الأولى في الدور الأرضي، أما الصف الرابع فكان في الدور الأعلى، وفيه مكتب الناظر، ومخزن الكتب، ومكان للفراش.

**أكبر حجمًا:**

كان زملائي في الفصل أقوى مني من حيث أجسامهم، فهم أكبر حجمًا وأكثر ضجيجًا وحركة، وكانوا خليطًا من البنين والبنات، وإن كان عدد البنات أقل، وقد تسرب منهم عدد لا بأس به، ولم ينتظموا في الدراسة، وكانوا يفضلون الذهاب إلى الحقول مع آبائهم، وربما كان الآباء في حاجة إليهم فيبقونهم معهم، وقد بدا لي وأنا في الغربة بعيدًا عن مصر، أن أسجل أسماء من كانوا رفاقي في المرحلة الابتدائية عقب معرفتي وفاة واحد منهم، تأثرت من أجله، وذكرت الباقين، منهم من رحل عن دنيانا وكأنهم يشيرون إليّ: دورك قادم! ومنهم من بقي حيًّا. طوحت الحياة بالأحياء هنا وهناك، ولكن تبقى الصورة القديمة لأطفال المدرسة الابتدائية محفورة في الذهن بتفاصيلها السارة وغير السارة. أذكر أني سجلت أكثر من خمسين اسمًا من رفاق الفصل، بعضهم استطاع أن يكمل تعليمه العالي، وهم قلة قليلة، والأغلبية انصرفت إلى العمل في الزراعة أو التجارة، أو بعض المصانع في مدن بعيدة نسبيًّا عن قريتنا.

**بيت سيدنا:**

بيد أن تجمّعًا مهمًّا كان يضم عددًا لا بأس به من الأقران في أعمار مختلفة، وهو بيت سيّدنا الذي يحفّظنا القرآن الكريم. سيدنا كان محفّظا رسميًّا للقرآن الكريم في المدرسة

الابتدائية، وكان جدوله الأسبوعي يقترب من ثلاثين حصة؛ فقد كان كل صف له خمس حصص أو أكثر أسبوعيًّا لحفظ القرآن الكريم، وفي بيته كنا نحفظ حفظًا منظمًا ومرتبًا؛ يهدف إلى حفظ القرآن من أوله إلى آخره على مدى خمس سنوات أو ست.

تمّ لي بحمد الله أن حفظت القرآن وأنا في الصف الخامس، وكنا في الصيف نذهب إلى بيت سيدنا في الصباح، وفي أيام الدراسة نذهب بعد الظهر، أو يمكن لمن حفظ اللوح أن يسمعه لسيدنا في المدرسة، ويصحح لوحًا جديدًا. واللوح عبارة عن مجموعة الآيات المقرر حفظها، وكان معها ماض (جزء مما سبق حفظه يعاد تسميعه؛ للتأكيد على الحفظ).

كان هناك مقرر سنوي للقرآن الكريم ضمن مناهج المرحلة الابتدائية، وكان المفتشون الذين يحضرون إلى المدرسة يسألوننا في هذا المقرر الذي كان يهدف عادة إلى حفظ الثلث الأخير من القرآن الكريم على مدى السنوات الست، ويلاحظ أنني وجيلي كنا أول من حضر النظام الجديد للتعليم الأساسي، الذي صارت فيه المرحلة الابتدائية ست سنوات، والإعدادية ثلاث سنوات، والثانوية العامة ثلاث سنوات، بدلا من التعليم الإلزامي الذي كان أربع سنوات، والابتدائي أربع سنوات، والتوجيهية خمس سنوات، وآخر سنة في التوجيهية - تعادل الثانوية العامة الراهنة - تؤهل للدراسة الجامعية.

### كان نحيفًا أبنوسي اللون:

كان سيدنا يقوم بتحفيظنا المقرر الرسمي في المدرسة، ونحفظ في بيته القرآن كله، وكنا في المسجد نستمع إليه يوم الجمعة وهو يتلو سورة الكهف تلاوة مجوّدة، ولم يكن يقرأ سورة الكهف دائمًا، ولكنه كان يقرأ من سور أخرى، بالإضافة إلى أنه كان يتلوه مجوّدًا في المعازي والأفراح، وصرنا نستمع إليه عندما ظهرت مكبرات الصوت، التي كان الناس يأتون بها لتضفي مهابة وفخامة على الحفلات والمناسبات المختلفة. وهو ما كان يحفر الآيات في أذهاننا، فضلا عن الآيات والسور التي كان يتلوها الإمام في الصلوات الجهرية، التي كنا نتابعها ونؤكدها في أذهاننا، وهو ما سهّل علينا عملية الحفظ ومتابعة السور والآيات المتشابهة، وخاصة تلك التي ترد في قصص الأنبياء.

سيدنا كان نحيفًا أبنوسي اللون، ووجهه يفيض بالرضا، وفمه لا يتوقف عن التلاوة إذا جلس وحيدًا، أو كان سائرًا في طريقه إلى المسجد أو المدرسة، أو كان عائدًا إلى البيت، ومع أن الله أكرمه بالقرآن حفظًا وتجويدًا؛ فقد كان معلمًا للقراءات لمن يقومون بالتلاوة في المناسبات المختلفة من الأجيال التالية له. وعلى الصعيد الشخصي، فإنه لم ينجب، فتبنى ولديْ شقيقه، ولعل هذا كان سر تفرغه للقرآن والرضا بقدر الله.

في السنتين الأخيرتين من المرحلة الابتدائية (الصفين الخامس والسادس)، كثيرًا ما كان يترك لي مهمة التسميع والتصحيح لزملائي التلاميذ، وفي بيته أيضًا كنت أقوم بدور العريف إذا ذهبت مبكرًا، وإذا تأخرت فإن الأمور تختلف، أيضًا لم أسلم من عصاه أو خيرزانته التي تلهب القدمين أو اليدين أو الجسم إذا كان الحفظ غير جيد أو "مكسّرًا".

لا ريب أن علاقة روحية قامت بيني وبينه، ظلت حتى رحيله إلى بارئه، وكنت قد جاوزت الخمسين عندما رحل وهو يناهز التسعين.

لقد رحل دون أن يجمع ثروة أو مالا. كان ما يتقاضاه من المدرسة مكافأة محدودة، وما يأخذه من الأوقاف نظير سورة الكهف كل جمعة مبلغًا صغيرًا، وما يأتيه في المناسبات التي يتلو فيها القرآن مجودًا دخلا غير ثابت، وفي كل الأحوال كان راضيًا قانعًا - رحمه الله.

**مدرسون أزهريون:**

مدرستنا كان فيها ستة أو سبعة من المدرسين، يقودهم الناظر الذي كان يدرس بعض الحصص للصفين الثالث والرابع (الرابع كان نهاية الدراسة الإلزامية)، معظم المدرسين كانوا أزهريين يلبسون العمامة والكاكولة، وبعضهم كان أفنديًّا، يرتدي الزي الإفرنجي وفوق الرأس طربوش، وكان أحدهم يرتدي جلبابًا صوفيًّا فخمًا مع الطربوش. بعد سنتين أو ثلاثة ازداد عدد المدرسين، وعندما انتقلت المدرسة إلى مبنى جديد بني على الطراز الأمريكي من ثلاث طبقات، يهتم بالإضاءة والتهوية والفناء والحديقة والحمامات والمسجد - فإنها كانت تضم فصولا كثيرة ومعملا وغرفًا للإدارة والمخازن والتربية الفنية والتربية الزراعية، وقد تغير طاقم التدريس تغيرًا كبيرًا؛ لأن المدرسة توسعت، وضمت إليها تلاميذ من قرية مجاورة، اسمها منية سلامة.

### جائزة سن الريشة:

أذكر أني في الصف الثاني حصلت على جائزة لا أنسى طعم الفرح بها مع مـرورو سـتة عقود. كان الناظر الحاج يوسف يشرح لنا بعض مـسائل الحـساب، وكنـت الوحيـد الذي استطاع الإجابة، وما كان منه إلا أن أخرج علبة ورقيـة صـغيرة مليئـة بمجموعـة مـن أسنان الريشة الصفراء. وكانت الريشة أداة الكتابة بالحبر، قبل اختراع قلم الحـبر. وكانـت المدرسة تضع على كل مقعد من المقاعد دواة مثبتة بسطح التختة، ويمرّ الفراش بـين يـوم وآخر ليزودها بالحبر من إبريق خاص.

الحاج يوسف كان سعيدًا وفخورًا وهـو يمنحـني سـن الريـشة الأصـفر أمـام تلاميـذ الفصل، ويعلن أن هذا جائزة تقديرًا لحل المـسألة. لا أدري – وقـد حـصلت على جـوائز كبرى بعدئذ – أن جائزة سن الريشة كان لها طعم جميل لم يتكرر بعد ذلك.

كانت المدرسة الأولى بلا فناء، وكانت الفـسحة الأولى (حـوالي ربـع الـساعة) تـتم في الشارع، وربما يجري أحدنا ليأتي بشيء من الطعام من البيت ويعود سريعًـا، فقـد كانـت البيوت قريبة إلى حد ما.

### مُدّ هذا الولد:

وأذكر بسبب هذه الفسحة، وأنا في الصف الثاني أنني ذهبت إلى البيت، فلم أجـد أمي، وجدتها عند جارتنا حيث كانت الجارات يجتمعن أمام الفرن للخبيز. طلبت منهـا شـيئًا من الطعام، وأن تسرع حتى لا أتأخرعن موعد الدخول بعد الفـسحة فـأتعرض للعقـاب، ولكنها أخذت تدللني بالكلام، وتتحدث عن زواجي بعروس تعبـيرًا عـن فرحهـا بي أمـام النساء؛ مما اعتبرته أمرًا غير لائق بي، فكررت طلب الطعام، واستمرت هي في التدليل؛ مما أغاظني وأغضبني وجعلـني أتلفـظ بكلمـات حـادة، وعـدت إلى المدرسـة دون طعـام، وانتظرت حتى موعد الفسحة الكبيرة، وكانت المدرسة توزع علينا التغذية، الـتي تتكـون من الخبز الأسمر وطبق صغير، فيه فول ومعه بيضة أو قطعـة مـن الجـبن، وأحيـان كانـوا يوزعون كيسًا صغيرًا من الفول السوداني، أو إصبعًا من الموز أو برتقالة.

عدت في نهاية اليوم إلى الدار. لم تعاتبني أمي، ولم تحدثني عما جرى أمام فرن الخبيز، وفي الصباح توجهت إلى المدرسة، وفي الحصة الثانية نادى مدرس الفصل الفراش (العامل)، وكان المدرس معممًا، وقال له: يا شيخ علي، مدّ هذا الولد، وأشار إليّ! نزل الكلام كالصاعقة، فقد كنت مقربًا من الشيخ ومن المدرسين بصفة عامة، وكانوا يستعينون بي في القراءة والكتابة وحل المسائل الحسابية حين يعجز بعض من هم أكبر مني في الصفوف الأعلى عن حلها. كان لدي إحساس أنني فوق الضرب والمؤاخذة، ثم لماذا أُضرب اليوم وأنا لم أقصر في واجباتي المدرسية؟ ثم إن الضرب مدّ على القدمين أمام الفصل كله؛ مما يعني أمرًا خطيرًا وجريمة كبرى. كنت حائرًا وتائهًا ومرتعدًا، ولم أنتبه إلا وقدماي ترفعان إلى أعلا، ويقبض عليهما الفراش الشيخ علي، والعصا تهوي بضراوة على قدمي، وعندما أوشك أن ينتهي قال لي: لا تشتم أمك!

**وعدها بتأديبي:**

جففت دموعي بعد صراخ ونحيب، وحاولت التغلب على آلامي، ولم أذهب إلى البيت في الفسحة الأولى – وكنا نسميها الفسحة الصغيرة – وبقيت في المدرسة حتى انتهى اليوم الدراسي، وعدت إلى البيت صامتًا لا أرفع رأسي، ولم أكلم أمي، ولا أحدًا من أفراد الأسرة، ورحت في نوم عميق!

عرفت بعدئذ أن أمي شكتني إلى الشيخ وهو في طريقه إلى المدرسة، وروت له أنني أهنتها أمام الجارات، فوعدها بتأديبي، وقد كان ..

كان المدرس الشيخ يحمل الثانوية الأزهرية، وكان يضرب به المثل في احترامه لأمه التي ربته وحيدًا بعد وفاة أبيه، وكان يذهب إلى النهر قبيل الفجر يحمل لها الماء في البلاص؛ لأنها عجوز لا تستطيع الذهاب إلى النهر، كما كان ينقل أحمال القش والحطب التي تخبز بها طول العام إلى سطح البيت، وكان دائم التردد عليها وهي وحيدة. يأتي من مسكنه في أقصى القرية إلى بيتها في أدناها، ويتابع أحوالها وحياتها.

كان الشيخ عبد الحميد يحفظ القرآن ويقرأ الكتب المتاحة خارج الكتب الأزهرية، وكان يجلس للدرس والوعظ في المسجد، وخاصة في شهر رمضان عقب الإفطار، وكثيرًا ما

كان يصعد المنبر ليلقي خطبة الجمعة، ويتقدم لإلقاء الكلمة في مناسبات العزاء والأفـراح والانتخابات التي عرفتها في الخمسينيات، وقد كان زواجه من ابنة إمام المـسجد عنـصرًا فعالا في تشجيعه على هذا النشاط الدعوي.

**كان يتلو القرآن:**

عندما كان يجلس الناس في طرقة المسجد بالـصيف أو في المـصلى عقـب أداء صـلاة الجماعة، كان الشيخ عبد الحميد يثير كثـيرًا مـن موضـوعات الفقـه والنحـو والتفـسير، ويشارك فيها الكبار والصغار ممن لديهم قدر من المعرفة، وكنت أشـارك وفـق طـاقتي ومـا حصلته بعد أن انتقلت إلى المرحلة الابتدائية (الإعدادية) بالأزهر، وكان يتلو القرآن على مسامعي كلما التقيت به بعد الصلوات، وأذكر أنه كان يأخذني في جولة، حيث نمضي معًـا في الشارع الذي يحيط بالقرية أو جزء كبـير منهـا، أرافقـه مـستمعًا لـسورة يتلوهـا على مسامعي، وأسعفه بما يغيب عنه من الآيات، ثم بعد أن تنتهي السورة الطويلة يطلب مني أن أتلو السورة التي بعدها، ويصحح لي ما أخطئ فيه، وأظل أتلو حتى تنتهي الجولة، التي غالبًا ما تكون عقب صلاة العصر.

كان الشيخ عبد الحميد أكثر زملائه المدرسـين نـشاطًا ثقافيًّـا إذا صـح التعبـير، وكان مولعًا بقراءة الصحف اليومية، وأذكر أننا بعد انتهاء الجولة عقب العـصر كنـا نتجـه إلى محل بيع قماش، كان صاحبه يأتي بجريدة الجمهورية يوميًّـا، فقـد كان يـشترك في التـأمين الذي تقدمه الجريدة مـن خـلال الاحتفـاظ بكوبـون تنـشره كل يـوم، ويقـدم مجمـوع الكوبونات كل شهر من أجل وثيقة يحتفظ بها، ولها مقابل عند الوفاة.

كنا نجلس في دكان القماش على دكتين صغيرتين متقابلتين ونتبادل الصفحات، ويشير هو إلى الخبر المثير أو المهم، وأفعل الشيء نفسه من وجهة نظري المحدودة.

**معرفة الأسعار والوفيات:**

كان ثمن الصحيفة قرش صاغ؛ أي عشرة مليمات، وهو مبلغ كبير في ذلك الحين، ولا يقدر على إنفاقه في جريدة يومية إلا نفر قليل من الميسورين والتجار والمتعلمين، ويقصد بهم الذين يعرفون القراءة والكتابة في الأغلب، وهم لا يتجاوزون عـدد أصـابع اليـدين.

منهم عمدة القرية وملاك أفدنة، وسمسار قطن وتاجر القماش، وكانت مهمة الجريدة بالنسبة لهم أنها وسيلة لمعرفة الأسعار والوفيات، وثمن الذهب والحوادث.

صداقتي القوية مع الشيخ عبد الحميد لم تنسني "العلقة" الساخنة، وأعترف أنني بعدها لم أقل لأمي كلمة حادة، وخاصة بعد أن صالحتني، وسمعتُ درسًا من الشيخ عن فضل الأم وواجب الأبناء نحوها، وظلت علاقتي بها - رحمها الله - حتى رحيلها قائمة على المودة والاحترام، فضلا عن كونها كانت "الترمومتر" الذي يكشف ما بي من آلام أو متاعب دون أن أتكلم.

**نموذج الطموح الجريء:**

الشيخ عبد الحميد نموذج للأزهري الطموح الجريء. لم يكن طموحه ماديًّا، ولكنه طموح معنوي. يتقدم في المناسبات للخطابة بقلب جريء، ويشارك في المناقشات بقوة، ويتطلع إلى المعرفة بجسارة وصبر.

ذات مرة جرت انتخابات مجلس الأمة (الشعب فيما بعد أو النواب وفقًا للدستور الجديد)، وكانت تسبق الانتخابات حملات المرشحين للدعاية. الدائرة الانتخابية التابعة لها قريتنا تشمل مركزًا إداريًّا كاملا، وتضم مدينة شبراخيت وقراها، وتختار نائبًا واحدًا، وكانت القرى تنحاز للمرشحين من أبنائها، كان المرشح الذي تؤيده قريتنا هو المحامي محمد حامد محمود، الذي وصل إلى درجة نائب رئيس وزراء في عهد السادات. صعد الشيخ عبد الحميد مع المرشح على دكة كبيرة وسط الناس وتحت شجرة زرعها جدي أمام المسجد، وبصوته الجهوري قال: بايعناك يا محمد تحت الشجرة! مستدعيًا بيعة الرضوان بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والأنصار. وقد حفظ له المرشح الذي فاز وارتقى في السلطة بعدئذ هذا الجميل حتى آخر العمر.

**صورة روتينية:**

على العكس من الشيخ عبد الحميد كان بقية المدرسين، يؤدون واجباتهم بصورة روتينية، وبعضهم لم يكن يدخل الفصل إلا لكتابة أسماء الغائبين، أو يكتب على السبورة ما ننقله في كراساتنا، وكفى الله المؤمنين القتال.

كان هناك مدرس كنا نسميه الأفندي الرويني، يرتدي طربوشا فوق جلباب صوفي. كان شديد الذكاء ويمسك دائمًا بيده مسبحة صغيرة، وكان خطه جميلا، لعله كان السبب مع أسباب أخرى في أن خطي صار جميلا، وكان يقضي معظم الحصة في الفصل ذهابًا وإيابًا يفكر، مع تحريك حبات المسبحة المميزة، وكثيرًا ما كان يقضي الحصة في مكتب الناظر.

لا حظت أنه لا يميل إلى الحركة داخل مجتمع القرية. كان له صديقان مقربان؛ أحدهما العمدة الذي ينتمي إلى العائلة. وكان نادرًا ما يشارك في مناسبات اجتماعية، ولكنه كان على علم بكل ما يجري في البلدة. وكان من القلائل الذين تأتيهم الجريدة اليومية بصفة منتظمة، فكان على وعي بالسياسة في مصر والعالم.

**المدرسون بين زمنين:**

كانت أجهزة الراديو في القرية آنئذ أوائل الخمسينيات محدودة، وهو ما جعل الصحف المصدر الأساسي للمعلومات، وأذكر أن واحدًا من أهل القرية، وكان يعمل في السمسرة مع تجار القطن، كان يأتي بجريدة "المصري" عند قيام الثورة (الانقلاب)، ويتجمع الناس حوله، وهو يقرأ عن خروج الملك فاروق وتنازله عن العرش، وقائد الانقلاب العسكري محمد نجيب والضباط الأحرار، وكنت أحاول أن أنظر إلى الصفحة التي يقرأ فيها، فألمح على رأسها العلم الأخضر الذي يتوسطه الهلال والنجوم الثلاث البيضاء، وهو ما علق بذاكرتي منذ ذلك الحين.

من بين المدرسين الشيخ سالم الذي كان يأتي راكبًا حمارًا من قرية الرحمانية المجاورة، وجاء بعده مدرس آخر في ثياب أفندي. وعندما كان يمران علينا ونحن نلعب على الجسر الجديد، وهما في طريقهما عائدين إلى قريتهما، كنا نرفع أيدينا إلى رءوسنا؛ تعظيمًا لهما. أما البنات فكن يضعن أيديهن على صدورهن توقيرًا واحترامًا. وظل الأمر كذلك بعد أن كبرنا وتركنا المدرسة الابتدائية، ولعل هذا ما يثير دهشة بعض القراء من الشباب الذين عاشوا مرحلة تبادل السجائر والمزاح مع مدرسيهم بعد انتشار الدروس الخصوصية، وانكسرت هيبة المدرس، الذي صار يعمل سائقًا، وقائد توك توك، ونجارًا، ومبيض محارة،

وصاحب دكان، وتاجرًا، ومقاولا، ولاصق بلاط، وبائع بوتاجاز، وسباكًا، وغير ذلك من المهن والحرف، التي كان لا يليق بمدرس الأمس أن يقترب منها أو يزاولها.

### تشكيلات فنية:

بعد انتقالنا إلى المدرسة في مبناها الجديد الواسع، جاءنا مدرس للتربية الفنية من خارج المنطقة حاسر الرأس، لا يرتدي طربوشًا، كان غير مسلم، ولكنه كان نشيطًا، وجعل للتربية الفنية غرفة كبيرة، وعرفنا منه معنى استخدام خامات البيئة في التشكيل الفني. كل ما تقع عليه العين من فضلات البيئة: فروع الأشجار، الحصا، الصفائح، العلب الفارغة، الفخار المكسور، أصداف البحر، قواقع النيل، القش، الحطب، الخردة، قطع الخشب الصغيرة، النشارة، المسابح غير المكتملة أو التي انفرط عقدها ... إلخ. كل هذا صنعنا منه، بقيادة الأستاذ وجيه - وهذا اسمه - تشكيلات فنية جميلة ذات قيمة، بعد أن كانت هملا ملقى على الأرض بلا قيمة.

وأذكر أنني أفدت منه فائدة كبيرة في كيفية إمساك القلم وبري القلم البسط، وطريقة رسم الجسم الإنساني وتشكيل الوجه. بيد أن أهم ما بهرني كان تصميمه لمحراب المسجد المدرسي، فقد قضينا في غرفة التربية الفنية بضعة أيام في حصص الفراغ لتصميم القبلة من الزخرفة النباتية، واستخدام ورق الزبدة – كما كان يسمى يومئذ – في نقل التفريعات والورود الصغيرة على المحراب بالقلم الرصاص أولا، ثم تلوينه بألوان زاهية ساطعة، وهو ما جعل للمسجد هيبة ورونقًا وجمالا، كان غائبًا عنه في شكله الذي انتهى إليه من بنوه ودهنوه.

سكن الأستاذ وجيه في قريتنا - على ما أذكر - ثم انتقل إلى مكان آخر، تاركًا ذكريات طيبة لم تكن قاصرة على الفن فقط، ولكنها امتدت إلى تنظيم مباريات كرة القدم والمسابقات المدرسية، والنشاط الممتد، الذي كان يتجاوز أحيانًا اليوم المدرسي إلى آخر النهار.

### نباتات أجنبية:

في المبنى الجديد للمدرسة عرفنا الزراعة وأنواعًا أجنبية من النباتات، وكان ناظر المدرسة الحاج يوسف، يقضي معنا أوقاتًا غير قليلة في زراعة الأشجار المستوردة، وتقليم

الأشجار القائمة، ورعاية الزهور، ومتابعة عملية الري. وكانت للمدرسة طلمبة نحرك ذراعها لتملأ الخزان الذي يعلو سطحها. ومن مياه الخزان نتوضأ في المسجد، ونروي الأشجار أو الحديقة التي كانت تشكل مربعًا يحيط بالمبنى والملعب، وقد ترك الناظر بعض المساحات لزراعة بعض المحاصيل مثل الذرة والقمح، وهي تتسق مع دروس التربية الزراعية التي جاء أحد المدرسين من محلة بشر ليدرسها. ومحلة بشر قرية تشبه قريتنا حيث تطل على النهر بصورة ما، وإن كانت أقرب إلى الترعة، ومعظم بيوتها في الجانب المؤدي إليها، وتبعد عن قريتنا بنحو ستة أو خمسة كيلو مترات .. كان الرجل يرتدي طربوشًا فوق جلباب صوفي يبدو متربًا ومكسرًا، وكان كبير السن بالنسبة للمدرسين الآخرين، وعرفنا أنه لم يتزوج، وكان ينتمي إلى العائلة الكبرى في قريته. حصته كانت مفعمة بالحركة والنشاط داخل مزرعة المدرسة وحديقتها، ثم إن إنشاء منحل فوق سطح المدرسة، جعل الحيوية تزداد؛ فقد أنتج المنحل عسلا أبيض، كنا نراه لأول مرة، ويختلف عن العسل الأسود، الذي كنا نشتريه من دسوق في بلاليص أو جرار، وكان يمثل بديلا عن الوجبات المطبوخة، وخاصة إذا تم غمسه بالخبز الساخن، الخارج توًّا من الفرن، أو الفطير المصنوع من الذرة أو الرقاق.

**عسل النحل:**

لقد صار المنحل حدثًا مهمًّا في القرية؛ إذ إن الناس كانوا يترقبون قطف العسل مرتين في العام، وكانوا يشترون الأقة من العسل بخمسة قروش، وهو مبلغ كبير في ذلك الحين، وقد شغلنا منظر العامل الذي كان يرتدي ثوبًا فضفاضًا، لونه أبيض، خاصًّا بالمنحل، وكان مزودًا بقناع من شبكة سلكية، وفي طرف الذراعين ما يشبه القفاز على يديه؛ ليحميه من لدغ النحل، وكنا نقف على بعد؛ لنرى كيف يغذي العامل الخلايا الخشبية أو ينظفها؛ مبهورين بهذا الأمر الجديد الذي دخل إلى القرية، فقد كنا نسمع عن عائلة في قرية مجاورة، تملك منحلا طينيًّا، وتبيع العسل لبعض العائلات الميسورة، ولكننا لم نره أو نتذوقه إلا بعد أن جاء المنحل إلى مدرستنا.

لقد ظل المنحل سنوات طويلة، ولا أدري هل بقي قائمًا حتى الآن؟ أم ذهب مع الأشياء التي ذهبت؟، فقد مضى ما يقرب من ستين عامًا على تأسيس المدرسة وإنشاء المنحل، وقد تغيرت أشياء كثيرة في شكل المدرسة ومبناها؛ فقد تحول - في العقود الأخيرة - مربع الحديقة والمزرعة إلى مدرسة ابتدائية أخرى، ومدرسة إعدادية، وضاقت الأرض بما رحبت، وبعد أن كانت المدرسة تقف شامخة وسط الأرض الزراعية الخضراء الشاسعة، أحاطتها المباني الخرسانية الكالحة، التي أتت على الأرض الزراعية المحيطة، فلم يبق منها سنتيمتر أخضر.

### مناسبات خاصة وعامة:

على كل حال، بقي المبنى قائمًا منذ إنشائه، يلتقي فيه أهل القرية في المناسبات ذات الخصوصية العامة، فهو مكان اللجان الانتخابية والاستفتاءات. بدءًا من انتخابات المجالس التشريعية والمحلية والرئاسية، إلى انتخابات العمودية، والجمعية الزراعية، والحزب الوطني المنحل.

وقد أتيح للشباب - لأول مرة - أن يقيموا في المدرسة ناديًا صيفيًّا؛ حيث استطاعوا أن يحصلوا على أحد الفصول ليكون مركزًا لهم، يضعون فيه دولابًا للأدوات الرياضية، حيث يمارسون ألعابهم في كرة القدم والطائرة في فناء المدرسة الفسيح أيامئذ، أما كرة الطاولة أو البنج بونج، فقد كانت تمارس في الفصل ذاته الذي عرف بمركز الشباب، وكان هناك دولاب آخر لبعض الكتب؛ حيث كان يسمى مجازًا مكتبة، فقد أحضرالشباب ما لديهم من كتب؛ لتكون وديعة حتى نهاية الصيف، ويتبادلها من يحبون القراءة في أثناء الإجازة، وكانت هناك فرصة لعمل صحف حائط، تتضمن مقالات إسلامية واجتماعية وأدبية، وغيرها.

### مسرحيات فكاهية:

واستطاع بعض الموهوبين في التمثيل أن يقدموا بعض المسرحيات الفكاهية في الحفل الختامي للإجازة الصيفية، وهي مسرحيات أقرب للاسكتشات التي كانت تقدم على

المسارح التجارية، في صيغة شعبية مقبولة، وكانت تقابل بكثير من الترحيب، وخاصة من الفلاحين الذين لم يتح لهم الذهاب إلى المسارح في القاهرة أو الإسكندرية، وإن كان بعضهم يرى شيئًا منها في المولد الدسوقي السنوي، حيث تأتي التياترات الشعبية من القاهرة والإسكندرية، وتعتمد - فيما تقدمه غالبًا - على الرقص، إلى جانب بعض المشاهد الاستعراضية الفكاهية والنكت.

كانت مشكلة الشباب المسرحية ظهور امرأة في مسرحياتهم، وكان بعضهم يتشجع لأداء دور امرأة، ولكن الأمر كان محرجًا للآخرين، وخاصة إذا تهامس بعضهم بكلام غير طيب حول الشكل والأداء.

### محاولات لكتابة المسرحية:

رحم الله الزملاء الموهوبين الذين بذلوا جهودهم في تقديم المسرحيات القصيرة على مسرح نهاية الإجازة، وأذكر أنني حاولت فيما بعد - عندما قاربت سن العشرين - أن أقدم مسرحية مع زميل لي، من تأليفي وتمثيلي، ولكنها فشلت فشلا ذريعًا مع نبل هدفها؛ ولذا لم أحاول أن أكرر الأمر مرة أخرى، وإن كنت قد كتبت في وقت لاحق مسرحية رمزية بأسلوب شعري مكثف، ولكن صلاح عبد الصبور رفض نشرها عندما كان رئيسًا لتحرير مجلة الكاتب في السبعينيات، فأقلعت تمامًا عن الكتابة للمسرح.

لا أعلم أين ضاعت مني المسرحيتان، وكانت المسرحية الثانية قريبة إلى نفسي، وكنت حريصًا على الاحتفاظ بها، فضلا عن أنني كنت في ذلك الزمان حريصًا على الاحتفاظ بكل حرف أكتبه!

### مسابقات رياضية:

قبل تقديم الحفل المسرحي الليلي، كان الشباب يقيمون مسابقات رياضية في فناء المدرسة بعد صلاة العصر، تشمل التنافس في الكرة الطائرة وكرة القدم في مباريات قصيرة الوقت، وسباق الجري، وسباق الدراجات البطيء، بالإضافة إلى ألعاب أخرى، تقوم على قياس درجة التحمل والاستيعاب والتركيز.

إنه يوم مشهود بلا ريب، يُخرج الناس في القرية من حياتهم اليومية الروتينية، فضلا عن أنه - بالنسبة للفائقين علميًّا - كان يومًا مشهودًا، حيث كانت توزع عليهم جوائز رمزية، بدءًا من المسطرة المعدنية والكراسات، إلى قلم الحبر وكرة التنس، ونحو ذلك.

**دور مهم:**

يجب أن أشير إلى دور مهم قام به واحد من أهل القرية، كان يعمل مدرسًا للتربية الرياضية في مدارس دسوق، التي تقع على الضفة الأخرى من النهر، وتمثل المدينة الأم في المنطقة. كان الرجل يعمل - قبل تعيينه في التربية الرياضية - متطوعًا في الجيش، ثم انتقل إلى العمل في مباحث الشرطة، وقد أفاد من عمله بالتربية الرياضية في تشجيع بعض أبناء القرية على الالتحاق بالتعليم العام، وتشجيع الشباب في مجالات الرياضة والعمل العام.

استطاع أن يُدخل عددًا من الأبناء في المدارس الابتدائية (الإعدادية فيما بعد)، والدراسة في التعليم الثانوي العام، والتعليم الفني، كما كان يتوسط لهم في عملية دفع المصروفات، سواء بتخفيضها أو تقسيطها أو الإعفاء منها وفقا للظروف الاجتماعية، وكان منظر هؤلاء وهم في طريق العودة - يركبون القارب الشراعي، ويرتدون الطرابيش فوق ملابسهم الإفرنجية المتواضعة، ويحملون حقائبهم الجلدية - يثير فينا نحن الأصغر سنًّا كثيرًا من المشاعر التي تجمع بين الدهشة والفرح، والرغبة أن نكون مثلهم.

كان الرجل لديه خبرة جيدة في إقامة المهرجانات الرياضية، وقد استطاع أن يشجع شباب القرية على إقامة المهرجان السنوي الرياضي والفني في آخر الإجازة بالنادي أو مركز الشباب، وكانت خبرته توفر كثيرًا من الجهود، وخاصة بعد أن صار له أبناء يشاركون الشباب في أنشطتهم.

ولعل نشاط الرجل كان من وراء تكوين شعبية كبيرة له فيما بعد، حيث وصل إلى المركز الثاني في انتخابات الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي. وهي انتخابات حكومية صورية، لا تعبر عن انتماء سياسي، بقدر ما تشير إلى قبول الشخص شعبيًّا أو قدرة عائلته على التأثير الاجتماعي في القرية. وكان يحدثني عن اشتراكه في جماعة الإخوان المسلمين، وكيف اعتقل بعد انقلاب عبد الناصر عام **1954** على الديمقراطية، واعتقاله لمحمد نجيب أول رئيس للجمهورية في مصر.

### الولاء للنظام:

بيد أن المسألة بالنسبة له لم تنته عقب نجاحه في الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي، فقد كان هناك تنظيم سري شكله عبد الناصر ليكون مواليًا له ومرتكزًا يتكئ عليه في المواقف الصعبة، وهو حزب الطليعة الاشتراكية، أو ما أطلق عليه التنظيم الطليعي، وهو حزب سري، كانت تتشكل معظم قياداته من الشيوعيين الذين خرجوا من المعتقلات لدى زيارة خورشوف إلى مصر عام 1964، وتم تمكينهم من الأجهزة الإعلامية والصحافة والثقافة، والمناصب السياسية والإدارية والاجتماعية.

كان أحد أقارب الرجل عضوًا بهذا التنظيم، وكي يثبت ولاءه للنظام كتب تقريرا في الرجل الذي يعد في مكانة أبيه؛ حيث أشار إلى علاقته القديمة بالإخوان المسلمين قبل انقلاب يوليو 1952؛ مما سبب له متاعب عديدة؛ حيث استدعي إلى الجهات الأمنية المرعبة، ولولا قدرته على التحمل، ومواجهة هذه المواقف الصعبة - بحكم عمله في الشرطة والجيش - لانهار تمامًا، ولكنه استطاع عبور المحنة، ولا أنسى الدمعة التي تحدرت من عينه وهو يحكي ما جرى ممن كان يعده ابنًا له! ولكنها طبيعة النظام القمعي الإرهابي.

### نموذج للكفاح والعصامية:

يذكر أن الرجل يمثل نموذجًا للكفاح والعصامية، فهو ينتمي إلى الأسرة الكبيرة الغنية في القرية، وبسبب خلافات أسرية وجد نفسه وحيدًا يواجه الحياة والمستقبل، مع أنه يملك أرضًا موروثة، فكافح من خلال عمله بالجيش والشرطة والتعليم، واستطاع أن يبني أسرته الصغيرة، ويعلم أولاده، ولاحظت أنه كان من الناحية المادية حريصًا في الإنفاق، وكان يوفر كل مليم يمكن توفيره في هذه الأيام، ولا بأس لديه أن يوفر قرشًا ويمشي مسافة طويلة، بدلا من ركوب السيارة الأجرة، وفي أفضل الأحوال - بالنسبة له - قد يركب عربة كارو في طريقه إلى المدينة، بدلا من سيارة الأجرة ليدفع هنا نصف ما يدفعه هناك. بالإضافة إلى أنه كان حريصًا على الإفادة من أرضه الزراعية إلى أقصى حد ممكن، فقد كانت المساحة غير المؤجرة يزرعها بنفسه وأولاده، وقد نجا من عملية الإيجار التي

حولت الأرض المؤجرة إلى أرض مملوكة للمستأجر، يتقاضى عنها صاحبها مبلغًا تافهًا لا يسمن ولا يغني من جوع. ولعله حرر جزءًا غير قليل منها، ثم ركز كل جهده على شراء كل ما يمكن شراؤه من مساحات تعرض للبيع حتى صار أفضل من بعض أقاربه من حيث مساحة الملكية التي في حوزته، وهو ما يفاخر به الناس في الريف، فمن يمتلك أرضًا أكثر يحصد مركزًا اجتماعيًّا متقدمًا على من يملك مساحة أقل.

**رجل عملي:**

كان له حيوانات، وبيته مليء بالطيور الداجنة، وكانت منتجاتها من بيض وأفراخ مع الألبان والجبن والزبد، يبيعها في المدينة؛ كي يضمن سعرًا أفضل، وبعدًا عن عيون الفضوليين والحساد، بالإضافة إلى أن احتياجاته المنزلية تأتي في معظمها من داخل البيت، فلا يحتاج من خارجه إلا للضروريات التي لا يمكن إنتاجها منزليًّا. وفي الوقت نفسه كان براجماتيًّا (عمليًّا)، فلا يسعى إلى البهرجة أو المظهرية، حيث لا يتعامل إلا مع كل ضروري ولازم. ولم يمنعه ذلك من المفاخرة بأصوله وعائلته والانتساب إليها، بوصفه واحدًا من كبار القرية، بل إنه يبادر إلى مشاركتها في المناسبات السارة والحزينة مثل أي واحد منها، وإن كان في جلساته الخاصة يُصْلي أفرادها بانتقاداته اللاذعة التي لا تترك فيهم صغيرة ولا كبيرة، وهم بالمثل كانوا يردون له الجميل، ولكن ذلك كان يتم همسًا في آذان الأصدقاء والمقربين، ولكنهم جميعًا حريصون على أن يظهروا في الصورة الخارجية أمام الناس، وخاصة أمام العائلة المنافسة يدًا واحدة.

**المبنى الجديد:**

انتقلنا إلى المدرسة في مبناها الجديد في النصف الثاني من السنة الدراسية. كنت في الصف الثالث الابتدائي، وقد ارتبط هذا الانتقال بحدثين مهمين غير سارين؛ الأول هو احتراق بيتنا حريقًا هائلا. كنا في الربيع وكانت رياح الحسوم سريعة وقوية، وعندما عدت من المدرسة قبيل العصر، رأيت دارنا تلتهمها النار العالية، والقرية انقلبت كلها هناك رجالا ونساء، الرجال يطفئون النيران، ويلقون عليها بلاليص المياه والحلل والأواني التي تملؤها النساء من النهر، وبعضهم يمسك بعصي طويلة، ويضرب النيران لإطفائها،

ولكن الريح كانت تغالبهم، وهنا كانت تظهر بطولات غير عادية، حيث رأيت بعضهم يقذف بنفسه في قلب النار لإخراج محاصر، أو إنقاذ شيء من الأثاث.

كانت حركة الناس - دفاعًا عن البيت ومحتوياته - في غاية القوة والسرعة. استمرت المقاومة نحو الساعة، وبعدها بساعة جاءت سيارة المطافي بصوتها المميز، ولكنها لم تجد حريقًا. وجدت آثار الحريق، فأخذوا أبي لعمل محضر، وكان عمدة القرية حاضرًا، فأملى العسكري المختص صيغة معينة، تشير إلى إهمالٍ ما تسبب في الحريق، وكانت الغرامة نحو ربع جنيه، أي خمسة وعشرين قرشًا.

### كيف اشتعل الحريق؟

لم يكن لأبي يد في الحريق. كان البيت يضم أبي وشقيقيه وجدتي لأبي. كل أسرة تسكن بمفردها منعزلة عن الأخرى. أبي وأمي وأخي أسرة، وعمي وزوجه وابنه وابنته في أسرة، وجدتي مع عمي الأصغر في أسرة. رحمهم الله جميعًا.

كانت ابنة عمي - وهي أصغر مني سنًّا - تحمل لمبة شعلة، أي مكشوفة. راحت تشعلها لأمها من عند جدتي، ومشت بها على سلم وهي مشتعلة، فوصلت النار إلى بعض قش الأرز المتدلي من السقف، فاشتعل السقف، وامتدت ألسنة اللهب سريعًا لتصعد إلى أعلى الدار كلها، وكان المنظر المروع الذي ما زال محفورًا في ذهني حتى اليوم، وأثبت أن أهل القرية أقوى من سيارة المطافي التي تأتي متأخرة دائمًا، وأسرع منها وأكثر شجاعة.

في السبعينيات احترقت دار الأوبرا المصرية، التي أنشئت في عهد الخديو إسماعيل في قلب القاهرة، وكانت تحفة معمارية وفنية، والمفارقة أن مطافي القاهرة الرئيسة بميدان العتبة كانت ملاصقة لها، ومع ذلك لم تتحرك المطافي إلا بعد أن أتت النيران على الأثر المعماري الفني الفريد!

### جدتي لأبي ترحل:

الحدث الثاني الذي ارتبط في ذهني بالانتقال إلى المبنى الجديد للمدرسة، كان لدى عودتي في الفسحة الكبيرة بعد الظهر أحد الأيام إلى البيت، لأجد تجمعًا ملحوظًا من الرجال بالقرب منه، وآخر من النساء أمام بابه. كان السواد والصياح يثير لديَّ مشاعر

الانقباض والحزن والقلق والاضطراب. وكان منظر النعش الموضوع بجوار الحائط يرعبني. لم أعرف من الذي مات إلا عندما اقتربت من الحارة. عرفت أن جدتي لأبي قد توفيت فجاة. كنت قد رأيتها في الفسحة الأولى الصغيرة عند مجيئي من المدرسة. كانت بصحة جيدة، وتجلس أمام الباب، وتكلم النساء من الجارات. قالوا إنها تعبت فجأة وهموا بإرسالها إلى طبيب، ولكن الله استرد وديعته بعد وقت قليل.

لم أنس هذا اليوم؛ فقد فجعت برحيل من أحبتني، ومن تدافع عني أمام أبي، وتحتفظ لي بما تأتي به من أطايب الطعام والثمار بمفهومنا في ذلك الزمان، وكانت تحرص أن أشاركها العشاء أو الإفطار عندما يكون عمي الأصغر مسافرًا. بكيت من أجلها كثيرًا، وحزنت عليها حزنًا عظيمًا، ومع أن الحياة استغرقتنا، وأخذت تطوح بنا في كل اتجاه، فلم أنس هذه الجدة الحنون الطيبة، التي هددت والدي ذات يوم عندما أراد أن يضربني؛ لسبب لم أعد أذكره، بأنها ستأخذني وتترك له البلد وما فيها ولن يرانا بعدئذ. فضحك وتركني، وانتهت مشكلة كانت كبرى بالنسبة لي؛ بفضل هذه الجدة الطيبة!

### مجموعة صحية:

في المرحلة الابتدائية بعد الصف الرابع تقريبًا، كانت هناك - فيما أذكر - حملات صحية لمعالجة الإصابة بالإنكلستوما والبلهارسيا، وكانت الحكومة قد أنشأت في قرية الرحمانية المجاورة مجموعة صحية (مستشفى صغيرة) لمعالجة الأمراض المتوطنة، ومنها البلهارسيا والإنكلستوما، مع عيادة خارجية لمعالجة الأمراض الطارئة والعيون والإسعافات الأولية. وكان علاج الإنكلستوما يتم عن طريق شربة الزيت، وهي سائل شديد المرارة ومقزز، وكانت آثاره مزعجة، وتستمر حتى تفرغ البطن مما فيها بعد يوم كامل. أما البلهارسيا فكانت تعالج بحقن الطرطير، وهي حقن مثيرة للقيء، ويقال إنها سبب نشر الإصابة بفيروس سي؛ لأن الإبرة التي يحقن بها الطبيب الطرطير كانت تنقل العدوى؛ بسبب انتقالها من ذراع إلى ذراع دون غليان يطهرها. لم تكن إبر البلاستيك التي تستخدم مرة واحدة قد اخترعت بعد.

ومع ذلك فقد كان الناس كبارًا وصغارًا رجالا ونساء يتزاحمون على المجموعة الصحية، وأذكر أن الطبيب الذي كان يدير المستشفى استخدم عصا خيرزان طويلة؛ ليضمن هدوء المترددين على المجموعة، ويتمكن الموظف المختص من توزيع تذاكر العلاج.

المجموعة الصحية تحولت الآن إلى مستشفى مركزي، ولكن ما زال العلاج الجيد مرهونًا بمن يملك ثمنه .. أما الفقراء فلهم الله .. يجدون أحيانًا طبيبًا طيبًا يساعدهم، وفي الغالب لا يجدون إلا الطبيب التاجر الذي يعطي الأولوية للعمل في عيادته الخاصة.

**صيام رمضان:**

وفي الصف الخامس بدأنا نتنافس في تجربة صيام رمضان؛ لكي نشعر بالرجولة ومشاركة الكبار. كان رمضان في هذه الأيام يأتي صيفًا، وكان النهار طويلا. ولكننا كنا نصر على الصيام. وأذكر أنني في هذا الصف صمت خمسة عشر يومًا كاملة، ولما بدا الإجهاد والضعف على شكلي؛ بسبب بنيتي الضعيفة، طلب مني أبي أن أفطر، وأيدته أمي وبعض المدرسين الذين كانوا على صلة به.

وفي الصف السادس صمت نحو عشرين يومًا، وعند دخول الأزهر صمت الشهر كاملا، والآن في أواخر العمر أجد راحة كبيرة في صيام النوافل، حيث صرت لا أتناول غير وجبتين بسيطتين على مدى اليوم والليلة.

كان يفرحنا في رمضان شراب قمر الدين والزبيب والتمر، وكان السحور عادة جميلة، وخاصة أنه كان مرتبطًا بأكل الكنافة والقطايف، وهي عادات لما تزل موجودة حتى أيامنا، وكنت لا أتصور أحدًا من الكبار مفطرًا .. اندهشت في طفولتي حين شاهدت بعض قريباتي يتناولن الطعام في رمضان، وعرفت السبب حين وصلت الصف السادس أو دخلت الأزهر.

لكني فجعت حين كبرت قليلا وزرت بعض الصحف الكبرى بالقاهرة في رمضان، فوجدت معظم من فيها آنئذ يدخنون ويشربون الشاي في مكاتبهم رجالا ونساء، ولا يخجلون مما يفعلونه! وإن كان الأمر قد تغير إلى حد كبير فيما بعد، حيث رأيت الصلاة تقام بعد رفع الأذان في الصالات والطرقات، وكثرة غالبة من المحررات والعاملات يرتدين الحجاب.

**نظام جديد:**

كانت الدراسة في المرحلة الابتدائية على أيامنا الأولى تنتهي في الصف الرابع، ولكن النظام الجديد جعلها تنتهي في الصف السادس، وفي الصف الخامس سمحوا لطلابه أن يلتحقوا بالصف الأول الإعدادي .. المرحلة الإعدادية لم تكن موجودة من قبل .. كان التعليم يشمل ثلاث مراحل: الإلزامي، الابتدائي، الثانوي أو التوجيهي. بعد انقلاب يوليو 1952 غيروا التقسيم، فكان هناك الابتدائي ثم الإعدادي ثم الثانوي. وكنت من الذين شهدوا المرحلة الانتقالية وبدء النظام الإعدادي، الذي يسمى في بعض البلاد العربية بالمتوسط. ومع أني كنت مهيئًا لدخول الإعدادي والنجاح في امتحان القبول، إلا أنني لم أكن مستريحًا إليه .. كنت أريد دخول الأزهر؛ فقد أتممت حفظ القرآن الكريم، وكان مستواي في الإملاء والحساب فائقًا بالنسبة لأقراني، والمشكلة التي وقفت أمامي كانت السن، فقد كنت أصغر من السن القانونية للقبول وهي الثانية عشرة. كنت أحتاج آنئذ لبضعة شهور كي يحق لي الالتحاق بالقسم الابتدائي الأزهري أو المعهد الديني. كان لي زميل في الفصل أصغر مني بشهور استطاع أبوه وهو من مدرسي المدرسة أن يلحقه بالأزهر، عن طريق عمل شهادة تسنين عند الطبيب؛ بوصفه ساقط قيد أو من مواليد البادية، حيث كانوا لا يقيدون أولادهم في السجلات الحكومية.

لم أعرف بالقصة إلا بعد أن رأيت زميلي يرتدي العمامة والكاكولة وينزل إلى مركب الطلبة ذاهبًا إلى المعهد الديني في دسوق .. تأثرت لهذا الأمر .. كانت أمنيتي أن أكون مع زميلي هذا الذي سبقني بعام في الأزهر، ولكن بعض من أعرف من الكبار هونوا عليَّ المسألة، وقالوا سنة من سنة قريبة، لا تحزن ولا تبتئس. وقضيت العام في الصف السادس أعيد القرآن تلاوة وحفظًا، وأستعد لامتحان القبول في الأزهر، وكان العرض بدخول المدرسة الإعدادية في الرحمانية المجاورة لنا ما زال قائمًا، ولكني فضلت الانتظار حتى نهاية العام، وحصلت على استمارة انتساب إلى الأزهر الشريف، ودخلت امتحان القبول مع مجموعة من زملائي في القرية وكنا نحو عشرة.

**امتحان القبول:**

كان المعهد الديني بدسوق يتكون من قسمين؛ الأول القسم الابتدائي (يساوي الإعدادي الآن)، ويقع في داير الناحية، وهو قريب إلى حد ما من المسجد الإبراهيمي،

وكان شبه قصر مملوك لإحدى العائلات الكبيرة في دسوق، ويستأجره الأزهر لطلاب الابتدائي. القسم الثاني هو الثانوي، ويقع في ضاحية المدينة أو على أطرافها حينئذ، وهو أيضًا مبنى كبير بالإيجار، يتكون من دورين، وكانت فصوله كبيرة واسعة، وعالية الحوائط.

بعد التخرج في المعلمين

كان امتحان القبول للقسم الابتدائي في المعهد الثانوي، ذهبت مع أبي في الصباح الباكر، عقب صلاة الفجر .. تحرك بنا القارب الشراعي في النيل نحو المدينة، ووصلنا في السابعة تقريبًا .. كان عدد غفير من الطلاب مع آبائهم وأقاربهم ينتظرون الدخول إلى الامتحان. وكان هناك امتحان شفهي وآخر تحريري، وكان الطلاب يتهامسون أن هناك شيخًا اسمه أبو الوفا الصعيدي من المتشددين في امتحانات الشفهي – أي القرآن الكريم – ونادرًا ما ينجح أحد من الذين يقعون أمام لجنته.

**الرجل المخيف:**

المفارقة أنني حين دخلت اللجنة رأيت من بعيد شيخًا من قريتنا يجلس مع الرجل المخيف، وحين نودي عليَّ جلست أمام الشيخين، وإذا بالشيخ الذي من قريتنا يلتزم الصمت، وسألني الشيخ أبو الوفا أسئلة عديدة في القرآن الكريم وكنت أقرأ، ولاحظ الرجل أنني لا أخطئ، فأكثر من الأسئلة في المواضع التي كنا نعدها صعبة في الحفظ، ولكني بحمد الله أجبت وقرأت دون خطأ واحد. كان الذهن أيامها صافيًا والقلب خاليًا. بعد أسئلة القرآن الكريم سألني الشيخ الذي من قريتنا عن أبي وأسرتي، وبعض الأسئلة في الحساب، وكانت إجابتي سليمة، وتركت الرجلين بعد أن طلبا مني الانصراف، وسمعت الشيخ أبا الوفا وأنا أمضي يقول لي: فتح الله عليك يا سي الشيخ!

تعجب الزملاء من امتحاني أمام الشيخ أبي الوفا، وتوقع الجميع أن شيئًا ما غير مريح سيحدث لي، ولكنني كنت أتعامل مع الأمر ببساطة.

دخلنا امتحان التحريري في اليوم التالي، فأجبت في الإملاء والحساب إجابة سليمة، واستطلعت رأي بعض المدرسين في الإجابة عقب وصولي إلى القرية، فأكدوا لي صحة الإجابة، وبعد أيام جاءت النتيجة مبشرة، فقد حصلت على أعلى الدرجات في الشفهي والتحريري؛ وبذا كنت أول المقبولين في القسم الابتدائي.

### حدث غير عادي في القرية:

حكى الشيخ الذي من قريتنا لأهله والمقربين عما جرى في الامتحان الشفهي. أشاد بي أمامهم، وكان يقارنني ببعض زملائي الآخرين من القرية، وأخبرهم أن الشيخ أبا الوفا أصر على منحي أعلى درجة في الشفهي دون أن يأخذ رأيه، فقد كان أكبر منه سنًّا وأقدم تخرجًا.

بالطبع كان نجاحي وتفوقي حدثًا غير عادي في القرية؛ ليس لأنني من أعيانها أو نجومها، ولكن لأنني ابن رجل فقير لا ينافس أحدًا على أرض أو منصب اجتماعي. كان بعضهم يتساءل: كيف حقق هذا الولد ذلك النجاح المتميز، بينما غيره أخفق في مجرد النجاح والدخول إلى الأزهر؟ وكان هناك من فرح للغاية بنجاحي وتفوقي، وهناك من شعر بالغيرة؛ لأنه كان يريد أن يحقق تفوقًا ولم يستطع، وفي كل الأحوال فقد كان هذا الحدث نقطة تحول كبيرة في حياتي.

سعد أقاربي بالنجاح وباركوا لي، وتلقيت التهاني من كثيرين، فضلا عن أبي وأمي. وإذا عرفنا أن مسألة التعليم في ذلك الحين كانت محدودة، ومن يلتحقون بالمدرسة أو المعهد بعد المرحلة الابتدائية معروفون، ويمكن عدهم على أصابع اليد الواحدة، فالتحاقي بالمعهد الديني كان يمثل حالة بارزة وخاصة إذا كان هذا الالتحاق مقرونًا بالتفوق على جميع الطلاب من البلاد المجاورة كافة.

### بداية مرحلة جديدة:

وكان من الطريف أن يحضر فراشو المعهد بشهادة النجاح لكي يتلقوا البشارة أو الحلاوة، فيلقونها متواضعة جدًّا، فيقولون لأبي: إن ابنك الأول، ويجب أن تكون الحلاوة كبيرة ومتناسبة مع النجاح، فيضحك ويقول لهم مشيرًا إلى القطعة المعدنية التي يضعها في كف أحدهم: في هذه بركة إن شاء الله. وبعد أن يشربوا الكازوزة ينصرفون وهم

راضون؛ فهم مدركون للأحوال والظروف، وهم يشعرون أنهم يعوضون التقصير الذي لدينا من الناجحين الآخرين.

الالتحاق بالمعهد الديني كان بداية مرحلة جديدة، وأفقًا جديدًا يتفتح أمامي، كما كان واقعًا جديدًا فرض التزامات مادية ومعنوية، ورتب طريقة للحياة والعمل. وهو ما جعلني أشعر بمسئولية أكبر من ذي قبل، فقد كنت طوال المرحلة الابتدائية أشعر أن الأمور بسيطة، وأن ما أطلبه من أبي وأمي أشياء بسيطة تتحق غالبًا، ولكن هذه المرحلة كانت تتطلب أشياء ليست بسيطة، ومع وعيي بالواقع وإحساسي بالمسئولية، وإدراك قدرات الأسرة وإمكاناتها، صرت في قلب المسئولية كما يقولون، وأصبحت رجلا قبل الأوان، وخاصة أن أبي وأمي لا يبخلان بشيء يملكانه، ويغرقاني في بحر من الحب والعطف، فأنا ابنهما الأول قبل كل شيء.

* * *

## 6 - الأزهر المعمور

**العمامة والكاكولة:**

اقتضت عملية الدخول إلى المعهد الديني أمرين ضروريين؛ الأول تجهيز الزي الأزهري، والآخر شراء الكتب الدراسية ..

بالنسبة للزي الأزهري، يحتاج الطالب إلى عمامة وكاكولة. العمامة تتكون من طربوش وشال، والكاكولة عبارة عن ثوب يتسع كلما نزل من الكتفين حتى يصل إلى أقصى اتساع في الذيل فيما يشبه المخروط، وهو من الصوف مبطن بالساتان ومفتوح من الأمام، ويغلق بصف من الزرايز العريضة، وله جيوب داخلية وخارجية.

أمر العمامة كان هينًا؛ فالشال ثمنه محتمل، وأذكر أنه كان يقترب من الخمسة عشر قرشًا، وهو عبارة عن من متر من النسيج الأبيض الناعم، ويحتاج إلى عشرة قروش أخرى ليقوم أحد مشايخ القرية المدربين على برم الأطراف أو الشوارب، وعقدها بحيث تحافظ عليه من التفكك، وتمنحه منظرًا جميلا.

أما الطربوش فقد كان متاحًا .. كان خالي يملك عدة طرابيش يتركها احتياطيًّا عند أمه (جدتي)، وكان يرتديها أو يبدل في ارتدائها عندما يحضر في إجازته، وكانت خالتي تذهب بها إلى الطرابيشي في دسوق؛ كي يكويها بعد تنظيفها لتليق بخالي وهو صاحبها الذي يرتديها. في الفترة التي قُبلت فيها بالأزهر كان ارتداء الطرابيش قد بدأ يقل عند الأفندية؛ حيث عدّته حركة يوليو الانقلابية من آثار العهد البائد الذي ينبغي القضاء عليه، وكان خالي - يرحمه الله - ممن خلعوا الطربوش بعدئذ، ومشى حاسر الرأس ببدلته الإفرنجية. وهو سلوك كان يراه بعض كبار السن مستهجنًا إلى حد ما، وحدثني - رحمه الله - أنه ذات يوم خلع الطاقية وهو شاب يمضي في شوارع القرية، وكانت الطاقية غطاء الرأس المعتمد بالنسبة للشباب والرجال عمومًا في ذلك الحين، فلقي استنكارًا شديدًا من أهل القرية؛ لأنه خلع الطاقية.

### طرابيش خالي:

حصلت على طربوش من طرابيش خالي، وذهبنا به إلى الطرابيشي يحوله إلى طربوش عمامة بدلا من طربوش الأفندي، أي يحوله إلى ما يشبه الطاقية اللينة التي يمكن طيها أربع طيات، ثم تفتح وتوضع على الرأس، ويتم لفّ الشال عليها بعد طيه بطريقة معينة تظهر فيها الشراشيب، فتكون العمامة صورة للجمال الذي يزين رأس الشيخ الأزهري؛ طالبًا أو أستاذًا.

بالنسبة للكاكولة، فقد اشترينا مجموعة من أمتار الصوف، وذهبنا إلى ترزي بلدي متواضع، لم يطلب مبلغًا كبيرًا مثل غيره من المشاهير، وكان الرجل طيبًا. أخذ المقاس، ووعد بتسليم الكاكولة بعد أسبوع، وقد تأخر بعض الوقت ولكن موعد الدراسة فرض عليه أن يعمل ليسلمها، وقد قضيت يوما كاملا في دكانه حتى أنجزها وكواها بعد أن جربتها، وتسلمتها، وعدت إلى القرية فرحًا بها.

### معضلة الكتب:

أما موضوع الكتب فقد كان الأزهر الشريف لا يسلم كتبًا مثل مدارس التعليم العام. كان الطالب الأزهري يشتري الكتب من المكتبات الخاصة، ويترواح ثمن الكتاب بين قرشين وستين قرشا. نتيجة الإملاء ثمنها قرشان، أما شرح أبي الحسن في الفقه المالكي فكان ثمنه ستين قرشا؛ لأنه مكوّن من جزئين مجلدين. كان ثمن مجموعة الكتب للصف الأول الابتدائي بالأزهر أيامئذ يزيد عن مائة وخمسين قرشًا. وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك الزمان، وكان يمثل معضلة لأسرتنا الفقيرة، ولكنها استطاعت بفضل الله أن تدبره واشترينا الكتب من مكتبة العادلي بدسوق، وحصلنا على جدول دراسي هدية من المكتبة التي طبعت على ظهره بياناتها، ثم قام صاحب المكتبة بختم الصفحة الداخلية من كل كتاب بخاتم المكتبة المربع، الذي يبدو فيه اسمها وعنوانها وتلفونها.

كانت المكتبة من أشهر مكتبات المدينة وأكبرها وأفخمها شكلا وتجهيزًا، وكان صاحب المكتبة من قرية الرحمانية المجاورة لقريتنا، ولكنه سكن في دسوق، وفتح المكتبة في شارعها الرئيس، ويبدو أنه كان يملك بعض الأراضي الزراعية في قريته، فآثر أن يؤجرها

ويتفرغ للمكتبة. كان ضخم الجثة، أسمر اللون، يرتدي طربوشًا فوق حلة إفرنجية، وكان أجش الصوت، ولم تجد معه محاولات تخفيض أسعار الكتب، فقد استطاع بصوته أن يغلبنا ويقنعنا أنه لم يربح من كتبنا إلا قليلا.

أذكر أنه لف لنا الكتب في فرخ من الورق المصقول، وكانت لفة جميلة المنظر، وضع فيها كتاب الفقه وكتاب النحو، وكتب الإملاء والقراءة والأناشيد والسيرة النبوية والتاريخ والجغرافيا والحساب والتوحيد والتجويد، كما أضاف إليها بعض المتون، مثل متن العشماوية في الفقه المالكي، ومتن الأجرومية في النحو، ومتن الجزرية في التجويد، وألفية ابن مالك، ومعظمها مختصرات منثورة أو منظومة للقضايا الأساسية في العلوم التي تنتمي إليها، وكانت تُحفظ لتسهيل المادة المعرفية وتقريبها إلى ذهن الطالب.

**الكتب المستعملة:**

كانت هناك فرصة لشراء الكتب مستعملة من الطلاب الذين نجحوا في السنة الأولى، ولكن الفكرة استبعدت؛ لاعتبارات اجتماعية، فمهما كنا فقراء فلا يجوز أن نشتري كتبًا مستعملة، أو نذهب إلى أحد من الطلاب الذين يسبقونني ونشتري منه كتبه التى لا يحتاج إليها، فهذا مظهر من المظاهر غير المرغوبة اجتماعيًّا في القرية. فيما بعد كان الكتاب المستعمل خارج الكتب المدرسية هدفًا من أهدافي التي أسعى إليها للتثقيف الذاتي من سور الأزبكية، أو من أمام السيدة زينب، أومن الحاج محمد الرملي بائع الصحف المشهور في محطة الرمل بالإسكندرية - رحمه الله – أو من شارع النبي دانيال في محرم بك.

بصفة عامة، كان الحصول على الكتب الجديدة أمرًا لا مفر منه، بل كانت هناك بعض الكتب التي تحاول تبسيط الكتب ذات الحواشي وتقديمها في صورة مرتبة ومنظمة ومنسقة، وعلى هيئة تتخلص من التعقيدات المنهجية والقضايا الخلافية، وتتناولها بصورة تتناسب مع مستوى طالب صغير، فكان هناك - على سبيل المثال - كتاب "الدرر البهية في فقه المالكية"، وقد ألفه أحد المدرسين في معهد طنطا الديني، وكان بديلا جيدًا ووافيًا لحاشية أبي الحسن على متن العشماوية، وكنا نحجزه بسعر معقول (ثمانية قروش).

**القارب وسيلة المواصلات:**

كانت وسيلة المواصلات اليومية إلى المعهد الديني هي القارب الشراعي، وكان هناك أكثر من قارب، يركب فيه عموم الناس، ولكن كان هناك قاربان مخصصان للطلبة؛ أحدهما صغير، ويتحرك مبكرًا، ومعظم من يستخدمونه الطلبة المبتدئون، وبعض العمال الذين يعملون في المدارس أو البلدية أو محلج القطن، أما الآخر فهو كبير، ويتحرك متأخرًا بعض الوقت، ويستخدمه الطلاب القدامى الأكبر سنًّا، أو الذين وصلوا إلى المرحلة الثانوية وما في مستواها من التعليم الفني، والموظفون.

في يوم الخميس من كل أسبوع كان القارب الكبير يزدحم بالركاب؛ بمناسبة يوم السوق الأسبوعي في المدينة، وكان سطح مؤخرة القارب يجمع تجار البهائم والحبوب والفلاحين، الذين يذهبون للتسوق، أو بيع ما لديهم من دواجن وألبان وحبوب وحيوانات .. أهم شيء في تجمع هؤلاء هو استعراض أخبار القرية وحوادثها، وما يجري فيها من صراعات أو خلافات، وكل يدلي برأيه وفقًا للقرابة أو الانحياز العائلي أو العاطفي، وكثيرًا ما كان يرتفع ضجيج الحوارات إلى القسم بأيمان مغلظة، أو الاستشهاد ببعض الجالسين.

**القارب والسياسة:**

بيد أن الأمر كان يتحول أحيانًا إلى بعض الفكاهة، حين يسرد بعضهم مواقف تثير الضحك أو التعليقات الباسمة، ونادرًا ما كان الحديث ينزلق إلى السياسة، فقد كان هناك حذر من الكلام فيها ومن تناول الزعيم أو القائد أو الرئيس؛ لأن فلسفتهم في هذا السياق (السياسة تودّي في داهية!)، ولم تكن هذه الفلسفة نابعة من فراغ، بل من حوادث عديدة، أهمها اعتقال بعض المنتمين إلى الإخوان المسلمين من القرية، أو شيخ البلد الذي تجرأ في أحد المجالس وتناول الحكومة بما لا يليق، فتم استدعاؤه إلى المديرية، ولا أحد يعلم ماذا جرى له هناك بالضبط، ولكنه عاد صامتًا، ولزم الصمت طويلا!

كنا نحن الطلبة نمضي معًا في طريقنا إلى المعهد. نخرج من القارب إلى البر أو الموردة، ونتحرك في فراغ كبير حتى نصل إلى الشارع الرئيس الموصل إلى المسجد الإبراهيمي، ثم نصعد إلى شارع مرتفع، يؤدي بنا إلى ما يعرف بشارع داير الناحية، وهناك نطالع منزلا

كبيرًا فخمًا، يقال عنه بيت العمدة زعلوك، وفي شارع جانبي بالقرب منه، ندلف إلى المعهد الديني الابتدائي (الإعدادي فيما بعد)، وبعد وقت قليل تعرفنا على شوارع جانبية تختصر المسافة، أو تكون أكثر هدوءًا، أو نجد فيها ما نحتاجه من طعام أو غيره، وكنا نتوقف أحيانًا لشراء ساندوتشات أو مأكولات، أو نجلس على بعض المقاهي لاحتساء الشاي، بحكم أن الشاي ضرورة ريفية في الوجبات الثلاث.

**رائحة الشوارع:**

شوارع المدينة لها رائحة تختلف عن شوارع القرية؛ فشوارع المدينة مضغوطة بالزحام ومياه الغسيل والمنازل المرتفعة الأدوار والمحلات الكبيرة، والمارة والعابرين، الذين ينتمون إلى العديد من القرى المجاورة، أو القادمين من بلاد بعيدة، وتفرغهم القطارات القادمة من ناحية دمنهور، أو من ناحية قلين، أو من ناحية فوة ومطوبس ورشيد.

جموع القادمين تكاد تملأ الشارع الرئيس الذي نسميه شارع المحطة، واسمه الرسمي شارع سعد زغلول – زعيم ثورة **1919**، الذي ينتمي إلى قرية مطوبس (المدينة فيما بعد)، وكانت تابعة إداريًّا لمركز دسوق.

هناك شارع آخر يطلق عليه شارع السينما، وكانت به السينما الوحيدة في المدينة كما أشرت من قبل، وقد توقفت منذ عقدين من الزمان بعد انتشار التلفزيون والفضائيات، وارتفاع ثمن الأرض المقامة عليها، فالمباني أو الشقق السكنية والمحلات التجارية، صارت أكثر عائدًا من حفلات الأفلام، وربما كان لوفاة صاحب السينما - الذي عمل مذيعًا بإحدى إذاعات القاهرة ومؤلف أفلام ومسلسلات - دور في إغلاقها وكتابة نهاية لأقدم سينما في الوجه البحري بعد الإسكندرية وطنطا.

**شارع الدلتا:**

بقية شوارع المدينة كانت أقرب إلى شوارع القرى، وكان كثير من بيوتها لفلاحين يعملون بالزراعة وتربية الحيوانات، وكان أحدها يسمى شارع الدلتا، موازيًا لشارع السينما، ونهايته تضم محطة المياه أو بابور المياه كما كان يسميه العامة، ومحطة الكهرباء

(بابور النور)، ومحطة قطار الدلتا، القادم من طنطا عبر بسيون في الطريق المحاذي للنيل، وهو قطار متواضع بطيء، كان يستخدمه الأهالي في نقل الحبوب والمواشي والدواجن، ويركبه الطلاب بصورة شبه مجانية، حيث كان يتوقف في كل القرى، فيستغلون توقفه المتكرر للهروب من الكمساري، والانتقال من عربة إلى أخرى، وكانت الرحلة من طنطا إلى دسوق تكاد تستغرق نصف يوم أو أكثر، ولكن الأجرة كانت أرخص من أجرة قطارات سكك حديد مصر.

وقد ألغي هذا القطار بعد التأميم في الستينيات، وأزيلت قضبانه ومحطاته على طول الخط الذي كان يسير عليه، وتم رصف طريق ترابي مجاور له يعتمد على حركة الأتوبيسات والسيارات، وقد انقرضت الأتوبيسات، ولم تبق غير سيارات الأجرة والسيارات الخاصة، ويكتظ بها الطريق الآن وتتعدد حوادثه المؤسفة؛ بسبب زحامه وضيقه، حيث لم تُجْدِ التوسعات الجانبية، فهناك ترعة على أحد جوانبه ومصرف على الجانب الآخر؛ مما يجعل التوسعة صعبة.

وكانت هناك فكرة مشروع لمد خط جديد من سكك حديد مصر، تبدأ من طنطا وتنتهي بدسوق، تبناها بعض نواب المنطقة في التسعينيات من القرن الماضي، ورعاها إعلاميًّا وصحفيًّا صديقنا الراحل جمال بدوي رئيس تحرير جريدة "الوفد"، وقد شاركت بالكتابة في الموضوع، ولكن الفكرة ذهبت إلى قاع النسيان، مع أنها كانت مفيدة للمنطقة بعامة ولأطراف كثيرة، وخاصة الطلاب الذين تزدحم بهم جامعة طنطا بكلياتها العديدة.

### مناطق تجارية:

في المدينة تحولت الآن معظم الشوارع إلى مناطق تجارية، وانقرضت الأرض الزراعية أو تلاشت، وتحولت إلى كتل خرسانية كالحة، تكتظ بالبشر والحجر، وترتفع ارتفاعات شاهقة، تحوطها القذارة والحفر والفضلات وبرك المجاري الطافحة.

كانت المنطقة المحيطة بالمسجد الإبراهيمي في الخمسينيات هي المنطقة التجارية الأكثر ازدحامًا بالنسبة لمناطق المدينة، ويمتد الزحام إلى شارع المحطة، وخاصة عند

وصول القطارات، وكانت المحلات والمقاهي تكاد تكون ملاصقة للمسجد، ولكنها الآن تراجعت كثيرًا بعد تنظيم المنطقة المحيطة به وتوسيعها، وتحويلها إلى ميدان كبير وحديقة وشوارع عريضة، وساعد على ذلك أن المناطق المحيطة بالمسجد كانت ملكًا للأوقاف فتمت توسعة المسجد والميدان.

**مربع ناقص ضلع:**

يتكون المعهد الديني من مبنى كبير على هيئة مربع ناقص ضلع، وبه طبقتان؛ واحدة أرضية والأخرى علوية، وفي كل ضلع مجموعة من الفصول الكبيرة، أمامها طرقة طويلة، يتحرك فيها الطلاب عند الفسح، أو فيما بين الحصص، والمبنى كله - جدرانًا وأبوابًا ونوافذ - يعتمد على الطلاء الرمادي بدرجات متفاوتة، وتحتل غرفة الشيخ المراقب (يعادل وكيل المعهد تقريبًا) الذي ينوب عن شيخ المعهد، الموجود في القسم الثانوي، يمين البوابة الرئيسة للمدخل، ويقابلها في الضلع الثالث حمامات الطلاب، وكانت هناك غرفة للملاحظ والفراشين قريبة من غرفة المراقب.

في أول يوم دراسي كنت أجلس في فصل أولى ثاني، وكان يضم أكثر من سبعين طالبًا مالكيًّا، كانت هناك ثلاثة فصول أخرى تضم طلاب الصف الأول؛ أحدها لطلاب الفقه الحنفي، والثاني لطلاب الفقه الشافعي، والثالث لبقية طلاب الفقه المالكي. الفقه المالكي كان الأكثر انتشارا في المعهد وفي المنطقة، أما الفقه الحنبلي فلم يكن له أثر في المعهد، بل في معاهد مصر كلها باستثناء فصل واحد في معهد القاهرة الديني، مخصص لطلاب الحنابلة على مستوى الجمهورية. ولعل ذلك يرجع إلى بعض أحكام المذهب المتشددة التي تتحرى الورع؛ ولذا انصرف عنه معظم الناس، مع أنه يحمل بعض الأحكام الميسرة في بعض الفروع.

**المشايخ الصغار:**

لا أذكر بالضبط أول يوم دراسي، وماذا فعلت في الفصل وسط هذا العدد الكبير من المشايخ الصغار بعمائمهم الملونة وملابسهم المتباينة. كانت المقاعد مزدحمة، وهناك من يقاتل ليكون في المقاعد الأمامية، ومن يحاول أن يجلس على طرف الدكة الطويلة ليكون

قريبًا من الطرقة التي تفصل بين جانبي الفصل؛ ليسهل عليه الخروج والدخول .. كانت العمائم والكواكيل تكشف عن المستوى المادي لأصحابها. كان هناك من يرتدي بعضًا منها مستعملا، وصاحبها إما كان راسبًا، أو شديد الفقر فعطف عليه بعضهم ومنحه إياها صدقة أو مساعدة .. ولم يكن ذلك يمثل مشكلة، فمعظم الطلاب ينتمون إلى طبقة متواضعة أو مستورة.

ضبطني الشيخ أحمد أبوقمر - رحمه الله - وأنا أتأمل لون كاكولتي .. فوجئت به فوق رأسي يسألني عن اسمي، ويقول لي انظر على السبورة .. خجلت من نفسي. كان الشيخ أبو قمر يدرس لنا مادة النحو على ما أذكر، وبعد فترة درس لنا الحساب، كان من قرية على الشاطئ الآخر من النيل لا تقابل قريتنا تمامًا، ولكن يمكن أن نصل إليها عبر القوارب. والشيخ أبو قمر من عائلة طيبة، وعرفت فيما بعد أخًا له كان موجهًا لي عندما كنت مدرسًا في التعليم العام، وكان رجلا مهذبًا، ويوجه بهدوء ووعي، وكانت إحدى بناته زميلة لي في التدريس بدار المعلمين فيما بعد، وكانت من أوائل المنتقبات في الثمانينيّات، وكانت متخصصة في تدريس اللغة الإنجليزية.

والشيخ أحمد أبو قمر كان معممًا، وله نظارة مقعرة، ويتكلم بصوت هادئ، ويشرح الفكرة أكثر من مرة، وقد تعجبت عندما درس لنا الحساب، فقد كان الطلاب الذين يسبقوننا يخبروننا أن مدرسي الحساب والعلوم والمواد الاجتماعية من الأفندية الذين تخرجوا في الكليات غير الأزهرية، وأن المشايخ يكتفون بتدريس المواد الشرعية واللغوية والأدبية. بيد أن المشايخ كانوا عند الضرورة لا يتأخرون عن إثبات وجودهم في تدريس المواد التي يدرسها الأفندية؛ اعتزازًا بقدراتهم، وإظهارًا لتمكنهم العلمي.

**الغياب والجراية:**

في الفصل يحفظ كل طالب رقمه الأبجدي في الكشف الملصق على الباب. أذكر أن رقمي كان 72، وكنت أعرف من قبلي ومن بعدي من زملاء الفصل، وتكمن أهمية الرقم في حصر الغائبين عن الحصة أو طوال اليوم، فقد كان حصر الغياب مهمًّا للغاية؛ لأنه كان

مرتبطًا بما يسمى "الجراية"، وهي مبلغ نقدي يتسلمه الطالب كل شهر، وكان يقدر بقرش صاغ عن حضور اليوم الدراسي كاملا؛ فإذا غاب الطالب حصة أو يومًا خصم منه القرش الذي كان يمثل قوة شرائية كبيرة، تفوق قوة الجنيه المصري عند كتابة هذه السطور، وكان ذلك الخصم يعدّ كارثة كبرى لمن يعتمد على الجراية من الطلبة الفقراء. وحساب الجراية تخصم منه أيام الجمع والعطلات، وعادة يكون صافي ما يحصل عليه الطالب يتراوح ما بين أربعة وعشرين أو ست وعشرين قرشًا إذا حضر الأيام كلها، ولم يغب حصة واحدة أو يومًا واحدًا؛ ولذا كان جميع الطلاب حريصين على الحضور، وعدم تسجيل أسمائهم في البلاغ (كشف الغياب).

### ألفية ابن مالك:

كان التسجيل في الغياب وسيلة عقابية ناجعة لمن يقصر في حفظ ألفية ابن مالك مثلا، وكان موعد تسميع الجزء المقرر منها يوم الخميس من كل أسبوع، والألفية منظومة نحوية يساعد حفظها على تذكر قواعد النحو وتعريفاته، وتقع في ألف بيت، وتبدأ بتعريف الكلام وأقسامه والمعرف منه:

**كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم وفعل ثم حرف الكلم**

**واحده كلمة والقول عمّ ... وكلمة بها كلام قد يؤمّ**

**بالندا والتنوين والندا وألْ ... ومسند للاسم تمييز حصلْ**

### الشيخ الكريوني:

ومن الأساتذة الذين كانوا يزاوجون العقاب بين التغييب والعصا الشيخ الكريوني، وكان من أكبر الأساتذة سنًّا وأضخمهم جسمًا، وكان يميل إلى القصر، وعمامته بيضاء ناصعة، وجبته واسعة، يظهر تحتها القفطان المخطط والحزام العريض المزركش، وكان يحمل درجة التخصص (تعادل الماجستير في أيامنا)، ولا أعرف في أي مادة أو علم كان تخصصه، وكان يدرس لنا السيرة النبوية، التي اعتاد تدريسها باستمرار للصف الأول، وكان يدرس مواد أخرى في القسم الثانوي، من بينها المنطق - كما عرفنا من زملائنا الكبار - هناك. ومن أبرز عاداته أنه كان يجلس على الكرسي بمجرد دخوله الفصل، ويطلب أن نخرج كتاب

السيرة النبوية، ويأخذ في التسميع للطلبة واحدًا واحدًا ما حدده في الحصة السابقة .. الذي يحفظ يعبر الغياب بسلام، والذي لم يحفظ يتم تسجيله في البلاغ غائبا، ويعد غائبًا اليوم كله، ويحرم من مقابل الجراية (قرش الصاغ).

لا أذكر أنه شرح لنا درسًا أو وضح لنا فكرة، ولكنه كان يركز على الحفظ لغاية لا نعرفها، وللأسف فقد عشت مشكلة عويصة مع صفحة وبعض صفحة في الكتاب تتعلق بأصول العرب واسمها "نبذة قصيرة"، وتتحدث عن الروم والفرس بعد الحديث عن العرب البائدة، وهم الذين بادوا، أي محيت آثارهم، ولم يصلنا من أخبارهم إلا النزر اليسير، والعرب العاربة، والعرب المستعربة. ومثّل حفظ هذه النبذة قلقًا كبيرًا لمعظم الطلاب، الذين تشابهت عليهم الأسماء والأصول والمعاني، ولم ينج من التغييب عند التسميع إلا نفر قليل من الطلاب، كنت واحدا منهم .. أما الذين لم يحفظوا فقد اصطلوا بلسعات الخيرزانة مع التغييب وهم حاضرون.

### تجميع البلاغات:

كانت حجرة الفراشين مكان تجميع البلاغات (كشوف الغياب)، وكان يتولاها الملاحظ وهو رئيس الفراشين، ومهمته تنحصر في الإشراف على النظافة وتوزيع العمل بين مرءوسيه، والمرور بالبلاغات في أثناء الحصص لحصر الغائبين والحاضرين، وكان الطلبة بعد حصة السيرة يذهبون إلى الملاحظ يرجونه أن يشطبهم من الغياب، فقد كانوا حاضرين بالفعل، ولكنهم غُيبوا بسبب عدم الحفظ فكان يلقي عليهم درسًا في ضرورة الحفظ والانصياع لما يقوله الأستاذ، ثم يعيدهم خائبي الرجاء؛ لأنه لا يستطيع أن يغير ما فعله الشيخ!

### الملاحظ والأخبار:

كان الملاحظ من قرية مجاورة لقريتنا، وكان أخًا غير شقيق لمدير في الأزهر يعيش بالقاهرة، وقد عينه في المعهد ضمن آخرين من الأقارب والمعارف من قريته وقريتنا؛ ليضمنوا دخلا ثابتًا في ظل ظروف مادية صعبة. وقد تزوج هذا الملاحظ من قريتنا واستقر بها. وكان يذهب إلى المعهد في القارب الذي نركبه يوميًّا، ومن خلاله نعلم أخبار

المعهد بقسميه الابتدائي والثانوي، خاصة أنه كان مقربًا من المراقب، وكان يعامل معاملة خاصة بحكم انتسابه لشقيقه المدير في القاهرة.

أهم ما يعني الطلبة هو نتيجة الامتحان آخر العام، وكان الملاحظ يُسِرّ بها لمن يؤثرهم بالمعرفة، وأحيانًا يأتي بأوراق التهنئة بالنجاح لطلاب القرية، وكنا نسمع منه في أثناء الذهاب أو الإياب في القارب حكايات وأخبارًا عما يجري من صراعات صغيرة بين المشايخ أو بين العمال، أو بين الإدارة وهؤلاء جميعًا.

والمعضلة التي كان يواجهها الملاحظ هي حنق الطلاب الذين يرسبون، أو يدخلون امتحان الدور الثاني، أو يتسبّبون في بعض المشكلات داخل المعهد، مثل غيابهم أو تزويغهم بعض الحصص الأخيرة، أو يشغبون داخل الفصول مع الأساتذة أو نحو ذلك، فقد كانوا يريدون أن يظل ما يفعلونه بعيدًا عن آذان أهليهم البسطاء، ولكن الملاحظ كان يسرّب ما يجري أولا بأول في القارب؛ بوصف ذلك ضرورة لإعادتهم إلى الصواب، وكان كلامه يصل غالبًا إلى أولياء الأمور، وهو ما كان يشعل في البيوت نارًا، فلا أحد يريد من ابنه أن يكون محورًا للمشكلات أو الإخفاق أو الفشل. ومع ذلك فقد كان الرجل - رحمه الله - يحل كثيرًا من المشكلات الخاصة بالطلبة الفقراء، بمحاولة إعفائهم من المبلغ البسيط الذي كان يدفع ويسمونه مصاريف، أو يتدخل لمنح بعضهم شيئًا من مبالغ المعونة التي تأتي أحيانًا للمعهد من القاهرة، فيحصل الطالب على خمسين قرشًا أو أكثر قليلا.

وبصفة عامة، فقد كان الرجل هادئًا مسالمًا، وودع الحياة بلا مشكلات.

### شيخ جميل الطلعة:

في الصف الأول جاءنا شيخ جميل الطلعة، وجهه أحمر يشبه مؤذن قريتنا إلى حد التطابق، عيناه مستديرتان حادتان قويتان، وصوته موسيقي يوحي بالحيوية والشباب، وكاكولته لونها هادئ ولكنه باذخ، وعمامته شامخة بدون شراشيب، وذاكرته قوية أو حديدية، فقد حصر الغياب عن طريق الأرقام، وكان يطلب من كل طالب أن يذكر رقمه أولا ثم اسمه، ومع ضخامة العدد فقد وجدناه يحفظ الأسماء من أول حصة. كان يدرس لنا النحو بعد الشيخ أبي قمر الذي انتقل إلى فصل آخر، ثم درّس الحساب والإملاء، وأذكر

أنه أملانا موضوعًا من ذاكرته كان مكتوبًا في مجلة التصوف الإسلامي أو نور الإسلام – لا أذكر بالضبط - وكان ماهرًا في توصيل الدرس إلى العدد الكبير من طلاب الفصل، وأذكر أني عرفت منه جمع اسم محمد جمعًا سالمًا لأول مرة، وما زالت صورة كلمة "المحمدون" التي كتبها على السبورة ترتسم في ذاكرتي حتى الآن.

**سلامون قبلي وبحري:**

حين دخل علينا لأول مرة عرف نفسه وقال: اسمي محمود محمد عمارة من سلامون قبلي مركز أشمون منوفية، وذكر اسم الكلية التي تخرج منها وهي كلية أصول الدين، وعرفنا فيما بعد أنه يدمن القراءة في كل الأوقات، وقال لنا قائل: إنه كان يجري عملية جراحية، وبعد الانتهاء منها والإفاقة من المخدر عاود القراءة والمطالعة، وهو نمط قليل بين المشايخ الذين يحصرون قراءاتهم عادة في الكتب الدراسية وحدها، ولعل هذا ما شجعني لأتجه نحو قراءة ما هو غير مدرسي، وأحرص عليه أكثر من حرصي على مطالعة كتب الدراسة.

وبمناسبة سلامون قبلي، فهناك سلامون بحري، جاء منها إمام لمسجد قريتنا، وكان اسمه الشيخ أحمد أبو شنب، وعينه ديوان الموظفين إمامًا، مع أنه تخرج من كلية اللغة العربية، وتخصص في التدريس. وكان لهذا الإمام دور في توجيهي نحو القراءة أيضًا، وأمدني ببعض الكتب، ومنها كتاب عن الإسلام والسلام العالمي فيما أذكر، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، وقد ظل في قريتنا سنوات طويلة، تزوج فيها وأنجب، ثم ذهب إلى بلده، وكان يزور قريتنا من حين لآخر بعد ذلك.

**الزي الأزهري أجمل:**

لم يبق معنا الشيخ عمارة طويلا، ولكنه انتقل إلى مكان آخر، وبعد سنوات سمعت اسمه أو قرأته مسبوقًا بلقب دكتور، وفي التسعينيات من القرن الماضي أخبرني زميل كان يعمل في مكة المكرمة أنه يعمل معه معارًا إلى إحدى الكليات هناك، وأنه دائم اللقاء به في الكعبة عقب صلاة المغرب، وأنه تذكرني حين سمع اسمي.

وقد رأيت صورته في الصحف والمجلات بالزي الإفرنجي، ولكن صورته بالزي الأزهري كانت أجمل، والمفارقة أن إذاعة القرآن الكريم جمعتنا دون أن نلتقي وجهًا لوجه

للمشاركة في بعض البرامج، والملاحظة التي لاحظتها على أحاديثه الإذاعية ومقالاته الثقافية وكتبه المختلفة، أنه لا يواجه القضايا الراهنة بصورة مباشرة، ولكنه يدور دائمًا في دائرة التاريخ والقيم العامة، دون أن يشير إلى ما يجري على أرض الواقع في إشارة صريحة حية .. هل كان ذلك نتيجة انضمامه إلى الحزب الوطني في عصر مبارك؟ لا أدري، ولكنه في كل الأحوال يملك صياغة بيانية وتعبيرية ناصعة، تجعله أقرب إلى مدرسة البيان ورقيها الأسلوبي.

**رجال طيبون:**

وكان من مدرسي الفقه المالكي الشيخ علي الخولي، وكان رجلا طيبًا، يحاول أن يقرب إلينا أبواب الفقه من خلال التعريفات والتقسيمات، ويملأ السبورة بعناصر الموضوع، ولحسن الحظ فقد كنت على وعي بالمادة؛ نتيجة متابعتي لإمام المسجد في قريتنا وهو يشرح أبواب الفقه المالكي، وخاصة في شهر رمضان من كل عام.

ولم يبق في ذاكرتي من مشايخ الصف الأول إلا ثلاثة مشايخ؛ أولهم كان يدرس لنا الأناشيد والمحفوظات، وكان اسمه الشيخ الزمراني، والثاني الشيخ زكريا أبو الجود، وكان يدرس لنا الحساب، والأخير الشيخ علي عمارة، وكان يدرس لنا مادة الإنشاء .. الأول كان جهوري الصوت، وأذكر أنه كان يقرأ نشيدًا عن قدرة الله، أوله:

**انظـــــر لتلـــــك الـــــشجرة ذات الغـــــــصون النـــــــضرة**

وكان يقرأ وكأنه يخطب على المنبر، ثم يطلب من بعضنا القراءة بالقوة التي قرأ بها. والثاني الشيخ زكريا كان ربعة، أبنوسي الوجه، هادئا، أقرب إلى الفلاح بطيبته وصفائه، وكان يجتهد في شرح المسائل التي يتناولها على السبورة. أما الشيخ عمارة فلم أذكر من مادته إلا الدرجة المتدنية التي نجحت بها في آخر العام؛ مما شكل مسارًا جديدًا في حياتي، فقد كانت ورقة الأسئلة تطلب الكتابة في أحد موضوعين؛ كان أولهما شجرة القطن وفوائدها، وقد اخترت الكتابة فيه، ولا أذكر الموضوع الآخر، ولأن أفقي آنئذ بالنسبة للكتابة محدود فقد كتبت نحو ستة أسطر وتوقف القلم عن الزيادة كلمة واحدة، وسلمت ورقة الإجابة وانصرفت، وقد تصورت أنني كتبت كل المطلوب وهو الذي أعرفه، وفوجئت

أن الدرجة التي حصلت عليها كانت عشرين من أربعين. أي أن القوم رأفوا بحالي، وبدلا من الرسوب في المادة منحوني الدرجة الدنيا، وكان ألمي لهذا الأمر عظيمًا، فقد كانت درجاتي عالية في كل المواد باستثناء الإنشاء!

### بحثًا عن كيفية التعبير:

وعندما زارنا خالي في إحدى إجازاته أخبرته بما جرى، فضحك وتحدث معي عن كيفية الكتابة، وترتيب الأفكار والصياغة، بالطريقة التي استلهمها من قراءاته للصحف والكتب التي تقع في يده أحيانًا، وفتح لي الطريق لمتابعة كيفية الكتابة عند كتاب الصحف والأدباء في حدود إمكاناتي في بيئة ريفية، فقيرة الثقافة والمعرفة، ولا بأس أن تكون هناك جريدة قديمة، عثرت عليها هنا أو هناك أو أوراق صحيفة أو مجلة، كانت في قفص فاكهة أو لفافة سلعة من السلع، أطالعها على الفور، ولا أترك منها حرفًا دون المرور عليه واستيعاب معناه.

وكان الاطلاع على الصحف اليومية معضلة بالنسبة لي من الناحية المادية، كنت أقف عند بائع الجرائد لتدور عيناي على العناوين في الصحف والمجلات والكتب، وكان المراكبي صاحب القارب الذي ينقلنا من القرية إلى المدينة، يشتري للموسرين في القرية مجموعة صحف يومية، نظير مبلغ شهري، وكان بعضهم يتضايق إذا عرف أن هناك من قرأها أو طالعها قبله؛ ولذا كان المراكبي حريصًا أن يلفها في بعض الملابس التي يخلعها عند العمل ويضعها في خزنة أمامية بالقارب؛ كي تكون بعيدة عن الأيدي.

### اختلاس القراءة:

وكنا إذا خرجنا من المعهد قبل الموعد المعتاد لغياب أستاذ أو ظرف طارئ، تتاح لنا فرصة قراءة الصحف المخبأة دون أن يدري صاحب المركب.

كان هناك من يريد قراءة صفحة الرياضة وكرة القدم فقط، وكنت أقرأ الجريدة كلها، وخاصة ما يتعلق بالسياسة والأحداث الجارية، وإذا باغتنا المراكبي ووجدنا نقرأ الصحف فإن القيامة تقوم ولا تتوقف. يغضب ويصيح ويحلف ألا يشتريها بعد ذلك، ولكنه لم

يكن يبر بيمينه أبدًا، ولم نكن نتوب عن القراءة حتى كبرنا نسبيًّا، وأصبح من الممكن أن نشتري صحيفة أسبوعية، أو حتى الملحق الأسبوعي للأهرام مستعملا بقرش تعريفة.

لا ريب أن تركيزي على القراءة، ثم عثوري على كتاب يعلم الإنشاء، ويتضمن كيفية كتابة رسائل التهنئة بالنجاح والشفاء من المرض والعودة من الحج أو السفر، وكتابة الموضوعات العامة، هو ما جعل الطريق أمامي مفتوحًا للتعبير والكتابة الممتدة التي تتجاوز سطور موضوع الإنشاء الذي كتبته عن شجرة القطن، وسبب لي ألمًا عظيمًا وإحساسًا بالقصور والتقصير، وإن كانت نماذج كتاب الإنشاء وتعبيراته البديعية لم تعجبني؛ فقد أحسست أنها تحلق في الفراغ والموضوعات المعلبة، بعيدًا عن أرض الواقع، لكنها فتحت مجالا واسعًا للأفكار وجوانب الموضوعات المختلفة.

**الصحف مشغولة:**

كانت الصحف آنئذ مشغولة بانتخابات مجلس النواب (الأمة، الشعب، فيما بعد)، كما كانت تتحدث لأول مرة عن احتفالات عيد النصر على العدوان الثلاثي، وهو النصر الذي لم يكن حقيقيًّا، فقد أمم جمال عبد الناصر شركة قناة السويس؛ ما أغضب الغرب الاستعماري، وخاصة إنجلترا وفرنسا، وانتهز اليهود الغزاة في فسطين المحتلة الفرصة، وتحالف زعيمهم بن جوريون مع المستر إيدن رئيس وزراء إنجلترا، وجي موليه رئيس وزراء فرنسا، وقاموا بشن عدوان ثلاثي على مصر، وقد سحب جمال عبد الناصر الجيش من سيناء، فاندفع اليهود لاحتلالها، وكانت طائرات بريطانيا وفرنسا وسفنهما الحربية تقصف بورسعيد لاحتلال القناة؛ مما استفز الشعور الوطني، وتشكلت كتائب المقاومة الشعبية لمواجهة العدوان، وأذكر أن أعدادًا غير قليلة من المهاجرين جاءوا إلى قريتنا والمدن القريبة منها، وقد رأينا الكشافات التي كانت تنطلق من الإسكندرية وتشق السماء لكشف الطائرات المغيرة، ويومها عرفنا معنى الغارة الجوية والنزول إلى المخابئ، ودهان زجاج الشبابيك باللون الأزرق، وبناء المصدات الخرسانية أمام العمارات الكبرى، وكنا نسمع عن ذلك، أو نشاهد شيئًا منه في المدينة.

**الله أكبر:**

وقد أعلن عن انسحاب المعتدين الذين جاءوا ليلوثوا مياهنا ويحتلوا أرضنا، وكان نشيد "الله أكبر فوق كيد المعتدي" من أشهر الأناشيد التي تفاعلنا معها وحفظناها، وكانت تذيعه الإذاعة المصرية وصوت العرب باستمرار مع نشيد "دع سمائي فسمائي محرقة"، وكانت هناك أناشيد أخرى وأغان تشيد بالمقاومة ورد العدوان والسلام الذي تحقق بعد انسحاب المعتدين.

كانت الولايات المتحدة آنئذ غاضبة من بريطانيا وفرنسا واليهود؛ لأنهم قاموا بعدوانهم دون استشارتها أو مشاركتها؛ لذا فقد أرغمهم الرئيس الأمريكي أيزنهاور على الانسحاب الفوري، وكان هناك إنذار من بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي آنئذ لدول العدوان الثلاثي بالانسحاب؛ لأنها تمثل دولا رأسمالية معادية للمعسكر الشيوعي، ولكن إنذاره لم يكن ذا قيمة، فالدول المعتدية كانت تعرف معنى الغضب الأمريكي وآثاره، وتم الانسحاب من سيناء مقابل انتزاع قرية أم الرشراش، التي تحولت إلى إيلات، وحق اليهود في المرور بسفنهم في خليج العقبة، الذي كان خليجًا عربيًّا خالصًا قبل العدوان الثلاثي.

كان الاحتفال بعيد النصر تقليدًا سنويًّا، وإجازة للوزارات والمؤسسات والطلاب في أرجاء الدولة يوم 23 من ديسمبر كل عام. وتوقفت الإجازة بعد هزيمة 1967؛ حيث اكتشف الناس أنه كان أيضًا هزيمة مؤلمة، غطاها الشعور القومي، الذي سكت على فضيحة الانسحاب أمام اليهود الغزاة دون إعداد جيد للجيش، أو تسليحه بما يجعله يصدّ عدوان الغزاة.

**وحدة لا يغلبها غلاب:**

في عام 1958 بدأنا نسمع عن الوحدة بين مصر وسورية، والمواطن العربي الأول، واسمه شكري القوتلي الذي كان رئيسًا لسوريا، وأصبح اسم بلاده الإقليم الشمالي، وصار اسم مصر الإقليم الجنوبي، يضمهما كيان جديد اسمه الجمهورية العربية المتحدة، ولم يعد

يتردد اسم مصر منذ ذلك الحين حتى أعاده السادات في السبعينيات، وكان يوم 22 من فبراير عام 1958 عيد الوحدة الاندماجية، حيث حاولت دول عربية أخرى أن تشارك في دولة الوحدة تحت نظام فيدرالي أو كونفيدارالي، ولكنها جميعًا باءت بالفشل الذريع، وخلفت جروحًا عميقة. وأدى انفصال سورية عن مصر عام 1961 إلى قرارات انفعالية كانت كارثية على مصر، مثل الدخول في حرب اليمن السعيد! بين الجمهوريين والملكيين، وهي حرب استمرت نحو خمس سنوات، وأفقدت مصر كثيرًا من جنودها، وأضعفت جيشها واقتصادها، ومهدت لهزيمة 1967 السوداء.

حاول العراق بعد انفصال سورية عن مصر، وتعدد الانقلابات العسكرية في بغداد ودمشق، أن يقيم اتحادًا ثلاثيًّا بين الدول الثلاث (مصر وسورية والعراق)، وجاءت وفود وذهبت وفود، وكان الإعلان يتم عن ميلاد كيان اتحاد جديد، ودستور جديد وأجهزة جديدة، ولكن الإخفاق كان من نصيب هذه المحاولات جميعًا، وقد انضم إلى هذه المحاولات في عهد جمال عبد الناصر وعهد أنور السادات، كل من اليمن والسودان وليبيا، ولكنها لم تنجح أبدًا؛ لأنها كانت تفتقد إلى شيء بسيط للغاية وهو الحرية، فلم يكن أي من شعوب العرب حرًّا، أو يملك الحق في تقرير مصيره، بل كان الذي يقرر مصير الشعب من يجلس على كرسي السلطة، حيث يملك الأرض ومن عليها، فتبقى الوحدة إذا أراد، وتنتهي عندما يتعكر مزاجه الرهيف!

**مقاومة الاستعمار:**

وفي هذا الوقت - أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات - نشطت عمليات المقاومة ضد الاستعمار الغربي في الدول العربية والإفريقية وضد الاحتلال اليهودي لفلسطين، وكانت الصحف المصرية تشجع قادة الجماعات المطالبة بالحرية والاستقلال في اليمن الجنوبي، وإمارات الساحل المهادن، وتونس والجزائر ومراكش، ودول إفريقيا التي كان معظمها رهينة في يد الدول الاستعمارية.

سمعنا عن حركات الاستقلال في عواصم مختلفة، وبعضها كانت له إذاعات تبث من القاهرة، أو يتبناها صوت العرب الذي كان يحمل راية الحديث عن الوحدة العربية ومقاومة الاستعمار، ويخصص مساحة زمنية لفلسطين وجنوب اليمن والمغرب العربي، وخصص مساحة زمنية طويلة نسبيًّا لركن السودان، الذي كان يقدم برنامجًا أدبيًّا جيدًا، يتناول الأدب العربي في البلاد العربية، ويركز على ما يكتبه أدباء السودان.

### زعماء استقلال إفريقيا:

وقد وقفت القاهرة بكامل قوتها وراء الدول الإفريقية واستقلالها، وعرفنا كثيرًا من زعماء الاستقلال الإفريقي، أو منافسيهم الموالين للاستعمار، مثل كوامي نكروما في غانا، وباتريس لومومبا وجوزيف كوزوفو وموبس تشومبي وموبوتو في الكونغو ليوبولدفيل (كينشاسا)، وأحمد سيكوتوري في غانا، وموديبوكيتا في مالي، وجوموكينياتا في كينيا، وجوليوس نيريري في تنجانيقا (تنزانيا بعد ضم زنزبار)، ونيلسون مانديلا (جنوب إفريقيا)، وغيرهم من الزعماء والمناضلين، الذين كانوا يتحركون وفق توجه وطني، أو يساري مدعوم من الاتحاد السوفيتي، أو الاستعمار الغربي.

### ملائكة وشياطين:

كانت الصحف المصرية في مرحلة الخصخصة أو مرحلة التأميم تتعامل مع الجهات التي تؤيدها الحكومة المصرية بوضعهم في صورة ملائكية جميلة، أما الجهات المغضوب عليها فهي دائمًا في صورة الشياطين! وكانت الانقلابات في بغداد ودمشق عنوانًا حيًّا على هذا التوجه من صحف القاهرة، فقد أيدت انقلاب عبد السلام عارف، ومن بعده انقلاب أخيه عبد الرحمن، ووقفت موقفًا حادًّا عنيفًا من انقلاب عبد الكريم قاسم، وكان الأخير يستحق هذا الموقف؛ بحكم انتمائه الشيوعي وخيانته للثورة، وأذكر أن صحيفة الأخبار خرجت ذات يوم بعنوان رئيس ضخم من كلمة واحدة بخط كبير جدًّا: القرآن!، وفي التفاصيل تحدثت الصحيفة عن تمزيق القرآن على يد أعوان عبد الكريم قاسم، وإهانته بإلقائه على الأرض، والتعامل معه بطريقة لا تليق!

وبصفة عامة، فقد كان موقف الصحافة المصرية متطابقًا مع موقف السلطة، لدرجة أن القراء يصعب عليهم أن يجدوا فارقًا كبيرًا بين صحافة ما قبل التأميم وصحافة ما بعد التأميم، فقد كان الواقع السياسي الاستبدادي عقب انقلاب عبد الناصر على الديمقراطية، وحبسه لأول رئيس جمهورية لمصر محمد نجيب، وانفراده بالسلطة كاملة - يفرض على جميع الصحفيين نغمة واحدة، تصب في تمجيد الحاكم ونظامه، والتعبير عن وجهة نظره تجاه الآخرين، سواء في داخل البلاد وخارجها، وهو ما دفع الصحف المصرية إلى إسباغ صفات الزعامة والإلهام والبطولة والقيادة والحكمة وغيرها عليه .. وتكاد صفات المديح ترفعه إلى مصاف الآلهة، حتى صار ذلك الأمر مقررًا بعد تأميم الصحافة على أقلام الكتاب والصحفيين في مقالاتهم وموضوعاتهم وأخبارهم.

**منشور واحد:**

لقد كان التأميم فرصة لتحويل الصحافة إلى منشور واحد، باستثناء ما يكتبه رئيس تحرير الأهرام يوم الجمعة، ويشي باتجاه الحاكم وقراراته، وهو ما لا يتوفر للصحف الأخرى.

كانت الصحف تكاد تكتب في موضوع واحد لا تتخطاه، وهو ما كان يوحي به النظام القائم، وكان يدور غالبًا حول هجاء الحكام والملوك العرب الذين يقفون موقفًا مغايرًا لموقف الحكومة المصرية في القضايا السياسية، فالذين يرفضون الوحدة العربية عملاء للاستعمار، والذين لا يتجاوبون مع الاشتراكية رجعيون متخلفون، والذين لا يوافقون على القتال ضد الغزاة اليهود – مع أن النظام المصري لا يقاتل، ولا يعد إعدادًا حقيقيًّا للقتال - يبيعون فلسطين .. وهكذا يستمر الهجاء والتلاحي، الذي ينتقل من أوراق الصحف إلى الإذاعات – لم يكن التلفزيون قد حضر بعد – ثم يمتد الصراع إلى بيروت؛ حيث كانت صحفها جاهزة لمن يدفع من الأنظمة العربية، فصحف لبنان لا تخضع لسيطرة الحكومة، ويستطيع أي لبناني، بل أي عربي أن يصدر صحيفة أو مجلة، ويقول فيها ما يشاء بلا سدود ولا قيود؛ ولذا كانت الدول العربية تتسابق لتجنيد الصحف التي تنطق باسمها من بيروت، أو ترد على خصومها بطريقة غير مباشرة، وكان

لمصر الناصرية أكثر من صحيفة، وأكثر من مجلة تتبنى وجهة نظر النظام الناصري، ويسمح لها بالدخول إلى الأسواق المصرية بسهولة، وبالطبع لم يكن مسموحًا للصحف المعادية بالدخول، أما الصحف المحايدة والأجنبية فكانت تتعرض للرقابة بالمنع، أو قص الصفحات غير المرغوبة.

### خطب الزعيم:

وقد كانت خطابات الزعيم القائد تحظى بعناية خاصة، فكانت تحتل العناوين الأولى، وتسبقها أو يجاورها صورة كبيرة، ربما بحجم صفحة كاملة، فضلا عن صور عديدة من زوايا مختلفة، وتنشر مع كل كلمة يتلفظ بها الرئيس، بل كل حرف يقوله، ولو كان جزءًا من كلمة لم يكملها، ولأن خطب الزعيم القائد كانت تمتد لساعتين أو أكثر، فقد كانت تنشر على ثلاث صفحات أو أربعة أو أكثر حسب طول الخطاب وعدد الصور التي ترفق به، ويتم النشر كاملا ولو كان من بين ما يحمله عبارات أو فقرات إنشائية وفكاهية، أو لا تضيف للقارئ شيئًا، فقد كان الهدف من النشر الحفاظ على كل ما يتفوه به الزعيم، وما يقال في قاعة الخطاب على لسان الجمهور أو المحتفلين به، وتسجيل كلمات الذين يقدمون الرئيس أو يسبقونه على المنصة، وكلماتهم تفيض عادة بالمديح اللزج، والنفاق الصارخ الذي يصل إلى درجة التأليه، بالإضافة إلى إثبات الهتافات التي تفتدي الزعيم الملهم بالروح والدم.

### سنة غير حسنة:

وصار نشر خطب الزعيم سنة غير حسنة، سارت عليها الصحف طوال ستين عامًا، ولم يخرج عنها إلا صحف ما يسمى بالمعارضة، التي كانت تكتفي في عهدي السادات ومبارك بالإشارة إلى خطاب الرئيس في إيجاز شديد، وفي العناوين الفرعية أوالصفحات الداخلية، ولكن الصحف المؤممة ظلت على ولائها للرئيس والمجلس العسكري، حتى جاء الرئيس محمد مرسي فكان خطابه يحتل مرتبة تالية لحدث مهم في صحف الحكومة، ويأتي ملخصًا وموجزًا، وبعد انقلاب الثالث من يوليو 2013، عاد الاهتمام كبيرًا بما يقوله قائد الانقلاب، مع أنه يشغل منصب وزير الدفاع، أكثر من الاهتمام بما يقوله من

عُين رئيسًا مؤقتا، ويتم النشر مزينًا بصور الوزير في حجم كبير، مثلما كانت الحال في عهد جمال عبد الناصر.

المفارقة أن تأميم الصحف شهد تعيين أصحابها رؤساء تحرير أو في مجلس الإدارة، وكان هناك من تلاميذهم أو زملائهم الذين يعملون معهم من أصبح رئيسًا لهم، وتفانى هؤلاء وأولئك في الإشادة بالزعيم الملهم وقراراته الاشتراكية، التي أممت المصانع والشركات، وصادرت الأراضي والعمارات والممتلكات، تحت دعوى حقوق العمال والفلاحين، وكانت المقالات التي تتحدث عن الاشتراكية العربية والميثاق الوطني الذي قننها وروج لها، تحتل مساحة كبيرة في المقالات والتحقيقات، ويتبع ذلك الحديث عن التنظيمات السياسية التي ينشئها النظام، مثل الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب الاشتراكي، والإشادة بها؛ لأنها تضم قوى الشعب العامل، من عمال وفلاحين ومثقفين ورأسمالية وطنية!!.

**القصص والروايات:**

الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية تكاد تكون نسخة واحدة - كما سبقت الإشارة - باستثناء روز اليوسف وصباح الخير. الأولى كان يحركها إحسان عبد القدوس ابن مُؤسِّستها وصاحبتها، وكانت له علاقة بجمال عبد الناصر وقادة الانقلاب، وإن لم يسلم من كيدهم، فقد أدخلوه السجن، وحاولوا اغتياله بعد ذلك. وقد كان إحسان قبيل الانقلاب ثائرًا، وأثار ما يسمى بقضية الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين عام **1948**، وكانت له مقالات عنيفة ضد بعض الجهات في العهدين الملكي والانقلابي، ولكنه بعد تأميم الصحافة ركز على كتابة القصص والروايات التي تحمل مستوى رمزيًّا، يشير إلى الواقع وأحداثه بصورة ما، وكان يغلف بعض قصصه ورواياته بتصوير بعض المشاهد الحميمة بين الرجل والمرأة، وهو ما كان يجذب القراء، وخاصة من المراهقين إلى مجلته، أو ما كان يعد مجلته. أما صباح الخير، فقد كانت تخاطب الشباب، وتركز على بعض القضايا الاجتماعية، وهو ما كان يجعل جمهورها من الشبان بالدرجة الأولى. وكانت تستعين بالرسوم الكاريكاتيرية التي تتضمن بعض النكات التي تجلب البسمات، وهو ما كان يتوافق مع مزاج المصريين الشباب.

**المغضوب عليهم:**

ومع أن أصحاب الصحف المؤممة لم يعارضوا نظام الزعيم الملهم، وبعضهم بالغ في مدحه وتأليهه، فإنه لم يتركهم وشأنهم، بل وضع اثنين منهم (مصطفى أمين وعلي أمين) في خانة المغضوب عليهم. كان نصيب الأول أنه أدخل إلى قعر مظلمة بتهمة الخيانة العظمى، أوالتجسس لحساب الولايات المتحدة الأمريكية، وهرب الآخر إلى المنفى في لندن وبيروت، ولم ينعما بالحرية إلا في عهد الرئيس السادات.

كان هناك تغييب لأقلام أخرى رأى النظام الانقلابي أن أصحابها ليسوا على مستوى الانتساب إليه، أو نيل شرف الثورية الناصرية، ولم تجد هذه الأقلام فرصتها إلا بعد سقوط النظام الناصري.

وفي كل الأحوال، فقد كنا نحن الشبان الصغار أو الطلاب الناشئين نصدق ما تقوله الصحافة؛ لأنه رأي واحد واتجاه واحد، لا يقابله رأى آخر، ولا فكر آخر.

**الرأي الآخر:**

ولذلك كانت فرحتى باكتشاف الرأي الآخر والفكر الآخر، عندما ذهبت بعد أعوام قليلة إلى رأس البر والإسكندرية، ومن قبلهما المحلة الكبرى، لأرى بعض صحف بيروت الموالية للنظام الناصري تشير - على استحياء - إلى قضايا وموضوعات – معظمها ثقافي - لا تتناولها الصحف المصرية، وتعالجها بطريقة مختلفة، وهو ما يتطابق مع بعض التحليلات التي كان يقدمها راديو العدو من القدس المحتلة، التي كان يسميها أورشليم القدس.

***

## ٧ - أفق على النهر

### صراع من خلال موجات الهواء:

كانت الإذاعات المصرية تكاد تكون نسخة واحدة، بدءًا من نشرات الأخبار والتعليقات، حتى البرامج الحوارية والأغاني والمسلسلات. الفارق في الإطناب والإيجاز؛ لا تجد فيها جديدًا أو شيئًا مغايرًا؛ لذا كان ما تقدمه إذاعة لندن والإذاعة العبرية من القدس المحتلة الناطقة بالعربية جاذبًا لآذاننا وعقولنا. نسمع صياغات جديدة، وأخبارًا مغايرة ولغة مختلفة عما نسمعه في الإذاعات المصرية والعربية. كل منهما قوية وواضحة، وظلتا كذلك على الموجات المتوسطة حتى قرب نهاية القرن الماضي، فاختفت أو كادت إذاعة العدو، بينما تغالب الأخرى صراعًا مع إذاعات أخرى، فتظهر في بعض الفترات النهارية والليلية، وتختفي في بعضها الآخر. وكانت صحف النظام وإذاعاته تحمل على الإذاعتين؛ بوصفهما من إذاعات الاستعمار المعادية، التي تكره مصر والعرب، وتنشر الأكاذيب، وخاصة ما يتعلق بالقضايا السياسية.

كان لإذاعة العدو حضور قوي، وكانت توجه معظم اهتمامها إلى مصر، وتتابع أخبارها في كل مكان حتى الحوادث في أعماق القرى والنجوع، وكان هناك برنامج يتابع الصحف العربية من الكويت إلى المغرب، ويقدم ما تقوله الصحف عن مصر وساستها وسياستها، وهو مختلف بالطبع عما تقدمه صحفنا وإذاعاتنا، وتخصص برنامجًا بعنوان أكاذيب وحقائق، ترد فيه على ما يقال في مصر عن دولة الاحتلال اليهودي، أو عن قضايا أخرى متعلقة بها، ووصل بهم الاهتمام بالشأن المصري أنهم خصصوا برنامجًا باللهجة العامية المصرية، يقدمه مذيع يهودي تحت اسم العم "حمدان"، ويتناول قضية مصرية على لسان فلاح مصري، وفيه رفض واضح لسياسة الحكومة المصرية، أو تشهير بها تجاه القضية المعروضة.

**عداء أقل:**

أما إذاعة لندن فقد كانت تهتم بالشأن العربي عامة والمصري خاصة؛ بحكم ما تمثله مصر من كثافة سكانية وقوة تأثير كبيرة في أحداث العالم العربي، وكانت نشراتها وتحليلاتها وبرامجها تتطابق إلى حد ما مع إذاعة العدو، وإن كان حجم العداء لها داخل مصر أقل من العداء لإذاعة العدو، بالإضافة إلى أن مصريين كثيرين من المشاهير كانوا يتحدثون من إذاعة لندن، أو يقدمون أعمالا أدبية أو فنية من خلالها.

في كل الأحوال، كان الاهتمام بالإذاعتين أمرًا واقعًا أمام تمسك الإذاعات المصرية ومثلها الصحف، بوجهة نظر الحكومة المصرية، وهي وجهة نظر فيها كثير من المبالغة والتضخيم، وتفتقر - في كثير من الأحيان - إلى الصدق والدقة، وهناك أحداث أو موضوعات لا تشير إليها إطلاقًا.

كانت المشكلة بالنسبة إليَّ هي كيفية سماع الإذاعتين، فلم يكن لدينا راديو خاص. بل إن أجهزة الراديو في القرية كانت يومئذ ما زالت محدودة. كنا نسمع قرآن الثامنة ونشرة الثامنة والنصف في الدكان المجاور لبيتنا، نقف أمام باب الدكان، أو نجلس على حافة الجسر القريب، لنستمع إلى الراديو، وكان صوته عاليًا يشبه صوت الميكروفون، ويمكن أن نستمع منه أيضًا إلى الأغاني الشعبية أو المواويل أو التمثيليات الكاملة أو المسلسلة. ويتوقف سماع الراديو إذا كانت البطارية فارغة، كانت البطارية تُملأ من ماكينة الطحين عندما تعمل أو تدور. البطارية في حجم بطارية السيارة النقل، وتحملها امرأة على رأسها في الصباح، وتقطع مشوارًا طويلا حتى تتركها هناك في ماكينة الطحين، وقبيل المغرب تقطع المشوار ذاته لتأتي بها، ويتم توصيلها بالراديو ليعمل.

**حل المشكلة:**

وقد وجدت حلا للمشكلة لدى والد زميل لنا، يعمل ترزيًّا عربيًّا، وكنت أذهب إليه وأجلس في دكانه، وأسهر عنده ساعة أو نحوها بعد العشاء لأقرأ له في بردة البوصيري أو دلائل الخيرات، كانت طبعتهما قديمة غير واضحة، وكان الرجل من كثرة سماعه للبردة والدلائل يصحح لي ما أخطئ في قراءته، ويكاد يحفظهما عن ظهر قلب، وقد حبب إليَّ

البردة وأبياتها، التي لم أكن آنئذ أفهم بعض أبياتها، أو بالأحرى لا أفهم بعض كلماتها، ومن حسن الحظ أن البردة كانت موضوعًا لبعض الأبحاث التي كتبتها في الدراسات العليا، وما بعدها.

في دكان الترزي كانت توجد سماعة كبيرة متصلة بجهاز راديو في البيت المجاور. وكنا من داخل الدكان نخاطب من لديه الراديو عبر السماعة أن يحول المؤشر إلى صوت العرب أو لندن أو القدس أو الشعب أو الإسكندرية، وكنت أحرص على سماع حديث السهرة في التاسعة والربع من إذاعة البرنامج العام، وكان للأستاذ العقاد حديث أسبوعي يشدني، وكان يبدؤه - على غير العادة - بصوته المميز قائلا: أيها السادة والسيدات – مقدمًا السادة على السيدات. تعرفت على فكر العقاد في مجلة الأزهر، وكان له فيها مقالان شهريًّا. الأول يلي مباشرة مقال رئيس التحرير الأستاذ أحمد حسن الزيات، ويتناول قضية فكرية أو ثقافية عامة من خلال التصور الإسلامي، والآخر في نهايات المجلة تحت عنوان ثابت "ما يقال عن الإسلام"، وقد جمعه العقاد أو جمع جزءًا كبيرًا منه في كتاب بالعنوان نفسه، صدرت منه طبعات عديدة فيما بعد.

وكان من المتحدثين في برنامج السهرة كاتب فلسطيني، تعلقت بكتاباته في جريدة "الجمهورية" اسمه "ناصر الدين النشاشيبي". كان يحاول أن يخرج عن السياق العام لكتاب الصحف آنئذ، من خلال أسلوبه العاطفي الحاد. وكان له عمود يومي عنوانه "بالعربي" في الجمهورية، التي كان يرأس تحريرها مع مجموعة تضم بعض قادة الفكر وقادة الانقلاب، وغيرهم من الصحفيين. منهم: طه حسين وصلاح سالم وأنور السادات وكامل الشناوي وإبراهيم نوار وموسى صبري.

**من بلد إلى بلد:**

كان النشاشيبي مشغولا بقضيته الفلسطينية، وكل ما يتعلق بها، وكان يكتب صفحة أسبوعية في الجمهورية بعنوان "من بلد إلى بلد"، وكأنه يعبر عن محنة الفلسطينيين وهم يهاجرون من مكان إلى مكان، ويعيشون غربة مستمرة، على أمل أن يعودوا إلى وطنهم الضائع. كنت أشتري الجمهورية يوم الخميس خصيصًا لأقرأ مقالة النشاشيبي المترعة

بالعواطف والمشاعر الحادة، وكانت في الغالب حافلة بالهجوم على بعض الحكومات أو الحكام الذين كان يراهم معطلين لتحرير فلسطين، أو متقاعسين عن العمل من أجلها، وخاصة في الأردن وتونس وليبيا والعراق. وكان حديثه الإذاعي جذابًا، ويتناول ما يقال عن القضية الفلسطينية، وخاصة لدى كتاب الغرب، وأذكر أنه ألف كتابًا عن فلسطين المحتلة بعنوان "تذكرة عودة"، فأرسلت إليه رسالة ليبعث إليَّ نسخة من الكتاب الذي لم أره في المدينة ولا مكتباتها المتواضعة، فكتب ردًّا ذكيًّا في الجريدة يقول لي: "نفدت التذاكر، ولم يبق إلا العودة". وقد انتقل النشاشيبي من الجمهورية إلى الأهرام مراسلا لها من ألمانيا الغربية آنئذ وعاصمتها بون، وبعد الهزيمة فوجئت بعودته إلى القدس مسقط رأسه، وعلمت بعلاقة تجمعه مع قادة الكيان الصهيوني، وهو ما أصابني بصدمة في الرجل الذي أحببته، وقد كتبت عنه في الأهرام بعد رحيله في مايو 2013 عن عمر فوق التسعين عامًا!

كان هناك إلى جانب العقاد والنشاسيبي آخرون، منهم طه حسين وفكري أباظة، وغيرهما من الكتاب والأدباء والصحفيين، يقدمون في حديث السهرة زادًا ثقافيًّا عميقًا، يحفز إلى التفكير، ويفيد منه المستمعون والمثقفون في كل الأحوال.

### مهارات بسيطة:

وبسبب الراديو توطدت علاقتي بالترزي وأبنائه، فقد كنت أجلس معه في الدكان أوقات فراغي، وأساعده في كيّ بعض الملابس أو تركيب الزرايز، حيث تعلمت بعض المهارات البسيطة في مهنة الترزي، وقد صاحبت نجله الأكبر، وكان طالبًا في دار العلوم، وهو أول من التحق بها من قريتنا، وكنت التالي له في دخول هذه الكلية، مع الفارق الزمني الذي يتناسب مع عمر كل منا، ويبلغ نحو خمس سنوات.

### حدث مهم في القرية:

في مرحلة التعليم الابتدائي في الأزهر، شهدت قريتنا حدثًا مهمًّا، كانت جدتي لأمي طرفًا فيه، وكنت عنصرًا مساعدًا لها أو عكازًا تعتمد عليه؛ بحكم سنها وشيخوختها، كما كانوا يصفونني آنئذ.

فقد كانت هناك مساحة أرض فضاء أمام بيتها، تمتد إلى البيوت المجاورة، وهذه المساحة نشأت بسبب فيضان النيل الذي كان يعلو في أشهر الصيف، فأقامت الحكومة جسورًا ترابية لتمنع مياه الفيضان من اجتياح بيوت السكان، وكانت المسافة بين البيوت وهذه الجسور فضاء، يستخدمها الفلاحون أجرانًا يدرسون فيها القمح والأرز، ويقشرون أعواد الذرة، ويقيمون فيها الخيام والسرادقات للأفراح والمآتم، وكان الناس في القرية يسمونها "التحويلة"، وقد بدا للحكومة أن تفيد من ثمن المساحة الفضاء وتبيعها بالمزاد العلني لأصحاب البيوت المتاخمة لها. فقسمتها إلى مساحات شبه متساوية أمام كل بيت، ووضعت لكل مساحة رقمًا، وحددت موعدًا للمزايدة بمقر مركز بوليس شبراخيت، وأخطرت عمدة القرية بالإعلان عن موعد جلسة المزاد، وقد علم الناس بالأمر إلا جدتي؛ فهي لا تخرج من بيتها، ولا يوجد من يتابع مثل هذا الخبر، ويبدو أنه كان هناك تكتم بين أصحاب البيوت الميسورين أو ذوي السطوة وإدارة القرية؛ حتى لا يعلم بقية الأهالي فيذهبوا إلى المزاد ويشعلوه، وخاصة أن بعضهم سيذهب ليس بقصد الشراء بالدرجة الأولى، ولكن بغرض المكايدة وتصفية الحسابات، فما أكثر الخلافات الصغيرة المكتومة التي تعبر عن نفسها في مثل هذه المواقف، التي تبدو نوعًا من اختبار القوة بين مختلف الأطراف. وجدتي كانت طرفًا ضعيفًا فقيرًا تم استباحة حقها – دون غيرها – لحساب العمدة وشماتة بعض الناس، حيث لم يتقدم أحد للمزايدة على الآخرين؛ لأن من بينهم شيخ البلد وأقاربه وبقية المزايدين من الميسورين الذين يملكون المال، ويمثلون نوعًا من القوة؛ ولهذا تم الشراء بالسعر الذي حددته الحكومة، مع زيادة طفيفة أو رمزية؛ لإثبات انعقاد المزاد والمشاركة فيه.

### تسرب الخبر الصاعق:

جدتي لم تحضر أساسًا، وتم حجب خبر المزاد عنها قبل انعقاده، ولكن الخبر تسرب بعد عودة القوم من شبراخيت، وعرف أبي أن العمدة هو الذي تقدم لشراء القطعة التي أمام جدتي، وقد رسا عليه المزاد، وكان وقع الخبر مؤلمًا وقاسيًا، فهو من ناحية عدوان على امرأة ضعيفة، وهو من ناحية أخرى تعبير عن الاستباحة؛ لأن العمدة لم يتقدم للمزايدة

على قطعة أخرى غير القطعة التي أمام جدتي، أو أن أحدًا لم يجرؤ - بصفة عامة - على المزايدة على أية قطعة ليست أمام بيته، ثم إن الخبر لم يعرف قبل المزاد إلا لدى قلة محدودة.

طلبت مني جدتي أن أكتب خطابًا إلى خالي في المحلة الكبرى، أخبره بما جرى. وقد شكا خالي إلى مصلحة الأملاك بما جرى، فأعادت المزاد مرة أخرى، وجاءت خطابات مسجلة إلى أصحاب البيوت المعنيين بالأمر، فيه تحديد موعد جلسة المزاد الجديدة، وحضر خالي هذه الجلسة مع والدته التي هي جدتي، وهناك قابلهم العمدة مع آخرين، وحاول استرضاءهم، واتفق معهم على التنازل عن نصف القطعة ليبني فيها – حسب زعمه - مقرًّا للسلاحليك الخاص بالخفراء والهاتف الرسمي المتصل بنقطة الشرطة في الرحمانية، ولأن جدتي من النوع الطيب الذي يصدق ما يقال له فقد وافقت، وتمت كتابة عقد وقع عليه بعض الحاضرين في جلسة المزاد بوصفهم شهودًا، ومع أن ثمن الأرض كان يتم تقسيطه على سنوات عديدة، إلا أن جدتي دفعت ما يخصها للعمدة مرة واحدة، حيث كانت القطعة باسمه. المفاجأة أن جدتي فوجئت بعد عدة أشهر ببيع القطعة كلها بما فيها نصيبها إلى عدد من الأشخاص، الذين جعلوها مكانًا لتخزين الأتربة التي يردمون بها الزرائب أي حظائر الحيوانات، وكانوا من النوع الذي لا تستطيع جدتي العجوز ولا خالتي المسكينة مواجهته أو التصدي له، وكان عليَّ - عبر الخطابات التى تمليها جدتي - أن أخبر خالي بكل ما يجري أو يصل إلى الأسماع؛ لعله يستطيع أن يفعل شيئًا.

### محاولات غير مجدية:

وقد بدأ خالي التحرك بكتابة رسائل إلى بعض الكبار أو المؤثرين في القرية؛ للتدخل من أجل إعادة الحق إلى نصابه، وكانت هناك مساومات للحصول على بعض الحق وليس كل الحق، ولم تنته المساومات إلى شيء. وظلت المسألة حديث القرية لفترة طويلة، كنت في أثنائها أذهب مع جدتي إلى نقطة الشرطة في الرحمانية ومركز البوليس في شبراخيت لمتابعة الشكاوى والتحقيق فيها، وكانت هذه أول مرة أضع فيها قدمي داخل مقر للشرطة، الذي كان يمثل لنا نحن الصبيان عالمًا مخيفًا وغامضًا، ولكنني رأيت من خلال مصاحبة

جدتي صورة الضابط والشاويش والعسكري، ورأيت كيف يتعامل الناس داخل مقار الشرطة، ورأيت بعض المحبوسين، ومكان الإسطبلات التي تربط فيها خيول الدورية التي كان يركبها عساكر أقوياء بزيّهم المميز. ولم أسترح أبدًا لمثل هذه الأماكن، بل كنت - وما زلت - أشعر بالانقباض والقلق كلما اقتربت من مكان فيه شرطة، حتى لو كانت شرطة مرور!

كان من الواضح أن محاولات الشكوى إلى الشرطة غير مجدية، ولن تنتج ثمارًا؛ فالضعيف مستباح في كل الأحوال، وقد حاول الشاويش أو كاتب الشرطة ذات مرة أن يخدع جدتي لتوقع على تنازل عن الموضوع برمته؛ بحجة أنه يحرر محضرًا في شكواها، وكان قد جلس أمام البيت، وراح يفرد أوراقه ويكتب "التنازل" الذي كان يسميه محضرًا، ولكن شاءت إرادة الله أن يجلس شخص يبدو متواضع المستوى الاجتماعي بجوار الشاويش، ويعلم ما كتبه؛ بحكم أنه كان حافظًا للقرآن الكريم، ويعرف القراءة والكتابة، فقام على الفور بتحذير جدتي من التوقيع على المحضر الذي هو تنازل عن الأرض والشكاوى، وبوغت الشاويش، ولم يملك إلا أن يلملم أوراقه ويولّي الأدبار، وقد حفظت جدتي للرجل الذي حذرها جميلا لم تنسه حتى وفاتها.

### عشرات من الأفندية:

ومرت أيام صعبة، شعرت فيها جدتي وخالتيّ وأمي وأبي وأنا بمرارة الظلم وقسوته، فالشعور بأنك ضعيف ويسلب منك حقك عيني عينك أشد قسوة من أي ظلم آخر، ولكن أهلي كانوا يرددون دائمًا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي ظهيرة يوم من أيام القهر والظلم، امتلأت قريتنا فجأة بعدد من السيارات وعشرات من الأفندية، وكان خالي بينهم، وكلهم يتجهون إلى بيت جدتي. عرفت من بينهم عددًا من زملاء خالي في العمل، وكان هناك آخرون أعرف بعضهم ولا أعرف أكثرهم، فيما بعد علمت أنهم أقارب للعمدة وموظفون في جهات حكومية وشرطية، وطلبوا حضور مسّاح القرية، وهو من يقوم بالقياس ومعرفة مساحات الأرض والمباني ونحوها. كانت أعداد كبيرة من أهالي القرية قد تجمعوا وفي مقدمتهم المشايخ والأعيان وأعضاء

الاتحاد القومي، وأخذ شريط المسّاح يمتد هنا وهناك، ويتحرك به بعض الحاضرين، والمسّاح في يده بداية الشريط، ويضع على أذنه قلم كوبيا، وبيده الأخرى بعض الأوراق التي يسجل فيها المسافات التي يمر بها الشريط، وكانت هناك شجرة جميز عريقة في قطعة الأرض أمام البيت زرعها جدي لأمي، سببت معضلة للقوم، فكلما انتهى القوم من تقسيم معين للقطعة وأوشكوا على الانتهاء تسأل جدتي عن موقع الجميزة. أين تقع؟ وهل يتمكن منها خصومها الذين باع لهم العمدة أجزاء القطعة؟ في إحدى المرات مثلا وقعت الشجرة في المنتصف أي كان نصفها لدى الخصوم ونصفها في نصيب جدتي، فرفضت القسمة، وأعيد القياس والتقسيم بما يجعل الشجرة وفروعها داخل الجزء الذي يخص جدتي وهو نصف القطعة كما كان متفقًا عليه يوم المزاد الثاني حتى ترضى، وتم ذلك.

### نجم في سماء القرية:

ظل انتزاع الحق حديث الساعة لزمن طويل في القرية. فقد صاحبته عملية وقف العمدة عن ممارسة وظيفته، وكان ذلك أمرًا صعبًا وقاسيًا عليه، خاصة أنه أظهر شماتة المنافسين له، فمنصب العمدة أيامئذ كان أهم عند سكان القرية من منصب المحافظ؛ لأن بيده كثيرًا من مصالح الناس، ويرتبط به حل كثير من مشكلات الزراعة والحوادث اليومية، فضلا عن كونه يمثل هيبة خاصة، يستشعرها من يعيش في القرية، ويعرف عاداتها وتقاليدها.

صارت جدتي نجمًا في سماء القرية، وتحدث الناس عن كراماتها في التغلب على العدوان الذي وقع عليها، وراح كثيرون يؤلفون حكايات حول الموضوع للتسلية، أو تشفّيا من الطرف الآخر، وكنت أستمع إلى بعض ما يقال في القارب الذي يوصلنا إلى المعهد ويعيدنا إلى القرية.

قليلون هم الذين عرفوا حقيقة ما جرى، فقد كان خالي يعرف من يقدره ويتعاطف معه، فقدمه إلى شخصية مهمة في الدولة، طلبت من مدير أمن البحيرة إنهاء الموضوع على الفور، وبالفعل لم تتوقف إجراءات مدير الأمن ضد العمدة إلا بعد أن ذهبت جدتي إليه، وأخبرته أنها حصلت على حقها، وأنها سامحت العمدة فهو مثل ابنها، وانتهت قصة

التحويلة التي فتحت عيني على أشياء كثيرة في القرية والمجتمع والقانون. لقد آلت إليَّ قطعة الأرض التي كانت موضع اختبار القوة والضعف، والظلم والعدل، والباطل والحق، وبنيت فيها بيتي الذي أسكنه الآن. وعند البناء كان لابد من قطع شجرة الجميز التي حرصت جدتي أن تكون بعيدة عن أيدي الخصوم، وقد عارضت ذلك طويلا، ووجدت إجماعًا ممن حولي أنه لابد من قطعها ليستقيم البناء ووصف بعضهم معارضتي بأنها حالة مثالية، وأحسست يوم قطعها أنهم قطعوا جزءًا من كبدي، وأنهم يذبحونني؛ لأن هذه الشجرة كانت رمزًا للمقاومة والصبر، والاعتماد على الله، وكانت مصدر نفع للطيور والبشر والحيوانات، ولكن دورة الحياة لا تتوقف، ومنطقها يغلب كل منطق، ولو كان منطق القيم والمثل. لقد عشت بعد قطعها فترة طويلة حزينًا ومكتئبًا وأتأمل ما جرى للشجرة على امتداد عقود طويلة، كانت فيها مثالا لقصة مؤلمة وقاسية.

### المشاركة تمسح الأحزان:

ومع مرور الأيام وتقلبها بين المسرات والأحزان، فإن المشاركة تمسح ما ترسب في الأعماق من آثار، وتعيد العلاقات الاجتماعية إلى مسارها الطبيعي، لقد كانت هناك وفيات ومناسبات سارة، شارك فيها الخصوم مع غيرهم، وذهبت أحداث التحويلة إلى الماضي، وتوطدت علاقات مع من كانوا يقفون في الجانب الآخر، وهكذا تمضي الحياة فلا يبقى شيء على حاله. لا عداء مستمر، ولا صداقة دائمة، هو تغير وتبدل وفق حركة النفس البشرية وتحولاتها، وإن كان الحق هو الحق والباطل هو الباطل مهما كان أصحاب هذا أو ذاك من القوة أو الضعف، وفي كل الأحوال فإن مواجهة الباطل تقتضي أن يملك صاحب الحق القوة التي تكف الباطل عن الاستباحة وترده عن العدوان.

لقد صرت بعدئذ على علاقة طيبة مع العمدة وابن أخيه شيخ البلد، وبالمناسبة فالعمدة يعد أقدم عمدة في مصر كلها حتى كتابة هذه السطور (سبتمبر 2013م)، وقد أوشك على دخول التسعين، ويتمتع بذكاء كبير ووعي حاد بأحوال المنطقة، ولديه قدرة كبيرة ومدهشة على التعامل مع الواقع وتجاوز المصاعب التي تواجهه، وقد واجه منها مصاعب

بلا عدد، وأهم ما يميزه أنه احتفظ لنفسه بنظام غذائي صارم، حماه من ضعف الشيخوخة ومتاعبها إلى حد كبير.

أما ابن أخيه فكان طيبًا حقًّا، ولا يحب الظلم، وقد بذل جهودًا كبيرة في خدمة الناس، وخاصة في مجال المصالحات الاجتماعية والأسرية. وقد بكيته يوم رحل عن دنيانا، وألقيت كلمة في تأبينه بسرادق العزاء على غير عادتي.

### تجاوز المشكلات:

كان انتقالي إلى الصفوف التالية في المعهد الديني حافلا بالتجارب والمعارف، فقد تجاوزت مشكلة مادة الإنشاء، وصارت قراءاتي تمدني بالمزيد من الرؤى والأفكار، واستطعت في السنة الثانية أن أكتب في امتحان الإنشاء ثلاث صفحات في الموضوع المطلوب، وأن أحصل على ثلاثين درجة من أربعين، وفي الصف الثالث حصلت على خمس وثلاثين درجة من أربعين، وفي الصف الرابع وصلت إلى ثمان وثلاثين، وكان هذا بفضل الله تقدمًا طيبًا، أهلني فيما بعد للكتابة الصحفية والأدبية.

### المجلات الإسلامية:

وقد عرفت في هذه المرحلة أن هناك مجلات إسلامية غير مجلات المصور وآخر ساعة وروزاليوسف، وهذه المجلات كان يوزعها بعض الملاحظين والسعاة في المعهدين الابتدائي والثانوي. كانت مجلة الإسلام التي يصدرها اللواء أمين عبد الرحمن، يوزعها بعض العمال في معهدنا، وكان غلافها من ورق الجرائد مثل صفحاتها الداخلية، وكان شكلها متواضعًا بصفة عامة وثمنها قرش صاغ، وكانت مجلة نور الإسلام يوزعها عم عبد الرحمن ملاحظ المعهد الثانوي وورقها أسمر وغلافها أبيض سميك نوعًا وكانت بقرشين، أما مجلة الأزهر فقد كانت أكثر دسامة فكرية وثقافية، ويكتب فيها كبار الأدباء والمشايخ والكتاب، وتطبع على ورق مصقول أبيض، وثمنها أربعة قروش، وكان يوزعها بالاشتراك عم شحاتة الساعي، الذي يتردد ما بين المعهد الثانوي والبوستة العمومية في دسوق، ويبدو في صورة العملاق؛ فقد كان طويلا، يرتدي زيه الكاكي، ويحمل حقيبة، يضع فيها البريد الصادر والوارد إلى المعهد، وأعداد مجلة الأزهر التي ترد من الإدارة في القاهرة، وقد اشتركت فيها

لمدة سنة نظير عشرين قرشًا (كان هناك تخفيض للطلبة) وتلقيت منه عن طريق العمال عشرة أعداد مرة واحدة، ظللت أقلب فيها وأقرأ ما يعن لي من مقالات أو قصائد طوال الصيف، وكان يجذبني ما يكتبه رئيس التحرير أحمد حسن الزيات بأسلوبه البياني الموسيقي، الذي يختلف عن بقية الأساليب.

عرفت أيضًا في تلك المرحلة مجلة منبر الإسلام، وكانت قد تطورت من شكل متواضع إلى شكل متطور، يعتمد على الصور والورق المصقول، وكان فيها باب للتعارف، ينشر صور الشباب من مصر والعالم الإسلامي، ورأيت في أحد أعدادها صورة لمدرس شاب من بلدة مجاورة كنت أعرفه، وقد أطلعت عليها أبي - يرحمه الله - الذي سره ما يرى؛ فقد كان يعرف والد المدرس الذي كان يعمل في قريتنا من قبل.

كانت منبر الإسلام على عكس الأزهر، تهتم بخطب الزعيم القائد، وتفرد لها صفحات عديدة مع صور غير قليلة بحجم صفحات كاملة، وللأسف كنت أنفر منها، ولم أكن أعرف السبب، مع أني أتابعها.

**سرقة أدبية:**

وكانت متابعتي لمنبر الإسلام سببًا لاكتشاف أول سرقة أدبية، وما أكثر ما اكتشفت بعدئذ من سرقات أدبية كبرى، بل إنني كنت فيما بعد ضحية لبعض اللصوص الأذكياء، الذين سرقوا جهدي وكدي في ميدان الكلمة، دون أن يوخزهم ضمير أو يردعهم دين. كان المعهد يصدر صحيفة حائط، يشارك فيها الطلاب من كل الفصول، وفي عدد من الصحيفة طالعت موضوعًا بعنوان "الجندية في الإسلام" باسم طالب في الفرقة الثالثة، وكنت في الفرقة الثانية. كان اسمه الأول رمضان - على ما أذكر - وكان معجبًا بنفسه ويتجلى ذلك في اهتمامه بعمامته وكاكولته وتسريح شعره ودهنه بالفازلين، فتبدو مقدمته لامعة ظاهرة تحت العمامة، وبسذاجة ريفية ذهبت إلى الشيخ المشرف على الصحيفة، وقدمت له مجلة منبر الإسلام، وقلت له إن الطالب رمضان نقل موضوعه منها في صحيفة المعهد، ووضع اسمه عليه. وما كان من الشيخ إلا أن بعث بمن يأتي له بالطالب، فينهال

عليه بالعصا أمام الطلاب ويتهمه باللصوصية، وتسرب الخبر إلى الطلاب في الفصول الأخرى، ورفعت المجلة من مكانها بسبب هذه السرقة!

ما لم أضعه في الحسبان هو شحنة الغضب التي كان يحملها السارق، الذي ظل يتحرش بي، ويتذكر أنني أهدرت كرامته وقيمته في مشهد لم يكن يتوقعه؛ فقد ظن أن أحدًا لا يقرأ ولا يطالع المجلة التي نقل منها الموضوع، وشجعه على التحرش الفارق الجسماني بيننا، فجسمي ضعيف، وهو ضخم يبدو في حجمي مرتين، وظل الأمر كذلك حتى فارقنا الدراسة في المعهد الابتدائي، وذهب كل منا إلى طريق. وأذكر بعد سنوات عديدة، حيث انتقلنا إلى الحياة العملية، أننا التقينا في أحد الأماكن، فتبادلنا التحية وضحكنا، وكأنه يقول: لقد كان ما جرى نوعًا من هفوات الطفولة والصبا.

وبمناسبة هذه المجلة، فقد كان لنا زميل في فصل الأحناف ينظم الشعر، اسمه الحمراوي، من ناحية سيدي سالم، ونُشرت له قصيدة طويلة في المجلة، وكانت موهبته تبشر بشاعر كبير، ولا أعرف هل استمر ينظم الشعر أو تركه، فقد فرقت بيننا السبل، وعرفت في وقت لاحق أنه تخرج من الأزهر، وعمل بالتدريس في كفر الشيخ أو الإسكندرية حتى أحيل على التقاعد.

**شيخ موهوب:**

كان الشيخ عمار من أكبر الشيوخ سنًّا في المعهد، أبيض الشعر، يتوكأ على عصا مزخرفة ومميزة، ويأتي في قطار الدلتا أو في سيارة من محلة دياي. كان الرجل موهوبًا في الأدب والشعر والخط، وقد درس لنا الإنشاء - على ما أذكر - ثم الخط، وكانت قدراته التعبيرية واضحة حين يصحح لنا موضوعاتنا، وحين يطرح موضوعًا بأفكاره وعناصره، ولكنه - لطيبته الشديدة - كان الطلاب يتقاطرون ويتجمعون حوله عند السبورة؛ مما يحيل الفصل إلى حالة من الهرج والمرج، وهو ما كان يدفعه أحيانًا إلى استخدام عصاه التي يتوكأ عليها لاستعادة النظام أو تأديب المشاغبين. ومع ذلك كان الطلاب لا يكفون عن الذهاب إليه عند السبورة لسؤاله أو تصحيح موضوع، وأذكر أنني كنت في المقعد الأمامي قريبًا منه، وكتبت قصيدة صححها لي عروضيًّا، وكان أولها:

لم نكن قد درسنا العروض بعد، ولكنه كان يقرب إلينا الإيقاع الموسيقي من خلال منظوماتنا المتواضعة، بل الساذجة أحيانًا، التي يُعمل فيها قلمه وصياغته.

أما في حصة الخط، فقد تعلمت منه كيفية الإمساك بالطباشير، وطريقة كتابة خطوط الرقعة والنسخ والثلث على السبورة، كما عرفت منه أنواع الخطوط الأخرى، مثل الفارسي والتاجي والديواني والكوفي والأندلسي، وكان يبري لنا الأقلام البسط، ويوضح كيفية قطع الطرف المهم، الذي يضبط تدوير الحروف وتكوينها، وأشعر أني مدين لهذا الرجل بتذوق جماليات الخط العربي والتفوق فيه، بل وتدريسه في التعليم العام والتعليم الجامعي، عندما كنت معارًا في الخارج. وكنت وما زلت أتابع الخطوط في الصحف والمجلات وأغلفة الكتب واللوحات والإعلانات، وأفرق بين الكتابة الأصيلة والكتابة الزائفة أو غير الجيدة. وقد حزنت عندما استغنت الصحف عن الخطاطين أو معظمهم، واكتفت بخطوط الكمبيوتر، وهي خطوط غير دقيقة؛ لأن طبيعة الكتابة على الكمبيوتر تحول دون تحديد التدوير الجيد للخطوط، وتمنع إظهار الناحية الجمالية للحروف. ومع ذلك - كما أسمع - فهناك محاولات حثيثة لاستدراك الفارق بين الخط اليدوي وخط الكمبيوتر، ونأمل أن تكلل بالنجاح.

الشيخ عمار كان ذكيًّا وموهوبًا، وظل يؤدي دوره حتى انتهت مهمته. رحمه الله حيا أو بجوار ربه.

### جدية التدريس:

وكان من بين المشايخ من يدرس لنا الفقه والنحو والتوحيد ومواد أخرى، وكان ما يميز هذه الفترة هو جدية التدريس، والأسئلة الكثيرة من جانب الطلبة، وصبر المدرسين عليهم وإجابتهم حتى في الأسئلة المفترضة أو المتخيلة، وخاصة في الفقه.

وأذكر أن الشيخ أبا الوفا الصعيدي – وكان الطلاب يخافونه في امتحانات الشفهي، وخاصة في القرآن - كما أوضحت في موضع آخر – درّس لنا السيرة النبوية في الصف

الثاني، وكان يقرأ معنا الكتاب المقرر كلمة كلمة وسطرًا سطرًا، ويضع أسئلة تغطي كل فقرة من فقرات الكتاب، مع الشرح والتفسير والإضافة التي كنا نكتبها على هوامش الصفحات؛ ولذا كانت نسبة النجاح في هذه المادة من أكبر النسب.

بصفة عامة، فقد كانت الدراسة الأزهرية جادة وعملية، وكان الحفظ عنصرًا مهمًّا، كما كان الفهم عنصرًا أصيلا. بعض الناس يعيبون الحفظ، ويتهمون الأزهر بل الإسلام بالبعد عن إعمال العقل أو العقلانية كما يسمونها. الحقيقة أن العلم لابد له من حفظ بدرجة ما، وإلا فكيف أتعامل مع المواقف المختلفة والمسائل الطارئة، دون أن أكون حافظًا للنظريات الأساسية، والنصوص الدالة، والبراهين الموثقة؟! لابد للطالب الأزهري مثلا أن يحفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث الشريفة، وشواهد الشعر، وبعض الأمثال، والمأثورات؛ ليستطيع أن يواجه ما يطرح عليه من قضايا واستفسارات، أو ما يطلب منه في المناسبات والاحتفالات. أما مسألة الفهم أوإعمال العقل فهي جزء أصيل من التكوين المعرفي في التعليم الأزهري قبل عام **1961**م، الذي بدأ فيه تطبيق قانون ما يسمى تطوير الأزهر.

### الدليل النقلي والدليل العقلي:

لقد كان هناك مثلا ما يسمى بالدليل النقلي والدليل العقلي؛ **الأول**: يقوم على الحفظ، ويعتمد على الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وموقف علماء الأمة، **والآخر**: فيه مقدمات أو فروض عقلية، يتم البرهنة عليها لتصل إلى نتائج، وكثيرًا ما كان يطرح الدليل النقلي والدليل العقلي معًا في مسائل الفقه والتوحيد، كما كانت الآراء المتباينة لأصحاب المدارس والمذاهب تظهر في النحو والصرف والعقيدة والشريعة، وكانت تقوم على طرح الرأي والدليل وما يرجحه أو ينقضه، ما يقويه أو يضعفه، وقبل ذلك وبعده كان النقاش يدور دائمًا حول كل ما يطرح في قاعة الدرس، فتكون هناك أسئلة وتكون هناك إجابات.. وهو ما لا يتوفر في التعليم الحالي بكل أنواعه إلا قليلا.

قد تمتد هذه المناقشات فيما بيننا نحن الطلاب، عندما نذهب إلى المعهد أو نعود منه، وكانت تنعقد حلقات النقاش عفويًّا على ظهر المركب بأسئلة من الطلبة الكبار لزملائهم

الصغار، مع طرح المسائل الصعبة والمعقدة في الفقه والنحو وخاصة الإعراب، كانت المناقشات نوعًا من الاستذكار والاستيعاب، والحض على مراجعة الكتب، والتهيؤ بأسئلة وقضايا للغد وما بعده.

### حلقة درس مفتوحة:

سطح المركب كان يشبه حلقة درس مفتوحة وحلقة تدريب دائمة؛ فإلى جانب ما كان يثار من موضوعات علمية وغيرها، تفتح آفاقًا وتجلى مسائل غامضة أو صعبة، كان هناك مجال للتدريب على تلاوة القرآن مجودًا وتقليد كبار القراء الذين كنا نسمعهم في الإذاعة، أو يأتون إلى قريتنا للتلاوة في ليالي المآتم والمناسبات الدينية. كانت التلاوة المجودة تفتح الطريق ليترك الطالب الخجل ويتشجع على الأداء، كما كانت تهيئ لمزيد من التجويد والإتقان، وتفتح الباب أمام الموهوبين وأصحاب الأصوات الجميلة ليكونوا قراء في المستقبل. كثير من مشاهير القراء كانوا طلابًا أزهريين، يقرءون في الفصول ووسط زملائهم، ويتدربون في المساجد وافتتاح الحفلات والمآتم، حتى صاروا من كبار القراء. ومع لمعان بعضهم في مجال التلاوة المجودة، فقد كانوا يمارسون وظائفهم العملية في التدريس أو الإمامة أو المأذونية أو التحفيظ، أو غيره، دون أن يتوقفوا عن التلاوة المجودة في كل مكان يطلبون إليه.

### الأزهر ينفي خبثه:

كان من المقولات التي يحفظها الأزهريون حينئذ: "إن الأزهر ينفي خبثه" على غرار المقولة المأثورة: "إن المدينة تنفي خبثها"، والمقصود المدينة المنورة، مُهاجَر النبي ﷺ ومثوى أعظمه العطرات.

كان طلاب الأزهر في مجموعهم طيبين هادئين جادين، يواجهون الحياة وصعوبتها بجد وصبر ورضا واطمئنان، ولكنهم مع ذلك يحبون الفكاهة ويخترعون النكتة، ويروون النادرة، ويضحكون من القلب، وكانوا أصحاب أمزجة في حدود قدراتهم.

مثلا كان طلاب فوة - أو الخط الذي يسير عليه قطار فوة، ويبدأ غالبًا من مطوبس، مرورًا ببعض القرى حتى دسوق - يحضرون إلى المعهد مبكرين في حدود السابعة صباحًا

أو قبلها بقليل، فيفترشون المقاعد، ويضعون عليها الخبز والفلافل والباذنجان المقلي والطرشي، وما تيسر لهم من أجبان ونحوها، ويعقدون جلسة إفطار مليئة بالمرح والفكاهة.. ينتقلون بعدها إلى الشاي في غرفة العمال. قد يخرج بعضهم سيجارة مخبأة، فيدخنها وسط استنكار من الآخرين. وغالبًا ما يكون التدخين علامة على سلوك غير مقبول، وكان صاحب هذا السلوك إذا تمادى فيه يصبح من المعاقين دراسيًّا، وتبدأ الإعاقة بدخول امتحان الدور الثاني (الملحق) في الامتحانات، ثم الرسوب، وإذا تكرر الرسوب تكون هناك سنة استثنائية، وبعدها يكون الفصل النهائي، وهنا تنطبق مقولة "الأزهر ينفي خبثه". ورأيت بعض زملائي - وكانوا للأسف أذكياء - قد غادروا المعهد إلى غير رجعة، وألقت بهم المقادير بعيدًا عن المهمة الجليلة، التي يعدهم لها الأزهر الشريف.

وللأسف أيضًا كان بعضهم يترك الأزهر فجأة، وينصرف تمامًا إلى عالم آخر، وقد تكون الأسباب عائلية أو نفسية أو غيرها، ورأيت بعض الطلاب في القسم الثانوي تركوا الدراسة دون مقدمات، بل تركوا موطنهم الأصلي، وذهبوا للعمل في القاهرة أو الإسكندرية أو كفر الدوار أو غيرها، ولم نعد نراهم بعد ذلك، وإن كان أقاربهم ينقلون طرفًا من أخبارهم.

### زمان الغش الجماعي:

ويمكن القول إن نظام التعليم في الأزهر كان فعالا، ولم يكن هناك مجال للفوضى أو الإهمال أو التسيب. كانت امتحانات الأزهر لا تعرف الغش ولا المجاملات، ثم عشنا حتى رأينا زمانًا صار فيه الغش جماعيًّا، ويكتب المدرسون الملاحظون إجابات الأسئلة على السبورة، ويفشل الطلاب في نقلها. وكثيرًا ما تندرت على طلاب المعاهد المعاصرين، وهم يتجمعون بعد الخروج من الامتحان، وأسألهم: كتبوا لكم على السبورة أم أملوكم؟ فيضحكون ويطأطئون رءوسهم؛ إقرارًا بالأمر الواقع الكريه!

وهذا الأمر لم يأت فجأة، لقد كان استجابة لانهيار التعليم العام على مدى عقود طويلة، وما رافقه من خلل اجتماعي شنيع. لقد بدأ الأمر بقانون تطوير الأزهر الذي صدر عام **1961**م تحت رقم **103**، وكانت الغاية المعلنة لهذا القانون تحديث الأزهر وطرق

التعليم فيه، وإدخال المواد التي يدرسها طلاب التعليم العام إلي معاهد الأزهر وكلياته، وتخريج الطبيب والمهندس والصيدلي، وغيرهم؛ ليحملوا راية الدعوة في الداخل والخارج، وهو أمر يبدو جيدًا، ولكن الوصول إليه لم يكن جيدًا بحال.

### تغيير المُسمّى:

بوغتنا مع بداية الفرقة الرابعة الابتدائية بتغيير مسمى المعهد إلى المعهد الإعدادي الأزهري بدلا من معهد دسوق الديني الابتدائي، وفوجئنا بتضخم المقررات، فقد ضوعفت المواد التي ندرسها؛ فإلى جانب المواد التي اعتاد الطلاب دراستها وهي كثيرة، أضيف إليها المواد التي يدرسها طلاب المرحلة الإعدادية في التعليم العام، باستثناء ما يسمى هناك اللغة العربية والدين، وصار طلاب الأزهر المساكين يدرسون الإنجليزية والفرنسية والجبر والهندسة والعلوم والجغرافيا والتاريخ والتربية الوطنية وغيرها، وعرف المعهد مدرسين من الأفندية، منتدبين من المدارس الإعداية بالمدينة لتدريس المواد التي لا يتقنها المشايخ. وبدلا من انتهاء اليوم الدراسي في الحصة الخامسة في الأيام العادية أو الرابعة يومي الاثنين والخميس، صار اليوم الدراسي ينتهي في السابعة في كل الأيام، وظهرت مشكلات توفير الكتب للمواد الطارئة، وصار علينا أن نبحث عنها لدى طلاب المدارس الذين عبروا إلى المرحلة الثانوية، أو طلاب الإعدادي العام أنفسهم.

تضخم المواد لم يقتصر على طلاب الفرقة الرابعة الابتدائية التي ننتسب إليها، وصارت تسمى الرابعة الإعدادية. كل الفِرق أضيف إليها مواد جديدة، بداية من أولى إعدادي حتى الخامسة ثانوي، وبعدئذ خفضت سنوات الدراسة في الإعدادي والثانوي، وتمت عملية اختزال لعلوم الأزهر الأصلية، ركزت على المواد الشرعية واللغوية لحساب مواد التعليم العام، حتى صارت الآن تشبه ما يسمى اللغة العربية والدين في التعليم التابع للوزارة.

### مشكلة اللغة الأجنبية:

كانت المشكلة بالنسبة للطلاب تكمن في دراسة اللغة الأجنبية. كان عدد المدرسين محدودًا، والطلاب لم يدرسوا هذه اللغة من قبل، وبدا الأمر مزعجًا للطلاب وللإدارة على

السواء، وقد بدا للإدارة أن تخصص فصول المالكية والشافعية لدراسة الإنجليزية، وفصول الأحناف لدارسة الفرنسية. ولقلة المدرسين فقد قللت الحصص الدراسية، ثم قللت المنهج، وخصصوا ما يعادل 60٪ من مقرر الصف الأول الإعدادي في اللغة الإنجليزية بالمدارس العامة، ومثل ذلك للفرنسية، وبدأت الدراسة وسط حرج شديد يستشعره الطلاب ويدهش المدرسين، فالطلاب الأزهريون معروفون بالانتماء للغة العربية الفصحى، وتبدو علاقتهم باللغات الأجنبية غير مألوفة، وحظيت دراسة الإنجليزية بكثير من الطرائف، ونهض بعض الطلاب في الثانوي بتأليف منظومة ألفية لتعليم الإنجليزية على غرار منظومة ألفية ابن مالك في النحو.

ومع ذلك فقد اجتهد الطلاب في استيعاب المقرر، وأشاد المدرسون بتجاوبهم، ولكن محصلة تطوير التعليم في الأزهر كانت مأساوية؛ بسبب كثرة المواد، وصعوبة النهوض بها، وكشفت نتيجة الامتحان آخر العام عن نسبة رسوب عالية، وكان يعد محظوظًا من أتيحت له فرصة دخول امتحان الدور الثاني. أما من نجح في الدور الأول فهو من الفائقين، وأحمد الله أنني نجحت بدرجات عالية ضمن هؤلاء.

### الحمل ثقيل والمواد كثيرة:

بيد إن إحساسًا بالقلق وعدم الراحة أو عدم الرضا انتابني، بدأت أفكر في المستقبل، كيف سأواصل الدراسة في هذا الجو الصعب. الحمل ثقيل، والمواد كثيرة، والجهد فوق الطاقة، وإمكانات التدريس التي يوفرها المعهد تبدو محدودة، وسمعت أو قرأت يومئذ عن المعهد الثانوي الأزهري النموذجي بالقاهرة، الذي يستوعب الطلاب الفائقين، ويتولى إقامتهم وإعاشتهم ليفرغوا تمامًا للدراسة والتفوق، وتخريجهم طلابًا ممتازين يلتحقون بالكليات المهمة مثل الطب والهندسة والصيدلة، وغيرها من الكليات التي أنشأها قانون التطوير، وكان المعهد يشترط اجتياز امتحان شفهي للقبول.

أخبرت أبي برغبتي في الالتحاق بهذا المعهد، ولكنه بدا محايدًا، والحياد هنا علامة من علامات عدم الموافقة، فقد كان يحرص على عدم رفض رغبتي، بعد أن بينت له أن هذا

المعهد سينفق عليَّ، وستكون الدراسة فيه أفضل من الدراسة في معهد دسوق الثانوي. شجعتني أمي، ومنحتني بعض النقود لزوم السفر.

عرضت فكرة الالتحاق بالمعهد النموذجي على زملائي في القرية الذين نجحوا معي في الإعدادية؛ ليشاركني واحد منهم أو أكثر في هذه المرحلة .. وجدت منهم إعراضًا عن خوض التجربة، ربما يرجع ذلك إلى طبيعة الريفيين التي تنفر من الغربة والانتقال من جو القرية الهادئ، الذي يتعاطف الناس فيه مع بعضهم ويتضامنون، إلى مجتمع المدينة الصاخب، الذي لا يهتم فيه أحد بأحد.

**السكن في المدينة:**

كان بعضهم قد آثر أن يسكن في المدينة أيام الدراسة، ربما وجد من يشاطره الغرفة المستأجرة للسكنى من أهل القرية، أو سكن مع زملاء من المعهد جاءوا من قرى بعيدة من مراكز قلين أو سيدي سالم أو فوة، ولكنه لا يحب الغربة في القاهرة المجهولة.

كان السكن في المدينة التي لا تبعد أكثر من عشرة كيلو مترات عن القرية، يعد غربة وبعدًا عن الأهل والموطن، خاصة وأن الطلبة في غربتهم أو سكناهم في المدينة كانوا يقومون بالطبخ والكنس والغسل، والخروج إلى السوق لشراء لوازم الإعاشة والإقامة.

وكان السكن في المدينة يوفر لصاحبه وقتًا يستثمره في المذاكرة، بدلا من الوقت الذي يضيع في الذهاب من القرية إلى المعهد والإياب منه بوساطة المركب، وخاصة في الأيام التي تكون فيها الريح معاكسة أو ساكنة، ويضطر الركاب وهم الطلبة أن يستخدموا المجاديف أو اللبان وهو حبل طويل يجر المركب بجوار الشاطئ، ويستغرق الأمر ساعتين أو أكثر. وكان الركاب – وهم الطلبة في الأغلب - يكتفون أحيانًا بالعبور إلى الشاطئ المقابل، ثم تأخذهم حمية الشباب إلى التسابق جريًا للوصول إلى المدينة والمعهد بطريقة أسرع مع اختصار الطريق عبر الزراعات والحارات، أما المركب فيقوم صاحبه بالإبحار عكس الريح حتى يصل بعد وقت طويل.

قد يستضيف الزملاء ممن سكنوا في المدينة بعضًا منا لسبب وآخر للمبيت ليلة عندهم، فيحتفون به في حدود إمكاناتهم المتواضعة. وكانت هذه الضيافة طريقًا لتوثيق العلاقات الإنسانية، فقد امتدت لتكون زيارات متبادلة إلى القرى التي ينتمون إليها في الصيف، حيث تكون الضيافة عائلية، وتتسع دائرة المعارف بمعرفة الآباء والأقارب، وقد ظلت هذه العلاقات وثيقة إلى وقت قريب؛ حيث قطعها الموت، أو السفر إلى خارج البلاد، أو الانتقال للإقامة في مدن بعيدة.

**خوض المغامرة وحيدًا:**

لم أجد من يشاطرني السفر إلى القاهرة. وبدا أني سأخوض المغامرة وحدي، وأقول المغامرة؛ لأني لم أتجاوز المدينة القريبة من قريتي التي أذهب إليها بالمركب. في الماضي البعيد ركبت القطار مع أبي لأذهب إلى خالي بالمحلة الكبرى، وكانت رحلة تاريخية ظللت أحكي لأسرتي وزملائي عنها سنوات عديدة، وقبل سنوات قليلة عرفت كيف أسافر إليها بالأتوبيس أو الحافلة على مرحلتين؛ الأولى: من دسوق إلى كفر الشيخ والثانية: من كفر الشيخ إلى المحلة، فكيف سأسافر إلى القاهرة أو مصر كما نطلق عليها في القرية؟

القوم يرونني صغير السن بالنسبة للسفر وحدي إلى القاهرة. كنت أوشك على بلوغ السادسة عشرة، ولكن حجمي الضئيل، وسذاجتي الريفية، وعدم معرفتي بطبيعة القاهرة والسير في دروبها، تجعل المسألة صعبة، ثم كيف أقيم هناك؟ ليس لي أقارب أو معارف يمكن أن يضيّفوني ويسهّلوا لي المسألة؟

وطرح بعضهم سؤالا: هل لابد من الالتحاق بهذا المعهد؟ ابق هنا مثل زملائك والله يتولاك.

**انهيار .. وتضاؤل:**

ولكن الخلل الذي جرى لبنية التعليم الأزهري، ومظاهر الإعاقة التي تجلت في امتحان الشهادة الإعدادية، وارتفاع نسبة الرسوب، وظهور طلبة التعليم العام في وضع أفضل من طالب التعليم الأزهري، جعل البقاء في معهد دسوق مسألة صعبة أو غير مقبولة بالنسبة لي. كأنني كنت أتمنى أن يبقى الأزهر كما هو، مدرسة للشريعة واللغة،

وهذا يكفي جدًّا؛ فقد ظل الأزهر كذلك منذ الثلاثينيات حتى قرار التطوير، وهو يخرّج الموهوبين في الدعوة والسياسة والفكر والأدب والشعر والصحافة والتعليم والثقافة بوجه عام، وكان خريجوه قادة المجتمع بصورة وأخرى، وكانوا في مقدمة الثورات والانتفاضات، وكان علماؤه ملجأ، يلجأ إليه الناس لرد المظالم والحقوق، والانتصار للضعفاء والبائسين. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي: هل سيكون الأزهر هكذا بعد التطوير وقد انكسر طلابه أمام المواد الكثيرة، فأضاعوا تعليم الدين والدنيا معًا؟

كأنني كنت أتنبأ بما سيأتي وإن لم أدرك تفاصيله وطبيعته، فقد انهار الأزهر وتضاءل، مع توسع معاهده والإكثار من كلياته، ومرت به مراحل صعبة، كتبتُ عنها عشرات المقالات فيما بعد؛ لمحاولة إصلاحه، وتدارك السلبيات الفظيعة التي نتجت عن الوضع الجديد، وللأسف تمت المعالجات بصورة أدت إلى مزيد من السلبيات .. لقد تم تخفيض سنوات الدراسة؛ لتكون مطابقة لسنوات التعليم العام، كما تم تخفيض المقررات الإسلامية والعربية حتى صارت مواد الشريعة والعقيدة واللغة تكاد تكون مماثلة لما يدرسه طلاب التعليم العام، فضلا عن دخول الطلاب إلى المعاهد دون أن يحفظوا القرآن الكريم؛ على أمل أن يحفظوه على مدى سنوات الدراسة، وهو ما لا يتحقق إلا في الطلاب الذين يقوم ذووهم بمبادرة شخصية لتحفيظهم القرآن لدى المقرئين خارج المنهج الدراسي، وظهرت في العقود الماضية دعوى خبيثة لتوحيد التعليم الأزهري مع التعليم العام؛ للقضاء على خصوصية الأزهر، بل القضاء على الأزهر نفسه لأسباب شتى. والحمد لله أن هذه الدعوى لم يُستجب لها حتى الآن.

### اختفاء المواهب الأدبية والفكرية:

لقد صار مستوى الطالب الأزهري متواضعًا إلى حد كبير؛ مما أثر في كثير من المجالات التي تفوق فيها الأزهريون قديمًا، واختفت المواهب الأدبية والفكرية إلى حد كبير، وصار أبناء التعليم العام يعبرون إلى الأزهر ليلتحقوا بما يسمى كليات القمة: الطب، الهندسة، الصيدلة، اللغات والترجمة، الإعلام، ولكن المحصلة في النهاية غير

مرضية، فالمستوى العام للخريجين أقل من المتوسط، وإن لم يمنع ذلك من وجود أقلية لا بأس بها أو فائقة.

على كل، فقد كانت فكرة المعهد النموذجي راسخة في ذهني، ومن خلال تداول الأمر بين المعارف في القرية، عرفت أن هناك سكنًا مجانيًّا لطلبة الكليات الأزهرية في شارع محمد علي أو القلعة، وهناك بعض الطلاب من القرية يقيمون فيه، ويمكنهم قبولي بينهم لأبيت ليلة أو أكثر.

هناك من شرح لي كيفية السفر وركوب الأتوبيس البولمان من دسوق، الذي يقطع المسافة في نحو أربع ساعات ونصف الساعة، حيث يتوقف في عدة محطات في الطريق: بسيون – طنطا - بنها، ولا يمنع ذلك أن يتوقف أيضًا لدقائق في الطريق، يحمل بعض المسافرين من القرى والمدن التي يمر بها. وعرفت أن نهاية الرحلة في باب الحديد، أو خلف باب الحديد، ومن ثم يمكن بعد الانتقال إلى ميدان رمسيس وركوب الترام إلى القلعة نهاية شارع محمد علي، ويستطيع الكمساري أن يرشد إلى مكان السكن أو قريب منه.

المسألة إذًا محلولة وميسرة، ولم يبق إلا التنفيذ.

* * *

## 8 - مفترق الطريق

### السفر إلى أم الدنيا:

هأنذا أرتدي أفضل جلباب، وأحسن طاقية بيضاء ذات حائط، والحذاء الملمع، وأتجه إلى دسوق، وأستقل أول أتوبيس أو حافلة في طريقها إلى أم الدنيا، مصر (القاهرة). كانت أمي تودعني على باب الأتوبيس، وتوصيني أن أحافظ على نفسي مع مجموعة من النصائح الأخرى، التي يحملها من يزور المدينة الكبيرة الغامضة لأول مرة. طوال الطريق كنت أتابع القرى والمدن والزراعات والمعالم. وفي باب الحديد كان عالم مدهش لم أعرفه من قبل. خلق كثيرون من شتى البلاد، وسيارات وحافلات وترام، أو الترماي كما كان يسمى، وهو يشبه القطار الصغير، ولكنه يمشي بالكهرباء التي يتصل بها عن طريق ذراع طويلة، يسمونها السنجة، مثبتة بما يشبه البكرة التي تدور مع أسلاك الكهرباء المشدودة إلى أعمدة متقاربة. سألت عن الترام رقم **13**، وأعطيت الكمساري قرش صاغ، وطلبت منه أن أنزل عند السكن الذي وُصف لي، فأعاد إليَّ مع التذكرة بضع مليمات، وعندما اقترب السكن أنزلني الرجل، لأمشي بضع خطوات، وأصل إلى مكان الإقامة.

كانت العمارة قديمة للغاية، ويبدو أنها مملوكة للأوقاف، ومتاحة للطلاب الفقراء. كان السلم الذي يؤدي إلى السكن عاليًا جدًّا، ولكن القذارة تعم المدخل والسلم والطرقات، والسكان يلقون بالزبالة في الأركان، وكان الطلاب الذين سأنزل عندهم يقيمون في غرفة كبيرة جدًّا مرتفعة الجدران، يتوسط سقفها مصباح كهربي صغير. كانت الغرفة تضم بعض السرر السفاري القديمة المتواضعة، فضلا عن حصير عريض فيما بينها، يتمدد عليه عدد منهم بجوار بعضهم، وينامون بلا غطاء؛ فقد كان الوقت صيفًا شديد الحرارة.

### الطريق إلى ولي العهد:

استقبلني من يعرفني، وشرح لي مكان المعهد النموذجي في العباسية بشارع ولي العهد، ووضح لي طريق الوصول، ورقم الترام الذي يوصل إليه، وتركوا لي سريرًا كي أنام عليه؛ تكريمًا لي بوصفي ضيفًا يزورهم لأول مرة.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى العباسية، ودخلت إلى المعهد في شارع ولي العهد بجوار القبة الفداوية، وقدمت أوراق الالتحاق، وعرفت موعد الامتحان الشفهي، وكان بعد أسبوعين تقريبًا، ويعني ذلك أن أعود إلى القرية، ثم أحضر لأداء الامتحان.

قضيت الليلة في القاهرة، وفي الصباح الباكر ركبت الترام إلى باب الحديد، ومنه إلى دسوق فالقرية، وعند وصولي أحسست أنني حققت نصرًا كبيرًا، فقد زرت القاهرة وحدي، وعدت دون أن أتعرض لمشكلات أو صعوبات.

ورحت أحكي لأبي وأمي عما شاهدته في القاهرة، وعما فعلته في المعهد النموذجي، ومع أن أمي كانت سعيدة برحلتي، فقد أحسست أن أبي لم يكن مرتاحًا، ولكنه لم يفصح عن شيء. وقد قضيت الأيام المتبقية على الامتحان في الاستعداد له، وقبل الموعد بيوم توجهت ثانية إلى القاهرة، ووصلت إلى السكن بعد الظهر. كان الطلاب المقيمون فيه من كبار السن الذين التحقوا بالأزهر في سن متأخرة نسبيًّا، وكثير منهم متزوج، وبعضهم يعمل في مدارس خاصة؛ ليتمكن من الإنفاق على نفسه، وكان أحدهم يعمل في مكتبة مسجد السيدة زينب، واسمه الشيخ عبد الظاهر، وقد صحبني لصلاة العصر هناك. اخترقنا الحلمية الجديدة سيرًا على الأقدام في طريق مختصر، لأرى لأول مرة المسجد الزينبي، الذي يتحدث عنه الناس في القرية وعن ساكنته السيدة زينب أم هاشم، بمشاعر فياضة من الحب والمودة. لا أدري هل عدنا بعد الصلاة مباشرة أو بقينا حتى صلينا المغرب، ولكني انبهرت بالمسجد وما حوله، وتذكرت أن خالي غير الشقيق وأبناءه يسكنون في المنطقة المحيطة بالمسجد، والعمارة التي يقيمون بها تطل على الميدان، كما فهمت يوم زارنا في القرية أحد الأبناء؛ ليتعرف على عمتيه غير الشقيقتين، إحداهما أمي.

### امتحان في المعهد النموذجي:

في طريق العودة إلى السكن شرح لي الشيخ عبد الظاهر كيفية الطريق إلى الحسين، المجاور لإدارة الأزهر، وجامعه العريق. وأخبرني أنه يمكن أن أذهب إلى هناك بركوب الترام إلى أول شارع الأزهر، ثم أمضي على قدمي إلى الجامع والإدارة والحسين. ولكني كنت مشغولا بامتحان الغد في المعهد النموذجي.

لم أجد صعوبة في أمر الطعام طوال أيام الرحلة القاهرية. كنت في الصباح أذهب إلى أحد المطاعم لأحصل على بعض الشطائر (السندويتشات)، أتناولها في المقهى مع الشاي، ثم أنطلق إلى المعهد أو إلى مكان آخر، وكنت أفضل المشي حين يكون الوقت باكرًا، فأتأمل اللافتات والأماكن والمطابع والمكتبات والزنكوغراف والمقاهي والمحلات، وعرفت محلات الكشري، وكان الطبق أيامها بقرش صاغ، وهناك طبق مزدوج (دوبل) بقرش ونصف قرش. وكنت في المساء أشتري جبنًا وزيتونًا وخبزًا، وكان الخبز أيامها متوفرًا ومتنوعًا وجيدًا، وأتعشى على مقهى وأشرب الشاي .. وهكذا كانت الأمور محتملة، خاصة في الفترة التي أقمتها في انتظار نتيجة الامتحان.

كان الامتحان بالنسبة لي معقولا، وقد أجبت عن الأسئلة التي طرحها الممتحنون، وأحسب أني لم أخطئ، وعقب الامتحان رأيت زميلا من معهد دسوق جاء ليلتحق بالمعهد النموذجي، كان من شباس الشهداء، وكنت أعرفه، مع أنه لم يكن في الفصل الذي كنت أدرس فيه بمعهد دسوق، فقد كان المعهد يتيح لنا فرصة التعارف والصداقة. حين رأيته أحسست بالسكينة والاطمئنان، فهناك من سيشاطرني التجربة ويؤنسني. وأظنه كان سعيدًا بوجودي هو الآخر. كان له أخ يعمل معيدًا في كلية اللغة العربية أو دار العلوم، ويسكن في المغربلين بالقرب من الجامع الأزهر، وقد ذهبنا لزيارته هناك، حيث كان يسكن مع مجموعة من زملائه في غرفة بالطبقة الأرضية، ولا أظن أني تحدثت معه، فقد كانت الغرفة مزدحمة، وهو يقرأ في كتاب مضطجعًا يرتدي بيجامة، أو منامة كما يسميها أهل اللغة، وظل على حاله بعد أن سلم علينا، وانشغل الزميل مع الآخرين، وبقيت صامتًا أرقب ما حولي حتى انصرفنا بعد وقت قصير. ومنذ تلك اللحظة لم ألتق بهذا الزميل حتى الآن، وإن كنت قد التقيت بأخيه الذي كان معيدًا بعد عقود في بعض المناسبات الثقافية، وكان قد صار أستاذًا جامعيًّا بعد بعثة إلى الخارج، والعمل في بعض الوظائف التابعة للخارجية، وبعد استقراره في مصر وعمله في إحدى الجامعات، صار نجمًا من نجوم نظام مبارك في المجال الثقافي، فأغدقت عليه مناصب ثقافية، ومنحت له امتيازات أدبية؛ بحكم انتمائه للفكر اليساري، ومهاراته في العلاقات العامة مع المسئولين، ومن بيدهم اتخاذ القرار. أما أخوه الذي كان زميلي في التقدم للمعهد النموذجي،

فقد حصل على الدكتوراه من بلد أوربي، وعاد ليكون أستاذًا في جامعة الأزهر - كما علمت - دون أن يكون له نشاط خارج الجامعة.

### جولات في القاهرة القديمة:

كانت الأيام التي انتظرت فيها إعلان نتيجة الامتحان فرصة للتعرف على معالم المنطقة المحيطة بالقلعة. زرت مسجدي الرفاعي والسلطان حسن، ومسجد محمد علي (القلعة)، وذهبت إلى الحسين والأزهر، وتجولت فيما حولهما، وتعودت على اختراق الحلمية لأذهب إلى السيدة، وتجولت في العتبة والموسكي وحديقة الأزبكية.

### تغيير مسار:

وذات ليلة وأنا أستيقظ مبكرًا مع الفجر، عاد من القرية الشيخ أبو النصر، وهو من سكان الغرفة. كان قد تخرج في كلية اللغة العربية منذ فترة، ويعمل في مدرسة خاصة انتظارًا للتعيين في الحكومة. أظنه يومئذ قد تجاوز الثلاثين. لم يكن قد تزوج بعد، وكان نشيطًا في المجال الدعوي؛ يخطب في مسجد القرية ويلقي دروسًا بعد الصلوات، وله حضور اجتماعي واضح. وكانت مشكلة التوظيف في الحكومة حادة، وقد أنشأت الدولة ما يسمى بديوان الموظفين؛ ليتقدم إليه الراغبون في التوظيف من جميع أنحاء الجمهورية، وكانت تجرى لهم مقابلات شخصية واختبارات في المعلومات العامة، وقليل منهم من كان يجتاز الاختبار والمقابلة بنجاح، ومن ينجح يوجه إلى وظيفة في أي مكان، وقد تكون في غير تخصصه، وظل الأمر كذلك حتى جاءت فيما بعد فكرة القوى العاملة لتوظيف كل الخريجين في كل مرافق الدولة ومؤسساتها وإداراتها، لدرجة أن بعضهم كان يذهب إلى العمل، فلا يجد كرسيًّا يجلس عليه؛ لكثرة الموظفين أو العاملين!

الشيخ أبو النصر يتميز بانبساط الوجه، وقدرته على التعامل مع الناس، وجذبهم إليه بحسن تعامله وأسلوبه، وكنت متعودًا على مجالسته في القرية، والاقتراب منه، ومناقشته في قضايا علمية واجتماعية، وعنما ترشح في انتخابات الاتحاد القومي، كان ممن حصلوا على نسبة تصويت عالية، جعلته الثالث. حين رآني قد استيقظت مبكرًا ووصل هو في التوقيت ذاته تقريبًا، فقد جاء من القرية فيما يبدو مع قطار الليل الذي يصل إلى القاهرة في

الصباح الباكر. سلم عليَّ وفرح بي، وحين عرف أنني في طريقي للالتحاق بالمعهد النموذجي، ضحك ضحكة هادئة، وقال لي: إن زملاءك في القرية أحضروا تصديقات من الأزهر ليلتحقوا بدار المعلمين، فالحق بهم من أجل أكل العيش. ثم تكلم في جدية، وقال لي: انظر لهؤلاء النائمين - وكان معظم سكان الغرفة في سبات عميق – كبروا وشابوا ولم يجدوا وظيفة رسمية حتى الآن. أتريد أن تقضي عمرك مثلهم في العلم وانتظار الوظيفة؟ اذهب يا بني وادخل المعلمين، وبعد خمس سنوات ستجد لك وظيفة ومرتبًا تساعد به والديك!

**المباغتة والحيرة:**

في التربية والتعليم

أصابني ذهول غريب. كيف سأدخل المعلمين؟ وماذا سأفعل بالمعهد النموذجي الذي سيقبلني حتمًا؟ كل المؤشرات تقول ذلك. وكيف سأتقدم للمعلمين والدراسة قد بدأت بالفعل؟ رحت أفكر وأنا لا أستطيع الخروج من المباغتة، وأفقت على صوت الشيخ أبي النصر يقول لي: خذ عرضحالا، واكتب فيه طلبًا للتصديق بحصولك على الشهادة الإعدادية، واذهب إلى إدارة الامتحانات في الأزهر، وستحصل على المطلوب. بحثنا عن ورقة لكتابة صيغة الطلب فلم نجد؛ لأن القوم نائمون، وإيقاظهم في هذا الوقت من أجل الحصول على ورقة مسألة محرجة، وكانت مع الشيخ جريدة يطالعها جاء بها وهو قادم من المحطة، فأتى على حافتها البيضاء، وكتب عليها صيغة الطلب، طويتها واحتفظت بها في جيب الجلباب، وخرجت لأفطر، ووجدت الوقت مبكرًا فسرت على قدمي حتى اقتربت من نهاية شارع الأزهر، اشتريت من مكتب البريد العرضحال بخمسة قروش (العرضحال ورقة بيضاء رسمية مختومة بختم مائي، يشير إلى أن الرسم المالي قيمته خمسة قروش، وكانت الطلبات والإجازات والشهادات ونحوها - قبل حين من الزمان - تطلب على عرضحال، وليس على ورقة عادية كما يحدث الآن)، وانتحيت جانبًا في مكتب البريد، وكتبت طلب التصديق، واتجهت إلى إدارة الأزهر،

وسألت عن إدارة الامتحانات، ودخلت مكتب المدير وسلمته الطلب. ابتسم الرجل، وسألني عن بلدي ومعهدي، وتلطف وهو يتأمل منظري المتواضع وحجمي الصغير وسألني: كيف استطعت الوصول إلى القاهرة؟ وحين عرف أنني جئت وحدي، بدت السعادة على وجهه؛ إعجابًا بهذا الكائن البسيط الذي جاء القاهرة وحده دون رفيق، وطلب من مساعديه إحضار الكشوف وعمل التصديق بالمواد والدرجات والمجموع، وقدم لي الرجل شايًا، وأحسست بروح الأب في تعامله مع ابنه، وكان يقول لي: اقرأ لنا الفاتحة عند سيدي إبراهيم الدسوقي، وبعد انتهاء الموظفين من تدوين المطلوب وقعوا عليه وقدموه إليه، فوقع بدوره، وختم بخاتم النسر، وضغط عليه ليكون واضحًا، وسلمه إليَّ، وودعني مشكورًا في ابتسامة حانية. كان اسم المدير طه أبو العلا أو أبو العلا طه - لا أذكربالضبط - وما زالت ابتسامة الرجل ترف في ذهني كلما تذكرت ذلك الزمان البعيد.

**تصديق من أجل التحول:**

خرجت من إدارة الأزهر لا أصدق نفسي. هل سأدخل المعلمين حقًّا؟ لم أنتبه إلى الطريق حتى وجدتني في قلب الأتوبيس أو الحافلة البولمان عائدًا إلى القرية. لم أنتظر نتيجة المعهد النموذجي، ولكني أتيت بتصديق لأدخل المعلمين وأتحول من شيخ يرتدي العمامة والكاكولة إلى أفندي يرتدي القميص والبنطلون .. ياله من تحول مثير، كان يحيرني ويزعجني وكان بطله - دون ريب - الشيخ أبي النصر، الذي غير مسار حياتي بقدر الله في دقائق معدودة جمعت بيننا، وجدت أبي مرتاحًا للأمر، مع أننا لم نبدأ إجراءات التقديم بعد. أذكر وهو يعلق على الرحلة إلى القاهرة أنه قال: من الذي سيعتني بك؟ ومن الذي سيغسل لك ملابسك؟ ومن الذي سيغطيك وأنت نائم؟ كان يكلمني وكأني ما زلت في مرحلة الطفولة البريئة، ولكنه أب في كل الأحوال. ولاحظت أنه حين رأى التصديق الذي أحضرته من الأزهر ابتسم ابتسامة الرضا، ويبدو أنه شعر بالاطمئنان؛ لأنني لن أفارقه، وسأنضم إلى زملائي الأربعة في القرية الذين تقدموا إلى دار المعلمين بدسوق.

كان الأربعة قد تقدموا بوساطة أحد المدرسين، ويعمل في مدارس دسوق، وأرسلوا إلى القاهرة من يأتي لهم بالتصديقات بديلا عن استمارات النجاح التي رفض معهد دسوق تسليمها لهم، ويبدو أن هذا المدرس الذي تبنى عملية الالتحاق بالمعلمين هو الذي فكر في عملية التصديقات؛ لتكون بديلا رسميًّا مؤقتًا عن الاستمارات، وكان بعض الزملاء من قرى أخرى قد قاموا بالحصول على التصديقات وتقدموا أيضًا إلى المعلمين.

كان هناك كشف هيئة وكشف طبي يسبقان القبول، وقد حضر الزملاء كشف الهيئة، وذهبوا إلى كفر الشيخ من أجل الكشف الطبي، ولم يوفقوا مرتين؛ مما جعلني أشعر بنوع من القلق .. ترى ماذا سأفعل وزملائي يفشلون في الكشف الطبي؟ لقد بدأت الدراسة قبل أسبوع، فهل سيقبلون أوراقي؟

أخذنا من القرية قريبًا لأحد الموظفين في المعلمين؛ كي يسهل عملية الالتحاق. جاء الرجل معنا وركبنا المركب في الصباح الباكر. كان أبي متحمسًا - على غير عادته - لالتحاقي بالمعلمين، استقبلنا الموظف واحتفى بنا من أجل قريبه الذي كان زوجًا لخالته، وأرسل لإحضار الموظف المختص، الذي أعلن أن الموعد انتهى، وأنه من الصعب القبول بعد بداية الدراسة، ولما رأى غضب الرجل الذي استدعاه، أخبرنا أنه سيدخل إلى المدير وكان يسمى عميد الدار، ويطلب منه استثناء الطالب؛ لأنه أزهري ويحفظ القرآن والدار في حاجة إلى هذه النوعية، وبعد فترة عاد الرجل بموافقة المدير، وطلب على وجه السرعة أن أرتدي قميصًا وبنطالا لأحضر كشف الهيئة.

### أفندي بدلا من الشيخ:

ذهبنا إلى أحد محلات الخردوات في الشارع الرئيس، ولبست قميصًا أبيض وبنطلونًا أخضر غامقًا، وأحسست بشيء من الخجل. كنت أرتدي جلبابًا وطاقية وهأنذا أخلعهما ليحل مكانهما القميص والبنطلون. لم أستطع أن أمشي بهما في الشارع. خلعتهما وقلت سألبسهما في دار المعلمين – كنا نسميها مدرسة المعلمين – ومضينا إلى كشف الهيئة، قابلني بعض المدرسين، وكانوا يبتسمون حين يعلمون أنني أزهري، ويمزحون معي في أثناء الأسئلة؛ فقد كنت أجيب باللغة الفصحى، وطلب مني مدرس التربية الرياضية أن أؤدي

بعض التمرينات، وأن أقرأ في كتاب، عرفت الهدف من ذلك فيما بعد. كان يريد أن يطمئن على سلامة أعضائي وسلامة النطق؛ لأني سأكون مدرسًا، ويجب أن يكون المدرس سليمًا؛ حتى لا يهزأ به التلاميذ أو يسخرون منه، والحمد لله فقد نجحت في كشف الهيئة، وسلمني المعاون خطابًا للكشف الطبي في كفر الشيخ، وكان بعد يومين - على ما أذكر - وطلب مني زملائي أن أُكثر من شرب عصير القصب؛ لأنه كما قالوا يخفف الأملاح.

ذهبت إلى كفر الشيخ، وانتظرت موعد الكشف، وكانت النتيجة طيبة ومفاجئة، فلم أكن أتوقع المرور من معضلة الكشف الطبي من أول مرة، ولكن الله كريم. عدت غير مصدق، وفي اليوم التالي ذهبت إلى المعلمين، وقدمت لهم الخطاب، فقالوا لي: اذهب إلى أولى ثالث، وبعض زملائك الأزهريين هناك. كانت المدرسة أو الدار تتكون من مبنيين؛ أحدهما رئيس، والآخر ملحق، والفرقة الأولى كانت في الملحق، ولأول مرة أرى زملائي الأزهريين وقد صاروا أفندية، ويرونني لأول مرة أفنديًّا بعد أن كنت شيخًا.

يا لها من مفارقة!

ويا له من تغيير!

ويا له من مفترق طرق!

**الشيخ صار أفنديا !**

سبقت زملائي في القرية، ودخلت قبلهم إلى دار المعلمين، أين المعهد النموذجي؟ أشعر بوحدة خانقة في أولى ثالث التي ستكون بداية لنظام جديد، اسمه نظام السنوات الخمس، بدلا من نظام السنوات الثلاث. هل سأقضي في هذه المدرسة خمس سنوات؟ أشعر بعدم التناغم مع طلاب التعليم العام. إنهم شرسون، متحركون، مزاحهم ثقيل، وأصواتهم عالية، وصخبهم لا ينقطع، وضجيجهم لا يتوقف. إنهم مثل الأرانب يتقافزون فوق المقاعد، يجرون وراء بعضهم، لا يعنيهم التكسير أو التخبيط، وأنا جالس صامت ساكن، أكاد أنفجر من داخلي، تائه في هذا العالم الجديد، الذي يرتدي قمصانًا وبنطلونات .. الأزهر غير ذلك .. هدوء ووقار وحركة محسوبة حتى في المزاح.

لم أجد زملائي الأزهريين الذين قيل لي إنهم هناك ينتظرون الانضمام إليهم. لا أدري أين ذهبوا؟ لعلهم كانوا يتسلمون كتبهم الجديدة. لم أدفع المصروفات بعد؛ ولذا لن أتسلم الكتب مثلهم، لم يأت مدرس، الحصص بلا مدرسين في أول العام، والضجيج من حولي يزداد، ويصعد إلى رأسي تفكير مشوش، يختلط بحلم كان يجول في خاطري دائمًا، وهو الدراسة في الجامعة. كيف سأحقق ذلك وقد تحدد مصيري في هذا المبنى الضيق، أو ذي الفصول الضيقة التي تكاد تخنق الأنفاس؟ إنها غرف منزلية لم تكن معدة للدراسة. فصول المعهد الديني كانت واسعة رحبة، تتسع لسبعين طالبًا أو أكثر؛ أما هذه فلا تتحمل أكثر من ثلاثين طالبًا.

كان المبني الملحق يشبه فيلا مثل المبنى الرئيس، ولكن الأخير كان أكثر رحابة نسبيًّا، ويتكون من ثلاث طبقات، بينما الملحق يتكون من طبقتين، وكلاهما تحفه حديقة متسعة، فيها أشجار فاكهة على مساحة كبيرة، وفي المبنى الرئيس يوجد منزل الحارس أو الفلاح الذي يحرس ويزرع، إنه عم مصطفى، الذي يقوم في بعض شهور السنة بنصب جهاز تقطير الزهور؛ ليستخلص الروائح من زهور الأشجار وخاصة الياسمين، وكنا نقف أمام بيته؛ لنتفرج على شيء جديد لم نكن نعرفه من قبل. المبنيان الرئيس والملحق في قلب الحديقة الكبيرة، وهو ما كان يعطي للدراسة في هذا المكان نوعًا من الخصوصية والتميز.

**فصل الأزهريين:**

لأول مرة منذ المرحلة الابتدائية في القرية أرى تطبيقًا لنظام التغذية في المعلمين. كان طلاب المعلمين ينفردون بهذا النظام، وهو عبارة عن رغيف بلدي مخبوز خصيصًا للطلاب، مع قطعة من الحلاوة الطحينية، وأخرى من الجبن الشستر أو الرومي، مع برتقالة، أو إصبع من الموز، أو عنقود من العنب. يذهب اثنان من الطلبة ليحملا مقطفًا (غلقًا) من الخوص وبه الخبز والحلاوة والجبن والفاكهة، ثم يقومان بالتوزيع في الفصل.

لم يأت زملائي الذين من القرية، وكنت أشعر أن مجيئهم سوف يبث في نفسي الاطمئنان داخل هذا العالم الجديد الغريب. أخشى أن يفشلوا في الكشف الطبي، فلا

يكون أمامهم غير الأزهر ثانية. عشت أيامًا قليلة صعبة في انتظارهم، حتى أخذوا يصلون واحدًا بعد الآخر، وكان عليَّ أن أقوم بتعريفهم بالوضع الجديد، ثم نأتلف جميعًا في أولى ثالث، بعد أن أصبحنا في حدود ثمانية طلاب جاءوا من الأزهر، مع طلاب من التعليم العام، كانوا يطلقون علينا فصل الأزهريين. أصبحنا مميزين دون غيرنا من الطلاب، أو أصبح فصلنا كذلك، ولاحظت أن مدرسي اللغة العربية والدين يسعون للتدريس في هذا الفصل بالذات؛ لأن الطلاب الأزهريين – أي نحن – أفضل مستوى من الطلاب الآخرين في اللغة العربية والدين، كما أحسست أنهم - أي المدرسين – يعاملوننا معاملة خاصة تقوم على الاحترام والتقدير، فقد كنا نجيب عن أسئلة المفتشين بالإجابة المطلوبة، ونتلو المحفوظات بلغة سليمة، ونكتب الإملاء الصحيحة، ولهذا كنا دائمًا في بؤرة الضوء المدرسي إذا صح التعبير.

**وجود قلق مضطرب:**

ما زالت مشكلة الدراسة في الجامعة تؤرقني، وتجعل وجودي في المعلمين على المستوى النفسي والوجداني مضطربًا وقلقًا، ولكني لا أبوح لأحد بذلك. أن تعيش في مكان تنفر منه فتلك مأساة بصورة ما، خاصة حين لا تستطيع أن تعبر عن شعورك لأسباب عديدة، وتضطر للتعايش مهما كانت الظروف.

بدأت الخطابات المسجلة تأتي من المعهد النموذجي على عنواني بالقرية لأحضر وأنتظم في الدراسة، خطابًا وراء آخر، ثم أخذت تؤكد أنني متغيب وسيتم فصلي إذا لم أحضر إلى المعهد. بالطبع كان زميلي من شباس الشهداء قد استقر في دراسته هناك كما علمت من بعض زملائي في المعلمين الذين يحضرون من قريته. لم أرد على المعهد ولم أحرك ساكنًا، وقد كان معهد دسوق الثانوي هو الآخر ينذزنا نحن الطلاب الأزهريين الذين تركوا الأزهر ودخلوا المعلمين بالفصل إذا لم ننتظم في الدراسة. كان هذا إجراء روتينيًّا، فقد كان الإداريون وبعض المدرسين هناك يعلمون أننا غادرنا نهائيًّا ولن نعود إلى معهدهم، وبعد فترة أصدروا قرار الفصل، وهو ما أتاح لنا سحب الاستمارات والأوراق الخاصة بنا.

**طلاب دراسات عليا!**

مع بداية الدراسة أعلنت دور المعلمين بالجمهورية عن قبول دفعة من الحاصلين على الثانوية العامة الذين لم يلتحقوا بالجامعات (لم يقولوا لتدني درجاتهم)؛ لقضاء سنتين، وليتخرجوا بعدهما ويحملوا دبلومًا فوق المتوسط مثل الطلاب الجدد نظام السنوات الخمس، أي مثلنا. وكانت الطرائف تصدر عن بعض هؤلاء مثل قولهم: إننا في الدراسات العليا!، أو إننا طلاب دراسات عليا، ومنهم من كان مجموعه في الثانوية العامة يبلغ 39,5٪ وفق الحد الأدنى الذي كان سائدًا في ذلك الوقت، وقد استوعبت دار المعلمين عددًا كبيرًا من هؤلاء، وبعضهم كان بلا دراسة ولا عمل، أو قضى الخدمة العسكرية وجلس سنة أو سنتين أو أكثر، ينتظر فرصة عمل، فوفرت لهم الدولة من خلال الالتحاق بدار المعلمين وظيفة محترمة لا بأس بها بعد سنتين، ومرتبًا معقولا، وقد برز منهم في أثناء الدراسة والعمل نماذج جيدة ومجتهدة، وقد أحيل خريجو هذه الدفعة إلى المعاش منذ سنوات، وطوى الموت صفحة بعضهم، ولم يعد لهم وجود في المنظومة التعليمية على كل حال.

كانت دار المعلمين بدسوق قد استأجرت لهم مبنى آخر؛ ليستوعبهم بجاور المبنيين الرئيس والملحق، ويكون مقرًّا لدراستهم، وفي هذا المبنى أقامت الدار معرضًا فنيًّا، شاركتُ فيه، فقد كانت بالمبنى بعض القاعات الخالية، أتاحت الفرصة لإقامة معرض كبير، ولعله أول معرض تشهده المدينة في ذلك الوقت، وضم لوحات فنية متنوعة، استخدم في كثير منها ما يسمى بخامات البيئة، بالإضافة إلى لوحات خطية وزيتية وشمعية ومائية وتماثيل ونحت، وغيرها، وعرفنا لأول مرة معنى السريالية والتكعيبية في الفن الزيتي. وكان ذلك المعرض بقيادة مدرس أول التربية الفنية، وكان اسمه الأستاذ أحمد البنان من طنطا، وكان يحضر يوميًّا إلى الدار، وصارت بيني وبينه صداقة ومراسلات، حتى تزاملنا في كلية التربية بطنطا، حيث انتدب لتدريس التربية الفنية بقسم الطفولة، بوصفه متخصصًا ومديرًا عامًّا يشرف على المدرسة الثانوية الزخرفية في المدينة.

**القبول بالأمر الواقع:**

كان لابد من التآلف والقبول بالأمر الواقع في دار المعلمين، الجو هنا مختلف عن الأزهر تمامًا، الدراسة ليست بالجدية والصرامة هناك. هنا مجال متسع للرياضة والتربية الفنية والإذاعة المدرسية وصحف الحائط، وصحيفة سنوية مطبوعة على هيئة مجلة. ثم هناك مكتبة كبيرة، فيها كتب متنوعة ومجلات شهرية أدبية وثقافية، وبها مقاعد عديدة حول طاولة كبيرة، وأمين يعير الطلاب كتبًا، ويستقبل منهم ما يعيدونه من كتب بعد قراءتها .. النشاط المدرسي غير المنهجي يبدو أفضل من الدراسة داخل الفصول، وقد طلب مدرس الألعاب زيًّا رياضيًّا، نرتديه في أثناء حصته، التي نقضيها غالبًا خارج الفصل. وكان يستخدم العصا مع من لا يحضر هذا الزي بقسوة شديدة. عرفنا في المعلمين الجري والتمرينات الرياضية المختلفة، التي تتم على إيقاعات التصفيق بالأيدي وتحريك الأرجل، والتكوينات الجمالية التي تصنعها تشكيلات المجاميع، فضلا عن الاهتمام بطابور الصباح، الذي كان يمثل لقاء الدار الصباحي: الطلاب، الأساتذة، الوكيل، العميد، وكان يقود الطابور في الصباح وفي الفسحة الكبيرة ضابط الفتوة، وكان برتبة نقيب، واسمه جورج.

وحكاية الفتوة كانت جديدة بالنسبة لطلاب الأزهر عامة، ولكنها كانت قائمة في المدارس الثانوية وما في مستواها (الصناعة، الزراعة، التجارة، المعلمين ...) منذ سنوات. وكانت مادة التربية العسكرية تدرس في كل الصفوف، ويشترك مع الضابط شاويش، وكانت في الأغلب تدرس في الفناء، حيث نقف في طابور على هيئة مربع ناقص ضلع، ويقف الشاويش أو النقيب ليشرح لنا طبيعة البندقية الآلية 7,62 ملليميتر، وتكوينها، أو القنبلة اليدوية، وفي الفصل كان يتم تدريس بعض المفاهيم العسكرية، والتعريف بالدرجات والرتب العسكرية في القوات المسلحة، ونحو ذلك من المعلومات الأولية عن الجيش والحياة فيه.

وكان الشاويش يقوم بتدريبنا على الخطوة العسكرية والحركة في الطابور، مثل الوقوف صَفًا وانتباه بالطريقة الصحيحة، والخطوة المعتادة، والخطوة السريعة، وتغيير الاتجاه نحو اليمين أو اليسار أو الخلف، والقفز، وطريقة حمل البندقية واستخدامها، وأهمية السونكي في القتال المتلاحم ... إلخ.

ولم يفوت الطلاب بعض الحركات في أثناء التدريب؛ مما كان يثير الضحك لحد الكركرة أو القرقرة بلغة فصحى أدق، وهو ما كان يستفز الشاويش لدرجة تهديدنا بالتكدير بالوقوف صامتين طوال الحصة في الوضع انتباه، أو خصم درجات في الاختبار العملي.

**تبة ضرب النار:**

ولأول مرة ذهبنا إلى مكان سوق المواشي؛ بحكم أنه ساحة خالية معظم أيام الأسبوع، ما عدا يومي انعقاد السوق؛ ليتم اختبارنا في تبة ضرب النار على استخدام البندقية، وضرب النار من الوضع راقدًا، وأمامنا كيس من الرمال، عليه ماسورة البندقية باتجاه شواخص كرتونية على هيئة رجال، يتم التنشين في مركزها أو القلب منها، وكل طالب له عدد معين من الرصاصات، ويجلس شاويش بجوار كل طالب، يوجهه إلى طريقة الاستخدام الصحيح والتصويب الدقيق؛ لتكون الرصاصات في قلب الشاخص، وبقدر عدد الاصابات تكون نتيجة الطالب، فإذا جاءت الرصاصات كلها في الهدف، نال صاحبها أعلى الدرجات، والعكس صحيح.

كانت الدار تسلم زيًّا خاصًّا للفتوة، يتكون من قميص رصاصي من قماش سميك، وبنطلون كحلي اللون أو أزرق داكن، وطاقية برفرف (كاب)، ثم حذاء بيادة ثقيل، ومعه جورب في لون القميص. وكنا سعداء بهذا الزي في أعماقنا، مع أن بعضنا كان يحاول عدم ارتدائه لأسباب طبقية. الزي العسكري كان يوفر الملابس المدنية، ويتيح لنا أن نجلس على الأرض في أثناء حصة الفتوة، فضلا عن كونه يتحمل كثيرًا من النشاطات، وكان هناك من يراه وسيلة لتوفير الملابس العادية ويستريح إليه، وبعض الطلاب لم يغيره في

سنوات الدراسة إلا في يوم التربية العملية – أي التدريب على التدريس - في المدرسة الابتدائية، حيث لا يليق أن يذهب مدرس – تحت التمرين – بزي عسكري مدرسي.

وقد كانت مادة الفتوة مثار جدل بين بعض النخب الثقافية؛ حيث رأى بعضهم أنها تعني عسكرة المجتمع؛ مما يتنافي مع الحياة المدنية، وأن التجنيد في القوات المسلحة هو المجال الطبيعي لتكوين الفرد المقاتل. ولكن السياق العام الذي كان سائدًا أيامئذ كان يتذرع بالتهيئة للمواجهة مع العدو الذي يحتل فلسطين، وهو ما يقتضي من وجهة نظر السلطة أن يكون الشباب جاهزين لحمل السلاح، والمقاومة عند الضرورة.

كانت الفتوة - في كل الأحوال - تجربة مهمة بالنسبة لي، مهدت للتجربة الكبرى في التجنيد بالقوات المسلحة، التي استمرت قرابة ست سنوات بعد الهزيمة المريرة في يونيه 1967م، فقد ساعدت على الوعي ببعض المعلومات، واكتساب بعض الخبرات الأولية في الحياة العسكرية. وقد امتدت فكرة الفتوة إلى الجامعات، حيث صار الطالب لا يتخرج إلا إذا اجتاز التدريب العسكري، الذي تفرضه مادة الفتوة أو التربية العسكرية، وإن كانت المادة قد اختزلت في فترة تدريب تستغرق شهرًا كاملا في الإجازة الصيفية، يقضيه الطالب في التردد على مكان التدريب العسكري طوال أيام الشهر، كأنه يقضي يومًا دراسيًّا، وينتهي الشهرباختبار إطلاق النار. وقد انتهى تدريس التربية العسكرية في المدارس بعد معاهدة كامب ديفيد، ولم يعد لها أثر.

**القراءة بصورة فعالة:**

أستطيع القول إن مرحلة المعلمين كانت بداية الاهتمام بالقراءة بصورة فعالة، فقد كانت مكتبة الدار مجالا حيويًّا، أتردد من خلاله على الكتب المتنوعة، وهو ما لم يكن متاحًا لي من قبل، وكانت المكتبة تتيح لي فرصة استعارة كتاب وردّه بعد أسبوعين في الحد الأقصى، ولكني كنت أقرأ الكتاب في أسبوع أو عشرة أيام، وربما أرده قبل ذلك. وكانت هناك كراسة مطبوعة، اسمها "ثمرة القراءة" يتسلمها الطلاب رواد المكتبة من الأمين، وكل صفحة فيها تتيح تدوين بيانات الكتاب المستعار مع مساحة كبيرة بيضاء في الصفحة لتدوين ملخص الكتاب تلخيصًا موجزًا، يشير إلى أهم ما فيه، وكانت هناك

جوائز رمزية لمن يسجل أكبر عدد من ملخصات الكتب التي استعارها، وليت وزارة التعليم تستعيد ثمرة القراءة، وتعممها في جميع مراحل التعليم الأساسي.

كان أمين المكتبة ونحن في السنة الأولى مدرسًا للغة الفرنسية، ولأن الدار لم يكن فيها طلاب يدرسون الفرنسية، فقد جعلوه أمينًا للمكتبة، وقد ينتدب أحيانًا لتدريس بعض الحصص في المدرسة الثانوية العامة للبنين أو البنات، ولكنه بدأ يدرس الفرنسية في الدار لزملائنا الأزهريين الثلاثة الذين التحقوا بالفرقة الأولى، وكانوا يلتقون في المكتبة، كما كنا أيضًا نلتقي بمدرس الإنجليزية في المكتبة؛ لقلة عددنا، وضرورة تفريغ الفصل – أولى ثالث – لأغلبية الطلاب الذين يدرسون مقررًا مختلفًا. كنا خمسة، زاد عددنا إلى سبعة عقب انضمام اثنين آخرين إلينا بعد أسابيع من الدراسة. وكان يأتي إلينا مدرس ليشرح لنا مقررًا يتناسب مع مستوانا، بحكم أننا لم ندرس من الإنجليزية إلا بدايات متواضعة، تعادل بل تقل عما كان يدرسه طلاب الصف الأول الإعدادي في ذلك الزمان.

### آفاق واسعة وكتاب كثيرون:

كانت المكتبة إذًا مكانًا لتدريس الفرنسية والإنجليزية للطلاب الأزهريين كما كان يطلق علينا. عرفنا أمين المكتبة، وصرنا نتردد على المكتبة يوميًّا للدراسة، وبالمرة للاطلاع أو الاستعارة، أو التعرف على الكتب وأنواعها، وقد لفتني مجموعة المجلات الأدبية والثقافية التي كنت أستعيرها وديًّا من أمين المكتبة بعد أن توثقت علاقتنا به. لقد فتحت هذه المجلات أمامي آفاقًا واسعة، وعرفتني على كتّاب كثيرين، وكانت مجلة "العربي" في مقدمة هذه المجلات، طالعت فيها مقالات عديدة وموضوعات متنوعة، وخاصة لرئيس تحريرها العالم الأديب أحمد زكي، وكان من أعلام العلم والأدب في عصره، ورأيت أعدادًا قيمة من مجلات الرسالة الجديدة والشهر والمجلة .. قرأت كثيرًا من محتوياتها.

وتعرفت في المكتبة إلى زميل كان يسبقني في الدراسة، واسمه حسام الدين ريشو من إحدى القرى المجاورة لدسوق، وكان من المهتمين بالقراءة، فوجدت - من خلال التعرف به - فرصة مناقشة ما نطالعه، وكان مهتمًّا بقراءة الروايات العالمية التي كانت تظهر في سلسلة الألف كتاب، وهي سلسلة تترجم أهم الكتب العالمية من وجهة نظر وزارة

الثقافة والإرشاد القومي، وكان يقوم على الترجمة كبار المترجمين المصريين والعرب في ذلك الوقت. وقد ترجموا كتبًا مهمة في مختلف التخصصات في الرواية والقصة والنقد والمسرح والشعر والفكر والاقتصاد والعلوم التطبيقية والثقافة بصفة عامة، ومن خلال هذا المشروع (الألف كتاب) تعرفنا إلى كبار الكتاب العالميين من أمثال شارلز ديكنز وتوماس هاردي وإميل زولا والكسندر ديماس الأب والابن والأخوات برونتي وألدوس هكسلي وطاغور وفيكتور هوجو وبرنارد شو وبلزاك وديستويفسكي وتورجنيف وتشيكوف وتولستوي وسومرست موم وجون شتاينبك وبيرل بك، وغيرهم.

**كتاب كل ست ساعات:**

في الوقت ذاته، كانت وزارة الثقافة والإرشاد القومي - بعد تأميم دور النشر الخاصة وضمها إلى ممتلكات الحكومة - تقوم بمحاولات متعددة لنشر الأدب والفكر، من خلال منشورات الكتب والمجلات. فأعلنت أنها تنشر كتابًا كل ست ساعات في مختلف فروع المعرفة، وتعددت السلاسل التي تصدرها دار النشر الرسمية التابعة للوزارة؛ ما بين كتب شهرية ونصف شهرية، وكانت أثمانها زهيدة بمقاييس ذلك الزمان، تبدأ من قرشين، وتنتهي عند عشرة قروش، أما الكتب الضخمة مثل سلسلة الألف كتاب، فيصل ثمن الكتاب أحيانًا إلى أربعين قرشًا، بيد أنه كانت هناك سلستان مهمتان، تحظيان بإقبال شديد؛ الأولى كانت تسمى "المكتبة الثقافية"، وتباع بقرشين، وبدأت بكتاب للعقاد، لعله كتاب الجوائز العالمية أو الثقافة العربية أسبق من الثقافة العبرية، والأخرى كانت سلسلة "أعلام العرب"، وتباع بخمسة قروش، وخصصوا منها طبعة فاخرة على ورق أبيض بعشرة قروش. وكنت أدخر ما أستطيع من قروش قليلة؛ لأشتري بعض كتب هذه السلسلة أو تلك. وقد اقتنيت مجموعة لا بأس بها من سلسلة أعلام العرب، وجدتها في أواخر عمري مفيدة في ترجمتي لبعض أعلام النهضة الحديثة. كانت هناك سلاسل عن السياسة وإفريقيا وغيرها، وأذكر أنني كتبت خطابًا وأرسلته إلى وزير الثقافة والإرشاد القومي يومئذ، وهو الدكتور محمد عبد القادر حاتم؛ ليرسل إليَّ سلسلة أعلام العرب مجانًا، ففوجئت بعد مدة بثلاثة كتب من سلاسل أخرى تصل إليَّ في مظروف على عنواني بدار المعلمين دون كلمة مرفقة.

### باعة الصحف:

وقد توثقت صلتي بباعة الصحف؛ بسبب هذه الكتب والمجلات التي كانت تصدر أعدادًا خاصة في أول العام الجديد، وأتاحت لي هذه العلاقة أن أقرأ بعض المجلات نظير خمسة مليمات، وكنت أقرأ مثلا روز اليوسف على ألا أفتح ملازمها من أعلى الصفحات؛ لأنها تعود في المرتجع لتباع إلى المحلات التجارية كأفرخ ورقية تلف فيها البضاعة. كنت أحمل المجلة معي إلى البيت أطالعها في المساء والليل وأعيدها في صباح اليوم التالي.

كما كنت أحرص على اقتناء ملحق الأهرام يوم الجمعة نظير خمسة مليمات أتركها للبائعة يوم الخميس، وأتسلم منها الملحق صباح يوم السبت، وكانت في الغالب تطلبه من أحد الزبائن الذين يسكنون بجوار فرش الصحف الذي تقف عليه، وتأخذه بعد قراءته، أو تحتفظ بواحد من المرتجع. كان الملحق يضم مقالة رئيس التحرير محمد حسنين هيكل، الناطق عمليًّا باسم القائد والزعيم الملهم، والمطلع على أسرار السلطة وخططها التي لا يعلمها غيره من الصحفيين، ويمتد المقال الذي كان عنوانه "بصراحة" على مساحة الصفحة الأولى من الملحق كاملة، وربما تتجاوز الصفحة الأولى إلى صفحة أخرى أو أكثر إذا كان ينشر مع المقال وثائق أو محاضر، مثلما فعل عندما نشر محاضر جلسات الوحدة، أو وثائق منسوبة إلى بعض أجهزة المخابرات الغربية، وكان لهيكل أسلوبه المتميز وطريقته في عرض موضوعه وتقسيمه، فضلا عن أسلوبه الذي يوشيه بصور بلاغية مبهرة، وكان الملحق يضم صفحتين تتناولان أحداث العالم في أسبوع، مع الترجمة لشخصية مهمة من الشخصيات صانعة أحداث الأسبوع. ويخصص صفحتين للأدب والفنون، وكان يشرف عليهما لويس عوض، الذي كان ينشر كتبه مسلسلة على صفحة كاملة منهما أسبوعيًّا، وكانت تشاركه بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) بمقال قصير يستغرق عمودًا أو عمودين، إلى جانب ما يكتبه المحررون وبعض الأدباء من قصص أو روايات أو شعر. وأحيانًا كان يخلي لويس عوض صفحته الكاملة لرواية مسلسلة لنجيبب محفوظ، أو مسرحية مسلسلة لتوفيق الحكيم، أو مقالة نقدية طويلة لبعض أصدقائه.

وكانت هناك صفحتان للمرأة، أما الصفحة الأخيرة فكانت للرياضة العالمية. كان الملحق بذلك يشبه المجلة الأسبوعية التي أشتريها بتعريفة (خمس مليمات)، وأطالعه على مدى الأسبوع، وأستمتع بمعرفة ما يجري في العالم وأتعرف عليه وعلى زعمائه.

**الرسالة والثقافة:**

وقد خطت وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بقيادة الدكتور حاتم، خطوة أخرى في سبيل نشر الأدب والفكر، حين أعادت إصدار مجلتي الرسالة والثقافة، وكانتا من المجلات الثقافية المهمة على مستوى العالم العربي بل الإسلامي، طوال عقدين من الزمان قبل انقلاب يوليو 1952م، كما كانتا تمثلان النشر الثقافي الجاد بإمكانات قليلة، وجهود شخصية مخلصة.

وقد أضافت وزارة الثقافة إليهما إصدار مجلات القصة والشعر والفكر المعاصر والفنون الشعبية. بدأ ذلك عام 1963 في مناسة احتفالات النظام بانقلاب يوليو 1952، وأذكر أني كنت حينئذ في رأس البر التي ذهبت إليها للمشاركة في معسكر طلابي، ضم طلابًا من جميع أنحاء الجمهورية، وكنت أتجول مع زملائي في المساء بأرجاء المدينة الساحلية التي تفصل ما بين النيل والبحر، وكانت لها طبيعة ساحرة عند الغروب وبعده، ولعلي أعود إلى الحديث عنها بعد حين. كان هناك الشارع المطل على النيل يزدحم بالمصيفين، وكانت المقاهي والمطاعم والمحال تمتلئ بالرواد والزبائن. وكان فيها مكتب للصحف يعرض الصحف العربية والأجنبية، إلى جانب الصحف والمجلات المصرية، وقد رأيت العدد الأول من كل من الرسالة والثقافة معروضين فاشتريتهما من فوري، وكان ثمن العدد ثلاثة قروش. تصدرت مقدمة العددين كلمة للدكتور حاتم، تلاه مقال لرئيس التحرير في كل مجلة. الرسالة استعادت رئيس تحريرها ومؤسسها في الثلاثينيات: أحمد حسن الزيات، أما الثقافة فقد عُيّن محمد فريد أبو حديد وكان من أبرز الكتاب في إصدارها الأول رئيسًا للتحرير. وضم العددان مقالات وقصائد وقصصًا لكبار الأدباء آنئذ، بالإضافة إلى الأخبار الأدبية وعروض الكتب والمترجمات. وقد كانت تلك بداية الاطلاع على ما يدور خارج قريتي والمدينة التي أذهب إليها يوميًّا. رأيت في المجلتين ثقافة القاهرة وما يجري في منتدياتها، والقضايا التي تشغل الأدباء والمفكرين والمثقفين الكبار. تابعت الأعداد التالية، وكانت إحداهما تصدر يوم الثلاثاء والأخرى يوم الخميس، أما بقية المجلات فكانت تصدر شهرية، كل منها لها يوم مخصوص في الشهر تصدر فيه، وكنت أتابع معظمها في حدود ما يتوفر في جيبي.

**أحداث كبرى:**

مع دخولي المعلمين كانت أحداث ضخمة تفرض نفسها على الدولة والناس والسلطة. حدث الانفصال بين مصر وسورية عام **1961**م. وشهدت مصر عملية تأميم واسعة للمصانع والمؤسسات والشركات وضمها إلى الدولة. وقدمت السلطة ما يسمى الميثاق الوطني، ثم تلا ذلك التورط في حرب اليمن.

بسبب انفصال سورية عن مصر - وهو ما أحدث صدمة كبيرة للقائد والزعيم الملهم، كما كانت تسميه الصحافة والإذاعة - قام السوريون باعتقال الرجل الثاني في الدولة عبد الحكيم عامر ومن معه، وأعلنوا الانفصال، واستطاع جمال عبد الناصر أن يبتلع هزيمته ويستعيد نائبه الأول وقائد الجيش، ولكنه أصر أن يبقى اسم مصر "الجمهورية العربية المتحدة" حتى مات، ويبدو أن الانفصال جعل رد فعل الرجل إزاء بعض الأحداث عنيفًا وكارثيًّا.

أخذت جيوش العراق وسورية واليمن تقوم بانقلابات عسكرية، ويهتم بها عبد الناصر وصحافته وإذاعته، ويتبادل الحملات الإعلامية مع هذه العاصمة أو تلك، ولم تكن العواصم المغربية بعيدة عن هذا التلاحي.

وفي هذه الأثناء اتجه الزعيم إلى الداخل؛ ليؤمم الصحافة تحت مسمى تنظيمها؛ ليضمن ولاءها له ولاء تامًّا، وأصبح أصحاب الصحف مجرد موظفين فيها، كما أمم دور النشر والمصانع والمؤسسات الإنتاجية والخدمية والشركات، ووصل التأميم إلى المصانع الصغرى في المحلة الكبرى وكفر الزيات وكفر الدوار، وتحولت جميعًا إلى مسمى عام يحمل اسم شركة النصر لـ(...) أو مصانع النصر لـ(...). لقد حقق ما يسمى في الأدبيات الشيوعية رأسمالية الدولة، وكانت إرهاصات هذا التحول الإفراج عن الشيوعيين؛ استجابة لأوامر الاتحاد السوفيتي، بعد أن خذله الغرب في تمويل السد العالي وطلبات السلاح. وقد ساعده خروشوف بذكاء مع ما كان بينهما من منافرات، بعد أن اشترط خروج الشيوعيين من المعتقلات، وبدأ الخروج في عام **1959** ليتولوا المؤسسات الإعلامية والثقافية والفنية،

حتى من كان منهم لا علاقة له بالإعلام والثقافة والفن، ومنذ ذلك الوقت وهم يسيطرون على الصحف والإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح ومؤسسات النشر ووزارة الثقافة ثم التعليم والمؤسسات السياسية، وكل ما له صلة بصناعة العقل المصري ومستقبله، وهو ما أسس لوجودهم المتجذر حتى اليوم، ومكّنهم من محاربة الإسلام وتشويهه وفقًا للأصل الثالث من أصول الشيوعية الذي يقضي باستئصال شأفة الدين.

### ما زالت الشيوعية حية في بلادنا:

لقد سقطت الشيوعية والشيوعيون في موسكو والبلاد الأخرى، ولكن الوضع في مصر ما زال أسيرًا للفكر الشيوعي والحركة الشيوعية حتى بعد ثورة 2011 التي أسقطت النظام المستبد الفاشي؛ فقد دافع الشيوعيون بفصائلهم المختلفة عن وجودهم الاستئصالي في وزارة الثقافة والصحافة والتلفزيون والإذاعة والتعليم، ونجحوا في 3 من يوليو 2013م بجرّ الجيش إلى الانقلاب على ثورة يناير، وتعطيل الدستور وخطف الرئيس المنتخب، وحرمان الشعب من الحرية والتعبير عن إرادته الحقيقية، وتقدموا لوضع دستور جديد يلغي الإسلام والهوية الإسلامية، ويفتح أبواب مصر على مصراعيها مرة أخرى أمام الاستبداد والتغريب والانحلال، والتمييز ضد المسلمين.

كانت عملية التأميم الواسعة استجابة للتصورات الشيوعية، التي تعد رأسمالية الدولة أصلا من أصولها. ونتج عن ذلك فساد كبير ونهب عظيم، حيث تولى قيادة معظم الهيئات المؤممة ضباط عسكريون، أو أشخاص موالون للنظام، كان همهم الأول الإعلان عن انتمائهم للقائد، ودفاعهم عنه، والاستسلام للبيروقراطية الحكومية، وصحب ذلك مصادرة المزيد من الأراضي والممتلكات باسم تحديد الملكية ومحاربة الإقطاع، وكانت النتيجة العامة قلة الإنتاج والاحتياج لاستيراد القمح والمواد الأساسية، والانحياز للمعسكر الشيوعي بقيادة موسكو. واستطاع السوفيت الوصول إلى المياه الدافئة، ومعهم الأفكار الشيوعية التي تتلفع باسم الاشتراكية، التي تتشدق بالتقدمية والتحرر والانطلاق، مع حديث متواتر عن القومية العربية بالمفهوم الأوربي، وفي مقابل ذلك حفلت الصحف المؤممة بالمقالات التي تحارب ما يسمى الرجعية والتخلف والجمود،

وتقصد الإسلام بصورة وأخرى، بالإضافة إلى الحديث الذي لا يتوقف عن العمال والفلاحين أو الكادحين، الذين لابد أن يقودوا العمل الثوري والجماهير، وتحول الاتحاد القومي – التنظيم الوحيد الذي يعد حزب السلطة بعد حل هيئة التحرير - إلى الاتحاد الاشتراكي العربي، الذي يمثل تحالف قوى الشعب العامل، وصار الانضمام إليه إجباريًّا في القرى والمدن وأماكن العمل والدراسة: المؤسسات، الإدارات، المصانع، الشركات، المدارس، الجامعات.

**الترويج للفكر اليساري:**

كانت صحيفة روز اليوسف وجريدة الجمهورية من أكثر الصحف ترويجًا للفكر اليساري وهجومًا مقنعًا على الإسلام، الذي كانت تكني عنه بالفكر المحافظ أو الفكر الرجعي أو الجمود أو التخلف؛ وذلك لوجود عناصر شيوعية كثيرة في الصحيفتين، وبدا هذا الاتجاه متناغمًا مع بعض القيادات السياسية اليسارية، التي كانت تتوهج إعلاميًّا في بعض الأحيان، ثم تختفي مثل غيرها دون سبب واضح.

كنا نسمع من الإذاعات الأجنبية الناطقة باللغة العربية تفسيرات مختلفة لاختفاء بعض الشخصيات القيادية، وخاصة من رجال الانقلاب ورفاق جمال عبد الناصر عن مسرح الأحداث، حيث يصحب ذلك تغييرات غير مفهومة في التشكيل الحكومي أو الحزبي المسموح به (الاتحاد الاشتراكي)، بيد أن أهم ما جرى في تلك السنوات البعيدة كان انعقاد ما سمي بالمؤتمر الوطني للقوى الشعبية، وتقديم ما سمي بالميثاق الوطني، ومشاركة شخصيات مرموقة في هذا المؤتمر، ومناقشة قضايا عديدة.

* * *

## 9 - القلم وما يسطرون

### الميثاق الوطني ومعركة الكاريكاتير:

كان المؤتمر الوطني للقوى الشعبية الذي جمع شخصيات مرموقة عام 1962م، يناقش قضايا الوطن بعد فجيعة الانفصال، وتردي الاقتصاد، والاتجاه إلى رأسمالية الدولة، وإقصاء الإسلام عمليًّا وعدّه تخلفًا ورجعية، ودخول السلطة تحت ما يشبه الحصار الدولي، مكتفية بالارتماء في أحضان الاتحاد السوفيتي، وما يسمى دول عدم الانحياز، التي لا تملك شيئًا ذا قيمة تقدمه لمصر. ظهر في هذا المؤتمر كتاب أو وثيقة تسمى الميثاق الوطني، كتبه محمد حسنين هيكل، وألقاه جمال عبد الناصر على المؤتمر، ويؤكد فيه على حتمية ما يسمى بالحل الاشتراكي في مرحلة مهمة وشاقة في كفاحنا، وكما يقول: "من أجل تحقيق الأماني التي نتمناها - وأنتم بالذات نيابة عن القوى الشعبية التي انتخبتكم - أمامكم مسئولية كبيرة في هذه المناقشة الكبيرة والتي تبدأ اليوم، مشروع الميثاق طويل لسبب، وهو أني أردت أن أضع فيه حصيلة التجربة الوطنية، من الماضي الذي عشناه إلى المستقبل الذي نريده".

ويتكون الميثاق من عشرة أبواب؛ الباب الأول: نظرة عامة، الثاني: في ضرورة الثورة، الثالث: جذور النضال المصري، الرابع: درس النكسة، الخامس: عن الديمقراطية السليمة، السادس: في حتمية الحل الاشتراكي، السابع: الإنتاج والمجتمع، الثامن: مع التطبيق الاشتراكي ومشكلاته، التاسع: الوحدة العربية، العاشر: السياسة الخارجية

شهد المؤتمر بعض المداخلات الساخنة، مثلما حدث من الشيخ محمد الغزالي. كان جمال عبد الناصر يحضر المؤتمر، ويشارك في المناقشات بالرد على المعارضين وأصحاب الرأي المخالف. طالب الشيخ الغزالي بتحرير القانون المصري من التبعية الأجنبية، وتوحيد الزي بين المصريين، وتأكيد حشمة المرأة، وألا تكون عارية الصدر والظهر والساقين، وكان واضحًا أن كلام الشيخ الغزالي غير مريح للقائد؛ فخرجت الأهرام يوم 28

من مايو 1962 وقد وضعت في الصفحة الأولى صورة الشيخ الغزالي متحدثًا أمام أعضاء المؤتمر وتحتها تعليق «للمرة الأولى في المؤتمر الوطني تعرضت المرأة لهجوم من الشيخ محمد الغزالي ولم تسكت عليه عضوات المؤتمر، فقاطعنه أكثر من مرة». وفي اليوم التالي كانت آراء الشيخ الغزالي هي موضوع كاريكاتير للرسام الشيوعي صلاح جاهين، وحمل الكاريكاتير عنوان «هاجم الشيخ محمد الغزالي كل القوانين والأفكار الوافدة من الخارج»، أما الرسم فكان يصور الشيخ واقفًا على المنصة يلقي كلمته منفعلا أمام رواد المؤتمر، وقد سقطت عن رأسه عمامته البيضاء، وتحت الرسم التعليق الساخر «الشيخ الغزالي: يجب أن نلغي من بلادنا كل القوانين الواردة من الخارج، كالقانون المدني وقانون الجاذبية الأرضية».

**التحدي .. والغضب:**

وقد غضب الشيخ الغزالي ولم يسكت، وفي جلسة المؤتمر التي انعقدت صباح يوم صدور الجريدة، راح الشيخ يهاجم رسام الكاريكاتير الذي لم يكتف بالرسم المسيء، فقام بنشر كاريكاتير آخر أكثر إساءة في 30 مايو يسخر فيه من آراء الغزالي في المرأة والزي الذي ترتديه.

وقد رد عليه الشيخ الغزالي في جلسات المؤتمر ردًّا عنيفًا، وشرح أهداف كلمته التي ألقاها في الجلسة الافتتاحية، وهي اعتراضه على أن يظل الشرق العربي الإسلامي محكومًا بقانون فرنسي، وأنه لم يهاجم القوانين العلمية الثابتة كالجاذبية الأرضية؛ لأن الإسلام ليس ضد العلم، وأشار إلى سخرية جاهين من عمامته في رسوماته، وخاطب أصحاب العمائم قائلا «إن مهاجمة العمامة البيضاء أمر يستدعي أن يمشي العلماء عراة الرأس إذا لم تُحم عمائمهم»، وقال: «إنه لم يركز في كلمته على قضية الأزياء، فإذا كانت الكلمة قد استغرقت 20 دقيقة، فإن موضوع الأزياء لم يستغرق أكثر من 3 دقائق». اختتم الغزالي كلمته قائلا: «إن هذا المؤتمر يعطي الحق لكل فرد ليقول الكلمة الأمينة الحرة التي يجب ألا يرد عليها بمواويل الأطفال في صحف سيارة ينبغي أن تحترم نفسها».

ونشرت الصحيفة في اليوم التالي 31 مايو 1962 في صفحتها الأولى تعليقًا تحت عنوان «كلمة الأهرام»، جاء فيها أن «الأهرام» تقدس الدين وتحترمه، ولكنها ترفض محاولة

الشيخ الغزالي أن يجعل من الخلاف في الرأي بينه وبين صلاح جاهين رسام الجريدة قضية دينية، وأن الجريدة تؤمن بحرية الرأي، لذلك تنشر نص كلمة الغزالي احترامًا لحقه في إبداء رأيه مهما كان مختلفًا مع رأي الجريدة، مع إعطاء الحق لصلاح جاهين أن يبدي رأيه هو الآخر في ما يقوله الشيخ الغزالي.

وفي الصفحة السابعة من العدد نشر كاريكاتير لصلاح جاهين يواصل فيه حملته على الشيخ الغزالي، وكان يحمل عنوان «ملاحظة على إغفال الشيخ الغزالي مشكلات المعيشة والمواضيع الحيوية»، أما الرسم فيصور مظاهرة لأطفال مشردين تنطق وجوههم بالبؤس والشقاء، وهم يحملون لافتة مكتوبًا عليها: «أين الكساء يا مشرع الأزياء ... لماذا لا تتكلم إلا عن ملابس النساء»، ويظهر الغزالي معترضًا طريق المظاهرة وهو يصرخ فيهم، وتحت الرسم تعليق: «مابتكلمش عنكم يا جهلاء لأنكم ذكور، وما ظهر من جسمكم ليس عورة».

وواصل الرسام الشيوعي إساءاته مدعومًا من رئيس التحرير والنظام، فنشر في صباح اليوم التالي «الجمعة» أول يونيو 1962 ستة رسوم كاريكاتيرية تحت عنوان «تأملات كاريكاتيرية في المسألة الغزالية»، وصور الشيخ الغزالي وهو يمتطي فرسًا على طريقة أبي زيد الهلالي، ووجه الشيخ صوب ذيل الفرس، ويحمل في يده حربة مخيفة مكتوبا عليها «الإرهاب باسم الدين»، وتحت الرسم تعليق زجلي ساخر يقول:

**هنا يقول أبو زيد الغزالي سلامة وعينيه ونضارته يطقو شرار**

**أنا هازم الستات ملبسهم الطرح أنا هادم السينما على الزوار**

**أنا الشمس لو تطلع أقول إنها قمر ولو حد عارض يبقى من الكفار**

**ويا داهية دقي لما أقول ده فلان كفر جزاؤه الوحيد الرجم بالأحجار**

**فأحسن لكم قولوا «آمين» بعد كلمتي ولو قلت الجمبري ده خضار**

بعد انتهاء صلاة الجمعة في ذلك اليوم خرج المصلون والشباب في مظاهرة عارمة، حملوا فيها الشيخ الغزالي على الأعناق، ثم توجهوا إلى مبنى «الأهرام»، وارتفعت أصواتهم

بالثورة غضبًا من أجل عالم الإسلام، وضد الإساءة والاستهانة به وبعلماء الدين، وحاصروا المبنى، وكتب هيكل مقالا وقعه باسم «الأهرام»، اتهم فيه الشيخ الغزالي بتحريض المتظاهرين. وفي العدد نفسه، نشرالرسام الشيوعي كاريكاتيرًا جديدًا يصور نفسه واقفًا أمام منصة القضاء وخلفه الشيخ الغزالي، وقد رشق خنجرًا في ظهره مكتوبًا عليه «الإرهاب» وتحت الرسم تعليق: «العبد لله: ودلوقتي بعد ما الغزالي أبدى رأيه بطريقته الخاصة الموضحة بالرسم، نشرح له مرة أخرى أهداف الميثاق».

ويبدو أن اشتعال الرأي العام بالغضب ضد الأهرام امتد إلى الدولة، فتدخلت لتطويق المسألة، وطلب كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية والأمين العام للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية، من هيكل إجراء مصالحة فورية بين الشيخ الغزالي والرسام، والتقى الغزالي مع هيكل الذي أكد مجددًا دور الشيخ ومكانته، وأن «الأهرام» لم تقصد الإساءة لشخصه، وأن الخلاف في وجهات النظر لا يعني الخصومة والعداء، واستدعى هيكل جاهين إلى مكتبه وتم الصلح!

### الحرية والديمقراطية والعدل:

كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر التي انعقدت عام **1961**م قد شهدت مداخلة للأستاذ خالد محمد خالد، خالف فيها الاتجاه العام للجنة، وانتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد جمال عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم – حينئذ – ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب، بعد أن نزعوا أموالهم غصبًا وظلمًا، ونكّلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز في ذل، وبعد غنى في فاقة وعوز، وبعد أمن في خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم .. فكان هو الصوت الوحيد الذي ارتفع في وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبًا لهم – بدلا من العزل السياسي – "العدل" السياسي، ولما أخذ التصويت في المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسي، كانت يده هي الوحيدة التي ارتفعت في سماء القاعة التي ضمت – يومئذ – ثلاثمائة وستين عضوًا. وقد فصّل خالد موقفه في سيرته الذاتية التي كتبها في تسعينيات

القرن الماضي، ونشرها مسلسلة في جريدة "المسلمون" التي كانت تصدر في لندن، ثم صدرت في كتاب تحت عنوان "قصتي مع الحياة".

خالد محمد خالد تحدث عن الديمقراطية والحرية، وهو ما لم يعجب الزعيم الملهم، فخرجت بعض الصحف لمهاجمته، ولكن الرجل صمد في مواجهة الزعيم وأتباعه وإعلامه.

## كأنه قرآن جديد:

انتهى المؤتمر بتأييد الميثاق الوطني، وتقرر تدريسه في المدارس والجامعات، وقامت الإذاعات والصحف بالترويج له وتعميمه، واستضافة الكتاب والشعراء والشخصيات العامة للحديث عنه، وقام بعض الزجالين بنظمه في مواويل ودواوين، وألف بعضهم كتبًا تشرحه وتفسره، وأقيمت حوله المسابقات العامة والمدرسية، وخصصت للفائزين جوائز متنوعة بين عينية ومادية ورمزية، وأذكر أنني كنت أحفظ فقرات كاملة منه؛ نتيجة الإلحاح عليه، وقد كان مقررًا دراسيًّا أو جزءًا من مقرر القراءة، أجبنا على بعض الأسئلة حوله في امتحان آخر العام .. لقد صار الميثاق مهمًّا ومقدسًا كأنه قرآن جديد!

كان الميثاق في أبوابه العشرة يروج لما يسمى المجتمع الاشتراكي وحتمية الحل الاشتراكي كما سبقت الإشارة، ويوضح الفارق بين الاشتراكية الماركسية أو الاشتراكية العلمية والاشتراكية العربية، ويشير إلى أن الاشتراكية العربية لا تتعارض مع الإسلام، وكان بعض الكتّاب يتطوع بالإشادة بالاشتراكية تأييدًا للنظام، ويشير إلى بيت شوقي الشهير في همزيته المعروفة ولد الهدى:

**الاشـــتراكيون أنـــت إمـــامهم  لـــولا دعاوى القـــوم والغلـــواء**

بالطبع كان هؤلاء يهتمون بأن رسول الله ﷺ إمام الاشتراكيين، ولا يهتمون بتفسير دعاوى القوم والغلواء التي يحترز منها أحمد شوقي - رحمه الله. وكان الحديث عن الإسلام في الميثاق هامشيًّا، وسطحيًّا، وغائمًا. فقد تم اختزاله فيما يسمى القيم الروحية، على وزن المشروبات الروحية!

لم تكن هناك قابلية لوضع الإسلام في مفهومه الصحيح بوصفه محور الحياة والآخرة، ومرتكز العمل والعبادة، ومناط الولاء والبراء بالمفهوم الصحيح. وتأمل كلمة محمد حسنين هيكل وهو يواجه الغضب الشعبي على رسام الكاريكاتير الشيوعي الذي أهان الشيخ الغزالي وازدرى قيم الإسلام التي تحض على احتشام المرأة، حين قال نحن نقدس الدين ونحترمه، وهي لغة مائعة تتصل بنظرة غير المسلمين ومعجمهم، وتبتعد عن المعجم الإسلامي، الذي يجعل الإيمان والعبادة وتطبيق الشريعة جزءًا من حياة المسلم وأسلوبًا ومفهومًا يتجلى في العبادات والمعاملات. إن التقديس والاحترام يشيران إلى أن الإسلام شيء بعيد عن الاعتقاد والإيمان، أي مجرد حالة تقتضي التقديس والاحترام من الخارج، دون أن تكون جزءًا من صاحبها ومحركًا يحرك حياته. لقد كان الحديث عن الإسلام في الميثاق متأثرًا بالمناخ العام الذي يكاد يعلن خجله من الإسلام والانتساب إليه، وكان السياق الثقافي الشائع آنئذ ينظر إلى الإسلام نظرة لا تتجاوز جدران المسجد وساعة عقد القران، ولحظة صلاة الجنازة! أما عدا ذلك فلم يكن مسموحًا له بالمشاركة في صناعة الواقع وإقامة العدل والتكافل الاجتماعي والإحسان بالمعنى الشامل، والنهي عن الفحشاء والمنكر، ورد المظالم والطغيان، وبناء الاقتصاد والجهاد، وغير ذلك.

### الاشتراكية والدين:

في الوقت الذي كان فيه الشيوعيون يخططون لتحويل المجتمع إلى كيان شيوعي، يندمج ضمن الاشتراكية الدولية أو الشيوعية العالمية بالتدريج، كان كثير من علماء الدين يصدقون ما يقوله الميثاق من أن الاشتراكية كفاية وعدل، وأنها لا تتعارض مع الإسلام. ولكن أحدًا لم يطرح سؤالا بسيطًا: إذا كانت لا تتعارض مع الإسلام فما الداعي لها؟ ولكن أحدًا لم يطرح هذا السؤال للأسف، بل كان كثيرون يدّعون وصلا بالاشتراكية وإلحاحًا عليها ويصدقون ما يقوله أهل السلطة وكتابها، ولو كانوا شيوعيين أو علمانيين لا يحبون الإسلام وأهله، بل إن بعضهم اجتهد في الحديث عن اشتراكية الإسلام أو الإسلام الاشتراكي. مثلما تحدث بعضهم عن الأدب الاشتراكي والفن الاشتراكي والاقتصاد الاشتراكي والحذاء الاشتراكي!

### ذروة عصر الأكاذيب:

وأظن أن تلك الفترة كانت ذروة عصر الأكاذيب التي يصدقها الناس، وصارت نموذجًا تحتذيه الحكومات العربية في الكذب على شعوبها والضحك عليها؛ فالصحف تتكلم عن إنجازات لا وجود لها على الأرض، وعن أقوى جيش في الشرق الأوسط، ولكنه لا يضرب العدو أبدًا وإن كان يضرب الشعب حين تعجز الشرطة، أو يضرب الشعوب الشقيقة المسلمة، أما العدو فهو الذي يضرب المصريين والعرب ويأخذ دائمًا زمام المبادرة الهجومية، وتتحدث الصحف والإعلام عن التوسع في التعليم والتعليم ينحدر، وتتكلم عن الإصلاح الزراعي ونحن لا ننتج القمح الذي يكفينا، ونمد أيدينا، بل نرهن إرادتنا للسوفيت؛ من أجل توريد ما نحتاجه، وهناك أزمات في المواد التموينية والأقمشة الشعبية ومواد البناء، وعرف الناس الطوابير الطويلة أمام الجمعيات الاستهلاكية؛ من أجل الدجاج والزيت والسكر وقماش الدبلان والدمور والملابس المدعمة، بدأ الناس يعيشون أو يتعايشون مع أزمات يومية تتعلق بحياتهم ومعاشهم، ولكنهم في المساء يعيشون في عالم وردي أو خيالي مفترض، يصنعه صوت العرب بقيادة أحمد سعيد، والصحف اليومية بقيادة محمد حسنين هيكل، وتخوض السلطة معارك إعلامية لا مسوغ لها مع حكومات عربية وأجنبية، وهجاء لا تسنده القوة ولا الإرادة ضد العدو الذي يزداد قوة وحيوية، ويرسخ وجوده في الأرض المحتلة بالاستيطان والزراعة والصناعة والتفوق العلمي، وتقديم نفسه واحة للديمقراطية في الشرق الأوسط الذي كان اسمه الشرق العربي أو الشرق الأدنى، الذي يعد صحراء قاحلة خالية من الحرية والكرامة الإنسانية، ويحكمها من يملك القوة والسلاح!

### مكتبتي علمتني الحرية:

في هذه الفترة كتبت أول مقالة نشرتها في مجلة دار المعلمين السنوية، وكانت بعنوان "مكتبتي علمتني الحرية"، كما نشرت لي صورة مع بعض زملائي ونحن نجري حوارًا صحفيًّا مع وكيل الدار فيما أذكر. لا أعرف أين تقبع هذه المجلة الآن بعد أن صارت مكتبتي الخاصة في البيت القديم والبيت الجديد ركامًا بعضه فوق بعض، لدرجة أنني لا

أستطيع استخلاص كتاب أريده أو مجلة أطلبها إلا بشق الأنفس. لم يعد مجديًا أنني صنعت دواليب فخمة وخزائن قيمة للكتب والمجلات، وجلدت كثيرًا من الدوريات، ولكن كثرة ما اقتنيته من كتب ومجلات وملفات ساح بعضه على بعض، ومع وهن الصحة وضعف الجسد وتعدد الأمراض، صار التعامل مع المكتبة ومحتوياتها أمرًا لا طاقة لي به، ويكفي أن أقول: إن انحنائي لرفع مجلد من على الأرض يصيبني الآن بالدوار والتعب الشديد.

قبل أيام انتهزت فرصة وجود أحد أبنائي في البيت، فأخذته معي لينقل بعض الركام؛ كي يفتح لي طريقًا إلى بعض الخزائن؛ لأحصل على كتب بعينها. فكرت أن آتي ببعض المتخصصين في المكتبات لترتيبها وتنظيمها، ولكن عرفت أنهم لا يتحمسون للعمل في القرى أو خارج المدينة، ومع ذلك سأحاول مرة أخرى.

### هاشم الرفاعي في الإذاعة المدرسية:

كانت الخطوة المهمة في دار المعلمين هي المشاركة في الإذاعة المدرسية. كنت خجولا ولا أعرف كيف أقدم نفسي للمشرف على الإذاعة أو الطلاب الكبار الذين يقومون عليها. عرضت الأمر على أحدهم من الطلاب الكبار الذين لا يشاركون في الإذاعة ولكنه جريء، فأخذني على الفور وذهب بي إلى غرفة الإذاعة وقدمني إليهم. طلبوا مني أن أوافيهم بالموضوع الذي سألقيه في كلمة الصباح، وأذكر أنني أعددت كلمة عن الشاعر "هاشم الرفاعي شهيد الحرية" وذهبت في الصباح الباكر قبل الطابور بنحو ساعة. قرأت الكلمة قراءة تجريبية وكنت متوترًا ومضطربًا، فقالوا سوف نسجل الكلمة هذه المرة وفي المرة القادمة تلقيها مباشرة. سجلتها وأنا أقل اضطرابًا على المسجل (الروكوردر)، وكان أيامئذ من الحجم الكبير، وخرجت لأقف مع زملائي في الطابور. سمعت صوتي ينطلق من مكبر الصوت. كان الطلاب بجواري مندهشين ويتضاحكون، ولكني كنت سعيدًا وأنا أشارك في النشاط المدرسي ويسمعني زملائي، ومنهم زميلي الطالب الكبير الذي قدمني إلى فريق الإذاعة.

كانت الإذاعة المدرسية تدريبًا على الخطابة ومصدرًا للأخبار التي يقرأها الطلاب، وحوارات مع بعض الأساتذة وإعلانات عما يجري في الدار أو عما سيجري من نشاطات منهجية أو غير منهجية أو رحلات أو غير ذلك. وكانت فترة الفسحة الكبيرة مناسبة لإذاعة بعض الأناشيد وأغاني أم كلثوم، من خلال نظام الأسطوانات الذي كان سائدًا في ذلك الحين. ويمكن أن تذيع بعض تعليمات الإدارة أو بياناتها المتعلقة بالطلاب أو الدار.

**مشاركة .. وزميل:**

صرت أشارك بعدئذ في نشاطات الإذاعة حتى صرت واحدًا من أفرادها، أذيع الأخبار والبيانات، بل إنهم في السنوات التالية أسندوا إليَّ فتح الإذاعة في الصباح، وقبول المتحدثين من الزملاء، وعرفني المشرف الذي كان يدرس لنا اللغة العربية في الفرقة الثانية.

كان من الزملاء الذين شاركتهم النشاط الإذاعي المدرسي محمد عبد القوي الغلبان. كان أكبر مني ويسبقني بسنة، ونتشارك في إذاعة النشرة والبيانات، بالإضافة إلى تقديم كلمات الصباح. تخرج قبلي بعام، ولكننا دخلنا الجيش مجندين في عام واحد عقب الهزيمة، وخرجنا بعد ست سنوات في دفعة واحدة. كان الغلبان من قرية مجاورة اسمها شباس الملح، وعين مدرسًا، ولكنه بعد التجنيد لم يعد إلى قريته؛ فقد كانت لديه موهبة التمثيل والتأليف، وعلمت من بعض الزملاء الذين جُندوا بعد التخرج، أنه كان يشارك بالتمثيل والتأليف في احتفالات القوات المسلحة، فنقلوه إلى التوجيه المعنوي، أو ما يسمى الآن إدارة الشئون المعنوية، وظل بها حتى أنهى فترة الاستبقاء، فدخل المجال الفني، ورأيت اسمه مؤلفًا لبعض التمثيليات المسلسلة، ولكنه غيره إلى محمد جلال عبد القوي، وقد لاقت مسلسلاته نجاحًا ملحوظًا لدى الجمهور..

بعد سنوات عديدة حضر إليَّ في الجامعة أحد أشقائه - ولعله الأصغر - لأشرف عليه في رسالته للماجستير، وعرفت منه أنه أخوه، وفهمت أنه لا يزور القرية، ويتردد بين القاهرة والإسكندرية، ويبدو أن الحياة الفنية استغرقته.

### اليوميات .. والكرة:

كنت أقدم برنامجًا صباحيًّا بعنوان يوميات، أتناول فيه الأحداث السياسية والاجتماعية والرياضية. ولاحظت أن الموضوعات الرياضية كانت هي التي تشغل الطلاب والمدرسين، وأذكر أن حلقتين من اليوميات شغلتا الطلاب، ولقيتا منهم اهتمامًا غير عادي. الأولى كانت في رثاء لاعب كرة قدم شهير في النادي الإسماعيلي، اسمه رضا، توفي في حادث عارض، وكان اللاعب محبوبًا من جمهور كرة القدم. وكنت قد استمعت إلى نبأ وفاته من إذاعة أجنبية ناطقة بالعربية قبل إذاعة الخبر في الإذاعات المصرية، أو نشره في الصحف المصرية، وجاء تعليقي قبل انتشار الخبر، فكان له وقع الصدمة على الطلاب، والتفوا حولي بعد انتهاء الطابور يسألونني عن الخبر وتفاصيله.

والمرة الأخرى كانت عندما علقت على نتيجة مباراة بين الأهلي والزمالك، واستنكرت فيها التعصب الذميم الذي يقطع أواصر المودة بين الزملاء والأصدقاء، وقلت في آخر التعليق إنني أشجع نادي السكة الحديد واللاعب نخلة كابتن الفريق. عندئذ سمعت تصفيقًا حادًّا من الطابور، وأنا في غرفة الإذاعة، مع ضحك ونشاط غير عادي بين الطلاب. كان فريق السكة الحديد من فرق الدرجة الأولى، ويلعب مع الأهلي والزمالك، ولكنه عادة يكون في أواخر القائمة، فيهبط أحيانًا إلى الدرجة الثانية، أو يبقى مع أندية الدرجة الأولى. ويبدو أنه الآن اختفى تمامًا من الدرجتين الأولى والثانية، مثل نادي الترام ونادي الأوليمبي، حيث حلت مكانهما أندية جديدة لا أعرف أسماءها ولا أماكنها ولا شيئًا عن لاعبيها.

### التدريب العملي على الكتابة:

كانت اليوميات الإذاعية - فيما أتصور - بداية التدريب العملي على الكتابة اليومية، وكنت أسجلها في كشكول ضاع مني، وأحلم أن أجده لأرى بعضًا من عمري الذي مضى. ولعل هذه اليوميات كانت وراء تشجيعي للكتابة ومراسلة المجلات والصحف عبر البريد. فقد تشجعت وكتبت مقالا قصيرًا، وأرسلته إلى مجلة الرسالة، وكانت فرحتي لا

حدود لها حين وجدت اسمي في بريد القراء مسبوقًا بلقب الأديب، مع رد يفيد بوصول مقالتي، وكان عنوانها الشاعر محمد إقبال.

شجعني الرد على كتابة رسائل ومقالات أخرى، وكان الرد تزداد مساحته كل مرة، حتى رأيت مقالاتي تنشر كاملة في البريد الأدبي بالرسالة. وفي الوقت ذاته كنت أراسل مجلة الثقافة، وأبعث إليها ببعض القصص القصيرة - وكان فيها قدر كبير من السذاجة - ولا أذكر منها شيئًا الآن مع مشاركات في القضايا المطروحة على صفحات المجلة. وكان محرر بريد الثقافة والقراء يرد عليَّ ويناقش ما أكتبه.

ومن خلال رسائلي الأدبية إلى الرسالة، عرفت الشاعر الكبير الراحل عبده بدوي، الذي كان مديرًا لتحريرها، وتوطدت علاقتي به وبأسرته حتى رحيله ودفنه في قريته القريبة من قريتنا في 27 من يناير عام 2005.

كما عرفت الأستاذ حسن جلال عبر البريد، وكان مستشارًا قانونيًّا يحب الأدب، وتولى تحرير باب بين الثقافة والقراء في مجلة الثقافة، وكنت أتمنى لقاءه، ولم تتح لي الفرصة للأسف الشديد، فقد كانت رسائله تدل على خلق طيب وذوق رفيع وثقافة عالية، وكان يكتب إليَّ رسائل خاصة مطولة، وقد قرأت نعيه في الأهرام قبل سنوات - رحمه الله.

**الذهاب إلى البحر:**

في إجازة الصيف بعد امتحان الفرقة الأولى في دار المعلمين، شاركت في معسكر اجتماعي ثقافي خارج المدينة والمحافظة كلها. ذهبت إلى رأس البر في معسكر شبابي على شاطئ البحر، ضم طلابًا من مختلف أنحاء الجمهورية، كما سبق أن أشرت، وكانت رأس البر في ذلك الحين آية في النظام والهدوء والنظافة، مع أن أماكن الإقامة فيها تعتمد على بناء ما يسمى بالعشش من عيدان الغاب النباتية والأحراش، وكان يسكنها كبار المشاهير في الأدب والفكر والثقافة والفن، ومنهم العقاد والزيات وأم كلثوم، وكان معلومًا أن هواة الضجيج والصخب لا مكان لهم هناك. كان معسكرنا في نهاية العشش في شارع 101 بعيدًا عن الجمهور، وكانت هناك فترات مخصصة لنزول البحر، فضلا عن تخصيص أوقات للمحاضرات وحفلات السمر، وكلها تصب في إطار التوعية الثقافية، والتعرف على البيئات

المختلفة التي جاء منها الطلاب المشاركون، وكان مدير المعسكر رجلا فاضلا مهذبًا، يتعامل مع الطلاب بروح الأب الحاني، ومعه مجموعة من المشرفين الأكفاء، وكان المعسكر يخصص بعض فترات المساء للجولات الحرة في أرجاء المدينة، فكنا نمضي في شوارعها أو على الشاطئ مشيًا حتى نصل إلى نهايتها، حيث المنطقة التي تسمى باللسان، وهي منطقة صخرية أو خرسانية، تفصل ما بين النيل الهادئ والبحر الصاخب، وهنا يتحقق قول ربنا سبحانه ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن]، وكانت لحظة الغروب على اللسان من أجمل اللحظات حيث تغيب الشمس، بينما الدرافيل تلعب على سطح البحر وتمرح دون خشية من أحد، والجمهور بلا حصر يملأ اللسان، ويشاهد المنظر الطبيعي الخلاب، ويتناول المرطبات وغيرها، بينما تتحرك مجموعات المصطافين ذهابًا وإيابًا سعداء في الأغلب الأعم بالنزهة الطبيعية بين سكون النيل الوديع، وهدير الموج الأجاج.

وتميزت المدينة دون غيرها من المصايف في ذلك الحين بوجود وسيلة مواصلات شعبية، اسمها الطفطف، وهي تشبه الترام، وتجره قاطرة تتحرك بوقود بترولي، وتمضي على عجلات كاوتش. وكان المصطافون يركبونه بوصف ذلك نوعًا من النزهة والترويح، وإن كان كثير منهم يفضل السير على قدميه في الانتقال من مكان إلى مكان على الشاطئ أو في أرجاء المدينة.

كانت رأس البر في ذلك الحين ذات تقاليد، مثلا الفترة منذ الفجر حتى الثامنة صباحًا كانت متاحة للسيدات والبنات في النزول إلى البحر، وبعدها ينزل الرجال حتى آخر النهار، ولذا لا تكون هناك مضايقات ولا معاكسات .. ولكن الأمر بعد هزيمة **1967**م اختلف، فقد تحولت العشش النباتية إلى عمارات خرسانية كالحة، وصارت العشوائيات هي المسيطرة على الشكل العام للمدينة، وتحول معظمها إلى مستقر أو مكان للمعيشة، والعمل طوال العام؛ خاصة بعد أن استوطنها المهجّرون من مدن القناة، وفي مقدمتهم المهجّرون من بورسعيد، وقد رأيتها في الثمانينيات شكلا مختلفًا تمامًا، لا يغري بقضاء الصيف ولا البقاء فيها.

لقد ذهبت إليها مع بعض الزملاء في هيئة التدريس؛ لنقضي أياما هناك، فأحسست أن قضاء الصيف في قريتي أفضل من قضائه هناك، فقد كان مكان إقامتنا بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، وكان توفير مواد الإعاشة مزعجًا، وإن كانت الحكومة قد وفرت الخبز بصورة معقولة، ثم إن مكان الإقامة، مع أنه يعد أفضل بالنسبة لغيره، لم يكن ملائمًا للأسر التي تقضي الصيف، ولا أدري الآن إلى أي حد وصلت هذه المدينة التي أحببتها في شبابي حبًّا جمًّا، وتعرفت فيها على أصدقاء من الشباب، واكتسبت من خلالها معارف اجتماعية لا بأس بها.

### جائزة في معسكر:

حضرت في إجازة الصيف بعد امتحان الفرقة الثانية معسكرًا آخر للفتوة بالإسكندرية، وكان مقره في منطقة المكس قبيل الدخيلة على شاطئ البحر، وكان يهدف إلى تعويد الطلاب على أوليات العسكرية والانضباط في الحياة اليومية؛ من حيث اليقظة، ومواعيد الطوابير، وتناول وجبات الطعام والنوم والترفيه. وقد حضرنا استعراضًا عسكريًّا ضخمًا، شاركنا فيه مع طلاب آخرين في نادي سبورتنج الرياضي، وأذكر أنني كدت أفقد زملائي بسبب تخلفي عنهم لأمر لا أذكره، لولا أن لمحني أحد الضباط مرتديًا زي الفتوة، فعرف أني من طلاب المعسكر. وكان يتحرك بالسيارة مع مجموعته، فأوقفها وحملوني معهم إلى المكس.

كما أذكر أن المشرف الاجتماعي على المعسكر، أعلن في بداية النشاط عن مسابقة لكتابة بحث حول السد العالي، فاشتريت كراسة بقرش صاغ، وبدأت أكتب البحث الذي استغرق صفحات الكراسة جميعًا، وقدمته إلى المشرف الذي انبهر به، ويوم إعلان النتيجة كنت الفائز الأول، وكانت جائزتي ساعة منبهة متوسطة الحجم (منبه)، سلمها لي وزير الشباب يومئذ، وكان اسمه محمد طلعت خيري، ومعه وزير آخر هو وزير التربية والتعليم، واسمه سيد يوسف على ما أذكر. وظللت أحتفظ بجائزتي (الغالية) هذه إلى سنوات غير بعيدة، حتى أتى عليها أطفالي في عبثهم بأشياء المنزل التي كانت تقع تحت أيديهم.

كانت الفسحة التي تتاح لنا في بعض أيام الأسبوع، ويمنحها قائد المعسكر تجعلني أقضيها في محطة الرمل والمنشية، وتمثل محطة الرمل منطقة جاذبة؛ ففيها تلتقي تجمعات كبيرة من المواطنين، وبها حدائق ومسجد القائد إبراهيم وشوارع تجارية ومكتبات ومحلات ومعارض للهدايا ومقاه ومطاعم ودور سينما، وغير ذلك، والأهم من ذلك أكشاك الصحف والمجلات ومكتب السنترال (الهاتف)، وهناك تعرفت على بائع صحف، يعد من أقدم الباعة وهو الحاج محمد الرملي، وله زبائن دائمون يترددون عليه من زمن طويل، وقد ظللت أمر عليه بعدئذ كلما ذهبت إلى محطة الرمل في أثناء تجنيدي بالقرب من الإسكندرية، أو في أثناء زياراتي المتقطعة. وكان الرجل يعرض عليّ بعض الكتب الأدبية التي يرى أنها تناسبني، وأيضًا بعض الكتب المستعملة، وأذكر أني اشتريت منه كتاب المدخل إلى النقد الأدبي لمحمد غنيمي هلال مجلدًا بخمسين قرشًا.

عرفت عند الحاج الرملي المجلات الأدبية، وخاصة الأديب والآداب والعلوم والحرية وغيرها، وكان يحجز لي الأولى والثانية حتى أعود إليه في المرة التالية وكانت الأديب والآداب تتنشران لي ما أكتبه من موضوعات أدبية بعد أن توقفت الرسالة والثقافة وبقية المجلات الأخرى، وكنت أستمتع برؤية أو استعراض الكتب والمجلات الصادرة حديثًا، وكان يتيح لي أن أقلب في بعضها وأطلع على محتواها، وقد يعجبني بعضها فأشتريه، أو يعرض عليَّ الرجل أن آخذ ما أريد على أن أسدد ثمنه فيما بعد، ولكني كنت أشكره وأعتذر عن الاستدانة. عودت نفسي طوال حياتي ألا أشتري إلا ما أملك ثمنه. حتى اليوم لا أستدين أبدًا تحت أي ظرف. لقد تعلمت أن الدّيْن همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار ولو كان ثمن كتاب.

وأحسب أن زياراتي في الصيف للإسكندرية وأنا طالب في المعلمين أو بعد التخرج، كانت تصب في مجال التعرف على الوسائط الأدبية من صحف ومجلات وكتب، ورؤية بعض الأدباء الكبار والفنانين المشهورين، فقد عرفت بعض المجلات العربية الشهرية والصحف اليومية التي تصدر في بيروت، ورأيت فيها - كما سبقت الإشارة – أسلوبًا آخر وطريقة أخرى للتفكير، ومعالجة بعض القضايا تختلف عن معالجة الصحف المصرية.

ورأيت بعض الأدباء على مقاهي محطة الرمل وفي منتديات الإسكندرية، وشاهدت الفنان محمود شكوكو بزيه المميز: الجلباب والطربوش والعصا، وكان يمشي في شارع متفرع من محطة الرمل.

**شاعر .. ومحاضرة:**

كان هناك معسكر سنوي محلي، تعقده دار المعلمين في الصيف لطلاب السنة الثالثة أو الرابعة لا أذكر بدقة، وقد شاركت فيه مع بعض زملائي من القرية وقد اختيرت له مدرسة على أطراف المدينة حينئذ – الآن صارت في قلبها – وقضينا أسبوعين، وكان اتجاه المعسكر ينحو إلى تعريفنا بالسياسة العامة، وتكريس الولاء للنظام القائم، وشرح الميثاق، ومناقشة أبوابه ومحتوياته، بيد أنه احتوي على بعض الأنشطة المفيدة، ومنها محاضرات ثقافية وأدبية، ما زلت أذكر واحدة منها وكانت للشاعر عبد الغني سلامة، وكان موجهًا بالتعليم الابتدائي بالمدينة، وأحد أبنائه كان طالبًا معنا في دار المعلمين. محاضرة الرجل كانت عن الشعر الموروث المتساوي الشطرين، وشعر التفعيلة أو الشعر الحر كما يسميه بعضهم، وأمتعنا الرجل بمحاضرته، وقرأ علينا بعض أشعاره، ولعلي حصلت منه على نسخة من ديوانه. وفرح حين ذكرت له أنني قرأت بعض قصائده في الصحف السيارة.

**الرجل العجوز:**

كما أذكر أن معسكر دار المعلمين بدسوق قادنا ذات ليلة إلى بعض المقاهي المشهورة في المدينة، وكانت إحداها قرب المحطة في الشارع الرئيس – شارع سعد أو شارع المحطة كما تسميه العامة – كنا نشرب الشاي وبجوارنا رجل عجوز يلبس بدلة متربة قديمة وطربوشًا أحمر داكن اللون، ومنظره بصفة عامة عامة يوحي بالبؤس والفقر. ولا أدري من الذي بدأ الحوار معه أو استنطقه. عرفنا أنه كان صحفيًّا بإحدى الصحف منذ مرحلة ما قبل يوليو 1952، وأنه يعرف معظم الصحفيين الكبار معرفة دقيقة، وحدثنا عن أغلبهم حديثًا غير مريح، يختلف عن الصورة التي نعرفها من كتاباتهم وكتبهم، وقد سألته عن الصحفي الفلسطيني ناصر النشاشيبي الذي فتنت بكتاباته، وأشرت إليه في سطور سابقة، فإذا بالرجل ينطلق بكلام ينسف الصورة التي في ذهني عن النشاشيبي

تمامًا. بدا أنه متمكن مما يقول، وعارف به جيدًا، ولكن عين الحب كما يقولون عمياء، فحاولت أن أدافع عن ناصر، وألا أصدق الرجل، ولكنني بعد أن انصرفنا ترسب في نفسي شيء من الشك، عززته قراءاتي فيما بعد لما تنشره الصحف اللبنانية عن بعض الشخصيات الثقافية والصحافية في مصر. كانت الكلمة المكتوبة في الصحيفة شبه مقدسة، لا يجوز أن يكذبها أحد أو يلوثها أحد، وهي نظرة امتدت إلى ما يقوله القادة والساسة في بلادنا، فكنا نصدقهم في كل شيء، لدرجة أننا صدقناهم في كلامهم عن تحرير فلسطين؛ لأن ما يقولونه نطالعه مطبوعًا في الصحف والمجلات، حتى كانت الفجيعة في عام **1967**.

يبدو أن الرجل العجوز الرث الهيئة كان صادقًا إلى حد كبير، فقد عرفت أن الصحفي الذي فتنت بكتاباته تخلى عن كل ما قاله من قبل عن فلسطين، وتحول إلى (صديق) للقادة اليهود داخل فلسطين المحتلة، وأنه صار مقربًا منهم، ويزورهم في منتجعاتهم ومنازلهم في مستعمرات الأرض السليبة، وعبّر عن ذلك في كتبه التي نشرها بعد أن عاد إلى القدس المحتلة، وقرأت بعضها مسلسلة في الصحف المهاجرة بالعواصم الغربية، لقد أقام في القدس المحتلة حتى رحيله في مايو **2013** الماضي.

### السذاجة الريفية:

هذا الصحفي العجوز الذي قابلته على المقهى في ليلة من ليالي الصيف في أثناء دراستي بدار المعلمين قلل من سذاجتي الريفية، وتصديقي لكل ما يقال، وزرع في داخلي ضرورة الشك والتساؤل، خاصة فيما يتعلق بالكتابة والكتّاب، ودفعني لتأمل معجم الكاتب والصحيفة والكتاب؛ لدرجة أنني بعدئذ صرت أعرف اتجاه صاحب الكتابة من خلال كتابته، بل أعرف توجه الخبر من خلال صياغته، وأعرف توجه الصحيفة أو المجلة أو الكتاب من خلال المواد المنشورة في الصفحات.

الرجل الرث المجهول كانت نقطة من نقاط التحول المهمة التي غيرت نظرتي الساذجة إلى الأشياء بصفة عامة، ومن بينها الكتابة والكتاب. للأسف لم أحفظ اسم الرجل، ولا أين يعيش، ولعله قدم من القاهرة ويدور في المدن والأقاليم؛ ليجد من يعطف عليه، أو يترفق بشيخوخته التي تحتفظ بذهن صاح ووعي حي وذاكرة قوية فيما يبدو من حديثه.

### معسكر فاشل:

عقب تخرجي وحصولي على دبلوم المعلمين، ذهبت إلى معسكر في مدينة بلطيم، وكان يقوده مدرسو التربية الرياضية، ونزلنا في مبنى إحدى المدارس، وللأسف لم يكن المعسكر جيدًا، فقد كان واضحًا فيه تنازع القيادة بين المشرفين، وزاد الأمر سوءًا أن مورّدي التغذية لم يكونوا على مستوى الأمانة حيث كانت اللحوم فاسدة، والطعام بصفة عامة لم يكن على مستوى الجودة المفترضة في مثل هذه المناسبات أو غيرها، وأذكر أنني مع بعض الزملاء وأحد المشرفين عدنا قبل انتهاء الموعد المقرر لختام أعمال المعسكر. وكان هذا آخر عهدي بالمعسكرات الطلابية والشبابية، لأدخل بعدها إلى المعسكرات الحقيقية التي قضيت فيها أزهى سنوات العمر من أجل مواجهة الغزاة، وسيأتي الحديث عنها في مرحلة لا حقة إن شاء الله.

### صديقي أمين المكتبة:

عرفت في مكتبة المعلمين أمينًا جديدًا، انضم إلى الأمين السابق. كان من أبناء المدينة، وابن عائلة معروفة، تخرج في كلية الآداب بالإسكندرية من قسم التاريخ على ما أذكر، ولكنه جاء ليدرّس الإنجليزية، إلى جانب أمانة المكتبة التي وجدت في المبنى الجديد الذي انتقلنا إليه، ونحن في الصف الثالث قاعة كبيرة وفسيحة. تعرفت إليه بحكم ترددي المستمر على المكتبة، لدرجة أنه كان يترك مفتاحها معي حين يغيب لأستقبل الطلاب في أثناء الفسح؛ ليستعيروا الكتب أو يردوها أو يطالعوها.

وفي هذه الفترة بدا لي أن اشتري جهاز راديو، وكان قد ظهر آنئذ نوع صغير يسمى الترانزستور، ورأيت نماذج له في أحد المحلات، ثمنها أقل من عشرة جنيهات، توفر معي نحو خمسة جنيهات، وأعانتني الأسرة بنحو جنيهين، وأخذت الأمين الصديق، واشترينا جهازًا بسبعة جنيهات وربع جنيه، ليكون بجواري في البيت أسمع المواد الإذاعية المختلفة. أهم ما شدني في متابعة الإذاعات إذاعة البرنامج الثاني بالإذاعة المصرية، وهو برنامج يبث إرساله بدءًا من التاسعة والنصف مساء حتى الواحدة صباحًا تقريبًا. وكانت مواد البرنامج تتنوع بين الأدب والمسرح والفلسفة والموسيقى والنقل الحي من المنتديات

الأدبية، كما كانت تتضمن بث ندوات وحلقات في النقد الأدبي وعروض الكتب، ويوم الخميس كان يذيع مناقشة حية لرسالة ماجستير أو دكتوراه.

كان هناك في البرنامج الثاني عدد من المذيعين الأدباء الذين عرفتهم فيما بعد، وكان من بين مواده برنامج يتناول رسائل المستمعين، وبرنامج آخر يقدم إنتاجهم ويناقشه مع النقاد، فكنت حريصًا على متابعتهما، وكانت تشدني المسرحيات التي يمثلها كبار المؤدين، سواء أكانت من الأدب العالمي أو الأدب العربي، وأذكر أنني كنت شغوفًا بالمسرح الإغريقي واللغة الفصحى التي كانت تظهر على ألسنة الممثلين في أداء رائع.

وفي البرنامج العام بالإذاعة المصرية كان هناك برنامج اسمه الفكر العربي أو نحو ذلك، يقدمه السيد الغضبان، وكان الرجل يذيع ما أبعث به من موضوعات، وقد تعرفت إليه فيما بعد، والتقينا في إحدى المناسبات، وبحكم السن فقد ترك الإذاعة، ولكنه يمارس الآن الكتابة في بعض الصحف الأسبوعية أو اليومية، ويعالج فيها الشئون العامة، وخاصة شئون الإعلام والثقافة.

**مصدر المعلومات والثقافة:**

كانت الإذاعة حتى ذلك الوقت، وإلى ما بعد الهزيمة والعبور بسنوات، تمثل المصدر الأول للمعلومات والثقافة العامة لدى الجمهور العريض من الشعب. وانتشر الترانزستور ين أفراد الشعب، إلى جانب الراديو ذي البطارية الجافة، وهي بطارية تعمل لعدة شهور، ثم يتم تغييرها بأخرى جديدة وهكذا. وكان وجود الراديو عاملا مهمًّا في نشر اللغة الفصحى، من خلال نشرة الأخبار والأحاديث الأدبية والمتحدثين المثقفين، وصارت الفلاحات الأميات والفلاحين الأميون يملكون معجمًا فصيحًا أو ألفاظًا فصيحة، تظهر في بعض جملهم أو تعبيراتهم، وإن كانت بعض المسرحيات والتمثيليات العامية قد أشاعت معجمًا سخيفًا، روجه بعض الممثلين، بزعم أن ذلك نوع من الكوميديا أو السخرية، ولكنها كوميديا الألفاظ، وليست كوميديا المواقف الأكثر عمقًا وتأثيرًا.

ويمكن القول إن التمثيلية الإذاعية، وخاصة في شهر رمضان، كانت تحظى بإقبال شديد، وكانت تمثيلية ألف ليلة التي يكتبها الشاعر الراحل طاهر أبو فاشا من أكثر

التمثيليات إقبالا أو استماعًا، فقد كان يحتشد لها عدد كبير من أهل التمثيل والإخراج، يجسدون ما يكتبه المؤلف الموهوب، وكانت لغتها راقية بصفة عامة، فمقدمتها التي تهيئ للأحداث تجرى بلغة فصحى سهلة وعذبة، ثم تأتي الأحداث في حوار بالعامية التي تقترب من الفصحى، وكان الكاتب يسقط أحداث ألف ليلة على ما يجري في الواقع المعيش، وخاصة ما يتعلق بالصراع مع العدو في فلسطين المحتلة. وكانت الحبكة التي يصوغها الكاتب، وتمزج ين الخيال والواقع، تثير أشواق المستمعين لمتابعتها، والتلهف على معرفة مصائر شخصياتها وأبطالها.

وكان هناك مسلسل مهم حول قصص الأنبياء، يكتبه محمد علي ماهر – الكاتب الاسلامي المعروف في ذلك الوقت - وكان في كل عام يقدم قصة نبي من الأنبياء باللغة الفصحى، ويقوم بأدائها كبار الممثلين الذين يتابعهم الجمهور بشغف وشوق.

كما كان هناك نفر من الكتاب تخصصوا في كتابة التمثيليات الشعبية التي تعتمد على الموال الشعبي أو الغناء الشعبي، وتعالج مواقف متنوعة تجري في الريف أو الأحياء الشعبية في المدن، إلى جانب بعض القصص، مثل قصة أيوب وناعسة، وقصة أدهم الشرقاوي. وكانت هذه التمثيليات تحظى بنسبة استماع عالية.

### التلفزيون في القهوة:

عندما دخلت الكهرباء إلى المدن الصغيرة والقرى في السبعينيات، ذهبت نسبة الاستماع الإذاعي الكبيرة إلى مشاهدة مسلسلات التلفزيون، الذي أخذ ينتشر في كثير من البيوت، وأذكر أنني في الستينيات، لم أشاهد تمثيلية تلفزيونية إلا في أثناء معسكر المعلمين بدسوق، فقد قضينا أمسية في قهوة مزيد، وكانت واسعة للغاية، وجدرانها عالية، ورأينا تمثيلية كتبها عبد الرحمن الخميسي، وتأثرنا بها تأثرًا كبيرًا. كان مكان القهوة بالقرب من المسجد الإبراهيمي ناحية الخلاء، الذي كان موجودًا آنئذ، والمتجه ناحية النهر، وكان شباب القرية يذهبون إليها لمشاهدة مباريات كرة القدم المنقولة على الهواء، وخاصة إذا كانت بين الأهلي والزمالك، نظير مضاعفة ثمن المشروبات التي تقدمها القهوة. كان التلفزيون عامل جذب للزبائن وازدحام القهوة؛ لأن معظم الناس لم يكن لديهم

أجهزة تلفزيون، وكانوا يرون في المقهى فرصة للاستمتاع بالتلفزيون في مشاهدة ما يحبون مشاهدته، ولو كان المقابل دفع قرش أو قرشين زيادة على ثمن المشروب الذي يتناولونه.

**أعوام حافلة:**

كانت أعوام **1963 - 1965**م حافلة بالأحداث على المستوى السياسي، وكان الإعلام المصري قد نجح في تعبئة الجماهير العربية وراء عبد الناصر، بوصفه القائد والزعيم الملهم الذي يقود الأمة إلى الوحدة العربية، ويتحرك بها على طريق النصر المؤزر بتحرير فلسطين، وتخليص المنطقة من الاستعمار الصهيوني.

بدأت في هذه الفترة عملية الاهتمام بالقضية الفلسطينية، وإنشاء ما يسمى بالكيان الفلسطيني، من خلال ما يسمى منظمة التحرير الفلسطينية، ومنحها مقعدًا في الجامعة العربية، وتعيين أحمد الشقيري رئيسًا لها، وكان الرجل قبل ذلك مندوبًا للسعودية في الأمم المتحدة. وتميز بالصوت القوي الذي ينافس حنجرة أحمد سعيد في صوت العرب، وكانت لديه قدرة كبيرة على الخطابة بصوته الجهوري لمدة ساعات في صوت فلسطين الناطق باسم المنظمة من قلب إذاعات القاهرة، وكنا نحن الشباب نعجب ببلاغة الرجل وقدرته على الخطابة، وكانت إذاعة العدو تشعر بقلق من خطابات الرجل، وترد عليه في إذاعتها الرئيسة الناطقة بالعربية، أو من خلال برنامج أو إذاعة خاصة تبث لوقت محدود اسمها أبو زكي، وترد عادة باللهجة الفلسطينية.

ظل الشقيري رئيسًا للمنظمة حتى أعلنت منظمة فتح عن نفسها، وتشكيل جناحها العسكري المسمى العاصفة في مطلع عام **1965**م، بقيادة ياسر عرفات (أبي عمار)، وبدا أن مصر والدول العربية الثورية تحبذ إنهاء دور الشقيري، وإحلال عرفات مكانه، ليكون زعيمًا للثورة الفلسطينية.

**مؤتمر القمة العربية:**

وكانت مصر قد دعت إلى مؤتمر قمة للدول العربية، فانعقد بالإسكندرية في الفترة ما بين **13 - 17** يناير **1964**، وهي ثالث قمة لجامعة الدول العربية، كانت القمة الأولى على عهد الملك فاروق في بلبيس عام **1946**؛ من أجل فلسطين، والثانية عام **1956** في بيروت

عقب العدوان الثلاثي على مصر. وقد انعقدت قمة الإسكندرية بناء على طلب الرئيس المصري لبحث التهديدات الإسرائيلية بتحويل مجرى مياه نهر الأردن، وتبرعت فيها السعودية بأربعين مليون دولار، والكويت بخمسة عشر مليون دولار، وليبيا بخمسة وخمسين مليون دولار، لصالح القضية الفلسطينية، وصدر عن قمة الإسكندرية بيان ختامي، تضمن الإجماع على إنهاء الخلافات، وتصفية الجو العربي، وتحقيق المصالح العربية العادلة المشتركة، ودعوة دول العالم وشعوبها إلى الوقوف إلى جانب الأمة العربية في دفع العدوان الصهيوني.

**محنة الإخوان:**

وشهد عام **1965**، قيام جمال عبدالناصر باعتقال من تم الإفراج عنهم من الإخوان المسلمين مرة أخرى، وبالأخص سيد قطب، وغيرهم من قيادات الجماعة؛ بدعوى اكتشاف مؤامرة لاغتياله، وتم التشهير بالجماعة بصورة جعلتهم شياطين الإنس أو إخوان الشيطان، وكان التشهير في الصحف والإذاعات والندوات والخطب والمدارس والجامعات والاتحاد الاشتراكي، وفي مختلف المناسبات، وأذكر أن صحفيًّا شيوعيًّا كان يتولى إدارة مجلة المصور، نشر تحقيقًا مصورًا حول سيد قطب - رحمه الله - ووضع له صورًا كبيرة بحجم صفحة كاملة من صفحات المجلة، وهو حليق الرأس يرتدي ملابس السجن وكان حافيًا. كانت الصور تحقّر من المفكر الأسير، وتشوّه شخصية العالم الجليل والأديب الكبير الذي كتب في ظلال القرآن، وهو من أروع التفاسير المعاصرة للقرآن الكريم، بالإضافة إلى عشرات الكتب، ولكن مدير التحرير الشيوعي للمصور انتهز الفرصة ليعبر عن غله وحقده على الإسلام، من خلال رجل مسلم شجاع، واجه الطغيان بثبات وجرأة غير مسبوقين في العصر الحديث. لقد أعدم سيد قطب مفكر الجماعة في أغسطس عام **1966**، ومعه بعض قيادات الإخوان، وذاق الاخوان خلال تلك الفترة أشد أنواع التنكيل والتعذيب داخل السجون؛ مما أدى إلى مقتل ما يقرب من **350** إخواني جراء التعذيب البشع.

المفارقة أن مدير التحرير الشيوعي، غادر مصر في عهد السادات، ليعمل بإحدى الصحف اليسارية في بيروت. وفي أيام الحرب الأهلية اللبنانية، أصيب مبنى الجريدة بقذائف المتحاربين أو تم تفجيره ببعض القنابل، وكانت النتيجة انصهار الرصاص والمطابع، وبداخلها مدير المصور الشيوعي، الذي تفحم جسده داخل المبنى المحترق، وقيل إنه ذاب وسط الرصاص، فلم يستطيعوا التعرف على جثمانه! لا أدري كيف تذكرت سيد قطب بمجرد قراءة الخبر، وهلاك صاحبنا الشيوعي الذي لم أشمت فيه، ولكني ازددت إيمانًا بالله وعدالته، التي لابد أن تأتي مهما ظن بعضهم أنها لن تأتي!

لقد امتدت الحملة الحكومية الإرهابية ضد سيد قطب إلى كتبه وتراثه، فقد أحرقت الكتب، ومنعت من النشر في مصر، ونزعت الصفحات التي تتضمن كتابة له من الكتب المدرسية، وحالت الجمارك دون دخول كتبه المطبوعة في لبنان أو غيرها، وأذكر أنني حصلت على كتاب من كتبه سرًّا، وكانت فرصة للصوص التراث الذين سرقوا تراث الرجل وطبعوه خارج مصر، وخاصة في بيروت، وسوقوه في العالم الإسلامي عدا مصر، وكسبوا من ورائه مالا كثيرًا. لقد كنت أستمع لقراءة صفحات من ظلال القرآن عبر إذاعة صوت الإسلام، التي كانت تبث من مكة المكرمة، ولم أستطع اقتناء الكتاب إلا في عهد السادات؛ حيث حجزته في دار الشروق، وحصلت عليه مجلدًا في ستة أجزاء.

أما تشويه كتابات الرجل وتفسيرها تفسيرًا شيطانيًّا، فحدث ولا حرج! وأظن أن من كتبوا عنها لم يقرءوا حرفًا واحدًا منها، ولكنهم كانوا يكتفون بصياغة تقارير الأجهزة الأمنية وتقديمها للناس في صورة مشينة، لا تمت للحقيقة بصلة.

لقد كانت الأعوام الثلاثة حافلة بالأحداث الجسام، التي مهدت لكارثة يونيه **1967**م القاتلة!

* * *

## 10- أطياف ومخاوف

### موضوع الجامعة مرة أخرى:

في الفرقة الثانية كان معنا زميل اسمه الزناتي خليفة، وكانت روحه أقرب إلينا نحن الطلاب الأزهريين، وكان مرحًا، لكن مرحه أقرب إلى الحزن. لا أذكر سبب كرهه للمدرسة، ويبدو أنه رسب ويعيد معنا السنة الثانية لسبب ما لم يكن عادلا، وعرفت أنه في سبيله لدخول الثانوية العامة منازل، وقد سألته هل ستنهض بامتحاناتها؟ فأكد لي أنه سيفعل والباقي على الله. لاأذكر هل امتحن السنوات الثلاث معًا أو بدأ الامتحان سنة بعد سنة. المهم أنه تركنا وعلمت فيما بعد أنه حصل على الثانوية العامة والتحق بإحدى الكليات.

أشعل موضوع الزناتي في رأسي موضوع الجامعة مرة أخرى، وفي الفرقة الثالثة بدأت أعد للمسألة في تكتم، وتقدمت بأوراقي لإدارة الامتحانات بالقاهرة عبر البريد، وسجلت رغبتي للامتحان في المحلة الكبرى، وجاءني الرد وفيه رقم الجلوس بإحدى مدارس المحلة، وقد أردت من أداء الامتحان هناك أن أكون بعيدًا عن القرية والمدينة؛ حتى لا يعلم أحد ويشمت بي إذا لم أوفق. كان الرسوب في هذا الزمان عارًا يدفع أحيانًا إلى الانتحار، كما حدث لبعض الطلاب في قرى مجاورة لقريتنا، ويساعد عليه سخرية بعض الفلاحين الأميين الذين يفسرون الرسوب بطريقتهم الجارحة، كما كان الغش فضيحة لا يمكن التغطية عليها أو التستر؛ ولذا كان الغشاشون على أيامنا قلة قليلة، ويحاولون إخفاء غشهم بكل السبل والوسائل؛ حتى لا يُكْتَشف أمرهم.

### نتيجة ليست طيبة:

كان خالي هو الوحيد الذي يعرف ما أسعى إليه، وذهب معي أيام الامتحان إلى المدرسة التي سأؤدي فيها الامتحان، وأظنها كانت المدرسة الثانوية في منشية البكري على أطراف المحلة. أجبت إجابة جيدة في مواد السنتين الأولى والثانية وأيضًا السنة الثالثة عدا

الإنجليزية والفرنسية؛ ولذا كانت النتيجة عدم التوفيق بسبب هاتين المادتين .. تأثرت كثيرًا، ولكني كنت أعلم أن النتيجة حق، وأنني حاولت استيعاب المادتين بجهدي الخاص فلم أفلح، كنت أشتري كتبًا خارجية تساعد على فهمهما وتشرح الكلمات الصعبة، فكنت أحفظ الكلمات برسمها دون أن أستطيع نطقها. بالطبع لم تكن لدي قدرة مادية على الاستعانة بمدرس خاص في أي من المادتين، وكان يعزيني في كل الأحوال أنني أنجح في المعلمين وأتفوق.

كررت المحاولة أكثر من مرة، وكنت أؤدي امتحان الثانوية منازل عقب امتحاني في المعلمين، ولكن النتيجة لم تكن طيبة، وقد عوضني ربي أنني كنت أول المعلمين في دسوق في السنة الخامسة، وأنني عينت في قرية مقابلة لقريتي على الضفة الأخرى من النيل؛ مما يعد تقديرًا لأولويتي وتكريمًا.

### محاولة في الإسكندرية:

في الإجازة الصيفية عقب التخرج من المعلمين بدأ هاجس جديد يشغلني، وهو أن ألتحق بكلية التربية في الإسكندرية فمجموعي الكبير في المعلمين يسمح لي بذلك، وإن كان لابد من موافقة الكلية أولا على ذلك. كان بالتربية قسمان أحدهما لدارسي العلمي والآخر لطلاب الأدبي، ويجوز لخريجي المعلمين أن يلتحقوا بأي من القسمين؛ لأنهم يدرسون في السنوات الخمس مواد العلمي والأدبي المقررة على طلاب الثانوية العامة، باستثناء اللغات الأجنبية، وكان عليَّ أن أختار قسمًا منهما، العلمي يدرس طلابه في كلية العلوم ناحية محرم بك فيما أذكر، والتربية في مبنى الكليات النظرية في الشاطبي.

لم أسترح للدراسة في كلية العلوم مع أنني فائق في موادها. كنت أريد أن أدرس اللغة العربية أو التاريخ أو الفلسفة، ولكن مسجل كلية التربية قال إنه ليس متاحًا أمامي وأمام طلاب المعلمين الآخرين إلا قسم اللغة الإنجليزية وقسم اللغة الفرنسية .. ضحكت في سري، وتساءلت: لماذا تتعقد الأمور هكذا؟ إنني لم أدرس الإنجليزي بصورة جيدة، تماثل ما يدرسه طلاب الثانوية العامة؛ بحكم قدومي من الأزهر الشريف، ولا أدري ماذا أفعل الآن؟ فاستمعت إلى نصيحة بعضهم أن أقدم الأوراق، ثم بعد ذلك

تكون محاولة لتغيير القسم، فأودعت أوراقي في تربية الإسكندرية، وعدت إلى القرية بعدما علمت أنهم يطلبونني على الفور لتسلم العمل مدرسًا في التعليم الابتدائي.

**أطياف المشايخ:**

كنت طوال الأيام التي أحاول فيها الالتحاق بكلية التربية بالإسكندرية تمرق في ذهني أطياف الطلاب الأزهريين المشايخ في القاهرة وقد تمددوا نائمين في الصباح الباكر، وهم ينتظرون الوظيفة الحكومية التي توفر لهم دخلا طيبًا يحقق لهم الحياة الكريمة بدلا من العمل في مجالات لا تحقق لهم إلا عائدًا محدودًا لا يتكافأ مع مؤهلاتهم. في السنوات الخمس التي قضيتها في دار المعلمين كانت القوى العاملة قد تكفلت بتعيين هؤلاء الأزهريين في وظائف مختلفة. الشيخ أبو النصر صار مدرسًا في مدرسة إعدادية أو ثانوية بمركز شبراخيت، تحول بعدها إلى الإدارة المحلية ليكون رئيسًا لقرية وسكرتيرًا لمجلس المدينة، ثم يذهب في سنوات طويلة إلى الخليج، يعود بعدها وقد صار في المعاش، وهاهو يقارب الثمانين. الشيخ عبد الظاهر التحق بوزارة العدل - فيما يبدو - ومعه الشيخ عبد رب الرسول الذي عمل في التفتيش القضائي، وكان يحلم بالسفر إلى الخليج، وكتب إليّ وأنا في الخارج لأعرفه بمن يستطيع أن يوفر له وظيفة مناسبة، ولكنه غادر الدنيا وهمومها ومشكلاتها إلى حيث الرحمة والرحمن الرحيم. الشيخ إبراهيم تدرج في سلك التعليم حتى أحيل على التقاعد وهو مدير مدرسة ثانوية. الشيخ عطية والشيخ أبو جاموس وغيرهما أخذتهم الحياة في تيارها الذي لا يتوقف، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، ولكن طيف الشيخ أبي النصر، الذي زرته في بيته قبل سنوات قليلة، ما زال يحلق في خيالي: خذ تصديقًا والحق بزملائك لتدخل المعلمين!

**حجاب نفسي وصدود عاطفي:**

كانت سنوات المعلمين حافلة بالحركة والنشاط واكتساب الخبرات، مع أن بيني وبينها حجابًا نفسيًّا، وصدودًا عاطفيًّا. هل كان ذلك تعبيرًا عن حنين إلى الأزهر وأيامه قبل أن يلحقه قطار التغيير إلى الأسوأ؟ ربما. هل كانت الجفوة الروحية مع المعلمين تعود إلى رغبتي في التعليم الجامعي الذي كنت أحلم به منذ المرحلة الابتدائية؟ ربما.

### بلدة تاريخية:

لقد أتاحت لي المعلمين فرصة التعرف على العالم خارج القرية والمدينة. في السنة الأولى أو الثانية أعلنت الدار عن رحلة إلى رشيد، وقيمة الاشتراك عشرة قروش للطالب. وكان معنا مشرف ظريف يدرس لنا الجغرافيا، وكان أقرب إلى السلوك البراجماتي بالنسبة للرحلة وما يجري فيها. لا يتقيد باللوائح والإجراءات البيروقراطية، ولكنه يحقق للطلاب ما يريحهم ويفيدهم عمليًّا. ركبنا القطار إلى البصيلي، مرورًا بفوة ومطوبس، وما بينهما من قرى، ومن البصيلي جاء قطار من الإسكندرية حملنا إلى رشيد، وهناك رأينا بلدة تاريخية وادعة .. قرأت قصة حملة نابليون عليها ومقاومتها للفرنسيين في روايتين؛ الأولى كتب صفحات منها القائد والزعيم الملهم جمال عبد، الناصر وصاغها الروائي عبد الرحمن فهمي، والثانية كتبها من قبل ابن رشيد وابن عائلة مشهورة فيها، وهو الشاعر علي الجارم.

زرنا المتحف القومي في رشيد الذي يسجل بطولات أهلها، وذهبنا إلى قلعتها بالقرب من شاطئ البحر، حيث ينتهي إليه النيل فيصب مياهه فيه. جلسنا في نادي رشيد، وفيه ساحة رحبة، تمد فيها الكراسي حول الطاولات؛ ليجلس الرواد أو الزوار حولها، يحتسون الشاي، أو يتناولون الطعام.

### السمك البوري:

كان المشرف قد جعل طالبًا من أهل رشيد، ولعل اسمه كان أحمد عبد الكريم من طلاب السنة الثالثة يجهز لنا وجبة الغداء، التي تتكون من سمك البوري المشوي مع الخبز الشامي الجميل. في ذلك الزمان كان النيل يحمل في جوفه أفضل أنواع الأسماك وأعذبها؛ بسبب الفيضان الذي كان يمنح الماء والكائنات بداخله عذوبة لا مثيل لها، لم يعد لها وجود الآن؛ بسبب انقطاع الفيضان وتلوث المياه بالصرف الصحي، وفضلات مصانع الكيماويات المسمومة، واستيطان ما يسمى بورد النيل على معظم صفحة النهر.

رشيد يومئذ كانت أقرب إلى القرية. أهلها يعرفون بعضهم، ولهم عادات وتقاليد، والضيف القادم من خارجها يبقى ضيفًا، له معاملته الخاصة. في الخريف يبيعون الجوافة والبلح وأم الخلول والسردين النيلي والفسيخ الممتاز، السمك متوفر من النيل والبحر على

السواء، وهناك الأفران المخصصة لشيّ السمك، ويستطيع من يشتري السمك طازجًا أن يشويه في واحد من هذه الأفران، والأهالي يعتمدون على السمك المشوي بوصفه وجبة رئيسة. عشرات الصاجات تدخل الفرن بعد غسل السمك ووضعه في الردة، وهناك من يضع أنصاف الليمون على وجه السمك إذا كان من السردين الأخضر، والفرّان يميز بينها، ويعرف أصحابها الذين ينتظرون نضجها، وأمام نادي رشيد تصطف مراكب الصيد، وتمتد إلى مسافة بعيدة. والنخيل يلف البلدة، ويمتد من البحر والنهر إلى بقية الجهات في كثافة ملحوظة. الطماطم التي تزرع في رمال رشيد من ألذ أنواع الطماطم، وأيضا البطيخ. وبين النخيل تقوم صناعة الجريد: الأقفاص والكراسي والموائد، وصناعة الخوص: المقاطف، الزنابيل، والمفروشات التي تشبه الحصير.

**شاعر من رشيد:**

في نادي رشيد عرفت شاعرًا من أهلها أو من الذين استوطنوها. كان ناظرًا للمدرسة الثانوية أو الإعدادية، وأظن اسمها مدرسة السلانكلي. والسلانكلي من مشاهير رشيد الذين كان لهم دور كبير في مقاومة الحملة الفرنسية. كان الناظر يقضي وقته في النادي، يقرأ الصحيفة اليومية، ويتأمل الناس من حوله؛ فقد كان على المعاش ولا يرتبط بعمل يشغله. وقد فرح حين تعرفنا عليه وكأنه يحن إلى الحديث مع تلاميذه، وأسمعنا قصائد من شعره، وحدثنا عن الشعراء الكبار الذين عرفهم في شبابه؛ وتناولنا الحديث عن علي الجارم وأسرته في رشيد.

عرفت أن الرجل من خريجي دار العلوم، وأنه بدأ عمله في رشيد واستقر بها حتى المعاش. كان اسمه فيما أذكر عبد الغني الكتبي، وأعطاني بطاقة (كارتا) باسمه وعنوانه. وكنت أتبادل معه التهاني في الأعياد عبر البريد، من خلال بطاقات التهنئة، وظللت على ذلك لفترة طويلة.

فتح لي الرجل نافذة جميلة في سماء الأدب والشعر، وحبب إليَّ بعض الأدباء والشعراء من خلال حديثه عنهم، وذكر أعمالهم وأشعارهم.

### مراكب البلح والسردين:

وكان بعض أهل رشيد يأتون إلى قريتنا والقرى المجاورة في مراكبهم الشراعية، التي كان يطلق عليها اللوتس، محملة بالبلح والسردين والملح الخام والمقاطف. مراكب البلح ترسو في النيل أمام القرية، ويخرج بعضهم لينادي على البلح الزغلول والحياني وبنت عيشة والسماني (الأصفر)، وكان الناس يذهبون لشراء الأقفاص التي فيها أنواع البلح، وتتفاوت أحجامها حسب قدرة المشترين. أذكر أن الأسعار كانت تبدأ من أربعة قروش، وتنتهي عند اثني عشر قرشًا، وكان بعض الفلاحين يأخذون البلح الرطب (الأسمر)؛ ليكون جزءًا من الطعام (الغموس) إلى جانب الجبن والسلطة.

مراكب السردين كانت تأتي أيضًا محملة بالبراميل الخشبية الممتلئة بالسردين المملح الحلو، والمملح شديد الملوحة (الحادق أو الحريف)، وهناك نوع ممتاز، وكل بثمنه، وتبقى هذه المراكب مدة أطول من مراكب البلح.

مراكب الملح والمقاطف أو القفف تعتمد على قيام أفرادها باللف في القرية والقرى المجاورة، وهم يحملون القفف الممتلئة بالملح أو القفف الفارغة على ظهورهم، وينادون على بضاعتهم: "مصلح يا ملح"، "القفف العمولة"، "الغلقان العمولة"، وهؤلاء لا يبيعون بالنقود غالبًا، ولكنهم يبيعون بالحبوب. الفلاحون يستخدمون الملح الخام في صناعة الجبن المملح، والقفف والمقاطف في نقل الحبوب إلى ماكينة الطحين أو الطعام إلى من يعملون في الحقل، والمقاطف القديمة في نقل مخلفات البيت إلى خارجه، والفلاحات يقايضن ما يأخذنه من البائع نظير مكيال من الذرة أو القمح أو الأرز، ويشعر كل طرف أنه أفاد من الآخر بهذه الطريقة التي تتغلب على قلة النقود لدى الفلاحات، ويضمن الطرف الرشيدي (البائع) أن الحبوب تزداد قيمتها في بعض الأوقات، فيكون الربح أكبر.

### طرز زخرفية وأرابيسك:

رشيد بها بيوت كثيرة أثرية، تعتمد على الطرز الزخرفية والأرابيسك، وبداخلها الحمامات وآبار المياه وطريقة استخراجها، وهناك أيضًا بعض المساجد التاريخية ذات التصميم الخاص. لم تكن شوارع البلدة يومئذ مرصوفة، ولكنها كانت هادئة. وهناك

سينما وحيدة، كأنها كانت مبنية في الخلاء، وأذكر أنني رأيت مبناها يقف عاليًا وحيدًا بالقرب من مزرعة نخيل. وقد فتحوا لنا السينما وشغّلوها خصّيصا من أجل الرحلة، ودفع كل طالب قرش صاغ، وكان ثمن التذكرة تسعة مليمات. بالطبع لا يعيدون المليم المتبقي، وأذكر يومها أننا شاهدنا فيلمًا لفريد شوقي وهدى سلطان.

تكررت الرحلة إلى رشيد سنويًّا من خلال النشاط المدرسي، أو من خلال مبادرة خاصة. كنت بعد سنوات وفي حياتي العملية أصحب أولادي لنقضي يومًا هناك، وكانت البلدة بدأت تتغير، وتتأثر بالانفتاح، ويؤثر عليها انقطاع الفيضان بالنسبة للأسماك المميزة التي اختفت تمامًا، وحل مكانها سمك المزارع، أو سمك البحر المتوسط. ثم إن أزمة الخبز قد جعلت من يريد زيارة البلدة لابد أن يحمل معه خبزه، إذا أراد أن يتناول غداءه هناك بالطريقة المحلية، أي يشوي السمك ويحضر متطلبات الطعام بنفسه.

البلدة صارت مدينة لها طابع المدن الأخرى، وتخلت عن عاداتها وتقاليدها القديمة إلى حد كبير، وتحولت إلى سوق تجاري، بعد أن صارت مصيفًا يذهب إليه الناس كل صيف، ويقضون فيها فترات طويلة.

لم أذهب إليها منذ سنوات، بعد أن أقعدني المرض، وفقدت القدرة على قيادة السيارة، ولكن بقيت لها ذكريات حلوة بطعم الجوافة، في العهد الجميل.

**اتحاد الطلبة:**

كانت هناك رحلة أو رحلتان إلى القاهرة، لا أذكر جيدًا، ولكن واحدة منهما كانت مع اتحاد الطلبة. لم أكن عضوًا في اتحاد الطلبة أبدًا. في السنة الخامسة جرى الاستغناء عن دار المعلمين في دسوق، والاكتفاء بنظيرتها في كفر الشيخ؛ لأن هناك وفرة في عدد المدرسين الذين سيتخرجون على مدى السنوات القليلة القادمة؛ ولذا لم تقبل المعلمين في دسوق طلابًا جددًا، ونحن في الصف الخامس، وصار هناك أربع صفوف من الثاني إلى الخامس، ولأن نظام اتحاد الطلبة يفرض أن يمثل كل صف أربع طلاب؛ ليكون المجموع عشرين طالبًا، ولأنه يوجد بالفعل ستة عشر، فقد عينت الدار أربعًا من الصفوف المختلفة ليتم تمثيلها بعشرين، وهكذا وجدت نفسي من ضمن العشرين بالتعيين ثم

واحدًا من الأربعة في مجلس الاتحاد. وكان على هذا المجلس أن يرد زيارة لدار المعلمين بعزبة النخل بالقاهرة في إطار تبادل الزيارات. وكان أن قمنا بالزيارة، ومعنا مشرفان، لا أذكرهما الآن، ولكن الذي أذكره أن خطبة رئيس الاتحاد في دار المعلمين بعزبة النخل كانت قوية، أما خطبة رئيس اتحادنا فكانت ضعيفة، وكان إحساسي بنوع من الهزيمة يتحرك في داخلي، فطلبت الكلمة وتحدثت حديثًا أدبيًّا، ينبئ عن ثقافة تفوق ثقافة أهل المدينة الذين تمثلهم (عزبة النخل)، وكان رد الفعل طيبًا، ورأيت تصفيقًا حادًّا، وقام المشرف بتحيتي، وصار موقفنا جيدًا، واهتم بنا الآخرون اهتمامًا ملحوظًا، وتغيرت النظرة إلينا تغيرًا كاملا.

شعرت أن الغيرة دبت في رئيس اتحادنا، وصار عصبيًّا، ولكنني حاولت تلطيف الأمور، وقلت لزملائي في الفندق إننا أسرة واحدة، ويجب أن نكون يدًا واحدة ويكمل بعضنا بعضًا.

عاد المشرفان والزملاء لينقلوا صورة من الرحلة، ويركزوا على كلمتي في عزبة النخل، ويؤكدوا أن مدرستنا لا تقل عن مدارس العاصمة. بعد التخرج من دار المعلمين صارت القاهرة قبلة أسفاري من القرية لسنوات طوال، طالبًا وكاتبًا وزائرًا وباحثًا عن العلاج.

**خبر مزعج:**

بيد أن الخبر الذي جاء من القاهرة ونحن في الصف الرابع كان مزعجًا، فقد قيل لي إن المعهد النموذجي تم إغلاقه، وتم توزيع طلابه على أقرب المعاهد لأماكن سكناهم في المحافظات! قلت في نفسي: سبحان الله! هل كان الشيخ أبو النصر يستشعر شيئًا تجاه المستقبل حين قال لي: خذ تصديقًا والحق بزملائك لتدخل المعلمين؟

سألت عن زميلي من شباس الذي كان في المعهد النموذجي، فعلمت أنه انتظم في الدراسة بمعهد دسوق الأزهري الثانوي.

كان إلغاء المعهد النموذجي مواكبًا للحملة التترية على الإخوان المسلمين التي انتهت بإعدام سيد قطب وعدد من قادتهم، وموت المئات نتيجة التعذيب، وسجن الآلاف منهم، والتشهير بهم وبأفكارهم وشيطنتهم. ويبدو أن الحملة التترية وجدت بعض المسئولين عن

المعهد أو بعض الطلاب يتعاطفون مع الإخوان، فقرروا إغلاقه ولما يكمل عامه الثالث. حمدت الله على كل حال.

**اكتشاف سر:**

كان من طرائف الدراسة في المعلمين أن بعض المدرسين، وخاصة في مادة الرياضيات بفروعها المختلفة؛ الجبر والهندسة المستوية والفراغية والميكانيكا والإستاتيكا، كانوا يدخلون الفصل ولا يقومون بواجبهم كما ينبغي؛ مما يعوق استيعابنا للمادة، عرفنا بعد حين أنهم كانوا يفعلون ذلك قصدًا ليبحث الطلاب عن دروس خصوصية لديهم أو لدى غيرهم. الدرس الخصوصي كان عيبًا، ومن كان يلجأ إليه لم يكن يعلن ذلك. الآن أصبحت الدروس الخصوصية في التعليم الأساسي بكل مراحله ومواده أصلا في التعليم، بل يراه بعضهم ضرورة لا يمكن تجاوزها بحال، بالنسبة للطلاب الأقوياء قبل الضعاف.

ذات يوم جلس أحدنا في مقعد زميل آخر، واكتشف في بعض كراساته حلولا لمسائل في الديناميكا بطريقة جيدة وبخط غير خط زميلنا. أطلعنا الزميل على الكراسة، فعرفنا أنه يذهب إلى الدرس الخصوصي!

تساءلنا ما العمل؟ كان لابد من استيعاب المادة بطريقة وأخرى، فكر أحدنا أن كتابًا خارجيًّا مساعدًا اسمه "الممتاز" يمكن أن يحل المشكلة. كان ثمن الكتاب خمسة وأربعون قرشًا، والمبلغ كبير لا يستطيع أحدنا توفيره، اتفقنا نحن الخمسة الزملاء من أبناء القرية، أن نشترك في شراء الكتاب، ويدفع كل واحد تسعة قروش.

كنا نسهر ليلة وراء أخرى لنحل المسائل ونطابق خطوات الحل، ويمكن أن تستغرقنا مسألة واحدة ليلة بأكملها حتى قرب الفجر، ولا نستطيع الوصول إلى فكرة الحل، فنعود إلى الممتاز الذي يقدم الفكرة وطريقة الحل والنتيجة الصحيحة.

استطعنا على كل حال أن نتجاوز صعوبة المادة، ونعوض تقصير المدرس، ونجيب في الامتحان آخر العام إجابات جيدة، أو لا بأس بها.

**حوادث صاخبة ودامية:**

كان امتحان الدبلوم – نهاية الفرقة الخامسة – في عام **1967**، وسبق هذا العام حوادث صاخبة ودامية وكارثية على المستويين المحلي والإقليمي، فقد ازداد الصخب حول الاشتراكية وتحالف قوى الشعب العامل، وتمددت دولة القمع في كل اتجاه بعد الحملة التترية على الإخوان المسلمين، وسمعنا عن لجان تصفية الإقطاع وممارسات عنيفة في كمشيش بالمنوفية بعد مقتل أحد الشيوعيين هناك، واستغل الشيوعيون مقتله لتحويل الجريمة الجنائية إلى جريمة سياسية ارتكبها الإقطاعيون في القرية، وكان أن نزل الجيش إليها مع الشرطة العسكرية وكانت اعتقالات وقمع وتعذيب باسم مكافحة الإقطاع والرجعية، وحفلت الإذاعات والصحف التي يهيمن عليها الشيوعيون وأتباع النظام بقيادة هيكل وأحمد سعيد، بالعديد من القصص التي تشيطن الطرف الموصوم بالإقطاع، وتبرئ الطرف الشيوعي الذي كانت تسميه الاشتراكي، وتضعه في صورة الملاك الطيب، الذي لا تعنيه إلا قضايا الفلاحين والعمال ومساندتهم.

انتشر كتّاب التقارير في كل مكان، وأصبح التهديد بالذهاب وراء الشمس مسألة عادية لمن أراد أن ينتقم من خصمه، وكان الناس يرددون عبارة "الحيطة لها ودان"، أي أن ما تقوله يصبح محسوبًا عليك، وسيصل إلى المسئولين القمعيين بسرعة البرق.

**صراع بلغ مداه:**

وكان الصراع بين الشيوعيين وغيرهم قد بلغ مداه في هذه الفترة، حيث صاروا يرهبون كل من يتصدى لهم؛ ليخلو الجو لهم تمامًا في قيادة المؤسسات والإدارات والصحف والإذاعات والتعليم والثقافة، والتنظيم السياسي الوحيد الذي سمح به القائد والزعيم الملهم، ولعل بعض الحوادث ذات الطبيعة الأدبية أو الثقافية الصرفة تكشف مدى تغلغل الشيوعيين في أحشاء النظام وسيطرتهم عليه، مع أنهم قلة ضئيلة.

مثلا كان الشاعر عزيز أباظة قد فاز بجائزة الدولة التقديرية، وتكلم في خطبته التي ألقاها أمام القائد والزعيم الملهم في احتفال تسليم الجوائز (عيد العلم)، عن اللغة الفصحى واللهجة العامية، والشعر العمودي والشعر الحر، فحوّل الشيوعيون المسألة إلى

معركة بين الرجعية والتقدمية، وبين الاشتراكية والتخلف، وامتلأت أنهار الصحف والمجلات بعشرات المقالات والموضوعات التي تؤسّس لدولة الشيوعيين التي تتزيّا بزي الاشتراكيين، وترى أن الفصحي تخلف، والشعر العمودي دليل على الجمود وعدم التطور، وأن التمسك بالتقاليد الفنية عيش في الماضي وتأخر، وهو ما يعني أن من يتحدثون عن الفصحى والشعر العمودي من أعداء الثورة والاشتراكية والتقدم!

**مجلات وزارة الثقافة:**

ولعل أبرز معارك الشيوعيين الثقافية كانت حول المجلات الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي، وفي مقدمتها الرسالة والثقافة، فقد استغل الشيوعيون الحملة التترية الإرهابية ضد الإخوان المسلمين، ليهاجموا مجلات وزارة الثقافة؛ بحجة أنها تحتضن الفكر الرجعي الموالي للإخوان المسلمين، ونشطت روز اليوسف وصباح الخير والمساء وغيرها في تقديم مبررات ذبح هذه المجلات والقائمين عليها؛ قربانًا لاشتراكيتهم المدّعاة، مع أن هذه المجلات بالغت في الحديث عن ولائها الاشتراكي، وامتداح الزعيم الاشتراكي، والغزل في فكر الاتحاد الاشتراكي!

وصلت عملية الإرهاب الفكري االتي قادها الشيوعيون إلى عرّاب الشيوعيين "لويس عوض" مستشار الأهرام الثقافي حينئذ، حيث خصص مقالين طويلين على مدى أسبوعين، نشرهما في ملحق الجمعة للأهرام، واستخدم فيهما جداول توزيع المجلات الثقافية مسوغًا لإلغائها، وزاد في ذلك حديثه عن غمة الصيف التي زالت يقصد (الإخوان المسلمين)، مبديًا الشماتة فيما جرى لهم، رابطًا بينهم وبين المجلات الثقافية والقائمين عليها. وكان هناك وزير جديد في ذلك الوقت، جاء بعد الدكتور محمد عبد القادر حاتم، ينتمي إلى المجال الأكاديمي، اسمه سليمان حزين، وبدا الرجل خائفًا على منصبه أكثر من أي شيء، فأغلق المجلات جميعًا؛ ليخلو الجو للرفاق الشيوعيين، حيث تم الإبقاء على مجلة الفنون الشعبية فيما أذكر.

تكميم الأفواه ومصادرة الحريات والقمع البشع، صار أبرز ملامح النظام العسكري البوليسي القائم، بينما الصحافة الكاذبة تتحدث عن الديمقراطية التي لا مثيل لها في التاريخ، والنظام التقدمي الذي فاق كل الأنظمة ولا يشبهه نظام آخر في عظمته وتفوقه.

**اليمن السعيد:**

على المستوى الإقليمي كانت الأخبار الواردة من اليمن السعيد تتحدث عن مأساة كبيرة يعيشها الجيش المصري هناك، وبالتبعية الدولة المصرية. ذهب الجيش ليقاتل في غير معركته، وفي أرض غير أرضه. اليمنيون يتصارعون بين حكم عسكري وحكم إمامي، والأخير تؤيده السعودية، ويعتمد على حرب العصابات التي تستفيد من التضاريس الوعرة بين الجبال والهضاب والوديان، وتقاتل جيشًا مصريًّا منظمًا، وتضربه في مقتل؛ لأنه ليس مهيئًا لمثل هذه المعارك. هي حرب استنزاف لا مثيل لها، ويخسر المصريون مع مطلع كل صباح عشرات الرجال، ومليون جنيه استرليني بأسعار ذلك الزمان، والسوفيت يمولون الحكومة المصرية بالسلاح الذي تشترية بالدين، والصحف المصرية تتحدث عن انتصارات وهمية في ساحة يضربها الطيران كلما ازداد عدد القتلى من الجيش المصري، وتردد كلامًا كثيرًا عن استخدام النابالم ضد المناطق المتمردة التي لا يستطيع الجيش الوصول إليها، والقاهرة مشغولة بحل خلافات القادة اليمنيين الجمهوريين وصراعاتهم على الحكم، وتسعى لتجميل صورة الواقع بتجهيز الرحلات لكبار الأدباء والمثقفين المصريين ليذهبوا إلى صنعاء، وغيرها من المدن اليمنية؛ ليكتبوا عن الثورة اليمنية العظيمة التي أسقطت عهد الظلام والتخلف!

وتساءل الناس في حزن مكتوم: ألم يكن من الأجدى تخصيص تكاليف هذه الحرب العبثية لإقامة مدارس ومستشفيات وجامعات ومصانع ومراكز تدريب يفيد منها الشعب اليمني بدلا من الدماء والجراح والأحقاد؟

لقد استمرت الحرب خمس سنوات، وكانت أجهزة الاعلام المصرية تتحدث عن انتصارات ساحقة على الملكيين الرجعيين، دون أن تذكر شيئًا عن الخسائر التي تلحق بالجيش المصري هناك. على كل كانت إذاعة العدو في القدس المحتلة وإذاعة لندن تتكفلان بنقل ما يصيب الجيش المصري في الميدان البعيد!

### منظمات المقاومة:

وعلى الجبهة الفلسطينية كانت قوات العاصفة التابعة لمنظمة فتح، تقوم ببعض العمليات الفدائية وتذيع البيانات العسكرية من الإذاعة التي خصصها لها جمال عبد الناصر، ولوحظ أن هذه الفترة قبيل 1967 تكاثرت المنظمات الفلسطينية الفدائية ومعظمها ينتمي إلى اليسار، وبدا أن بعض الدول العربية أخذت تنشئ منظمات موالية لها، ولكن الحصاد في النهاية كان تحريك الاهتمام بالقضية الفلسطينية، واستمرار العدو في ملاحقة المنظمات التي كان يسميها بالتخريبية. أما العلاقات بين الدول العربية فكانت مضطربة، والحملات الإعلامية كانت متبادلة بين معظمها، وتصل أحيانًا إلى حد قطع العلاقات الدبلوماسية.

وكنا نحن الطلبة والشباب في هذه المرحلة متعاطفين مع المقاومة الفلسطينية ونتمنى المشاركة في عملياتها، ونردد أناشيدها التي نسمعها من إذاعاتها، وننتظر اللحظة الحاسمة التي يتقدم فيها جيشنا البطل إلى فلسطين ليحررها، وتغني أم كلثوم في تل أبيب، ولكن القائد والزعيم الملهم كان يقول إن العرب هم الذين سيحددون موعد المعركة ومكانها، وأن العدو الصهيوني لن يفرض علينا معركة في غير أوانها! المفارقة أنه حارب في اليمن قبل أن يفكر في تحديد الزمان والمكان، وكانت النتيجة كارثية بكل المقاييس!

أذكر أنه من شدة اهتمامنا بقضية فلسطين بدأت في هذه الفترة كتابة رواية بعنوان "الربيع يقترب" عن اللاجئين الفلسطينيين. خصصت كشكولا لكتابتها، ودونت أكثر من عشرين صفحة، ثم جاءت الأحداث العامة والامتحانات لتصرفني عنها، وكنت أحلم بإتمامها، ولكن تتابع الشواغل صرفني تمامًا.

### نماذج من المدرسين:

كانت الدراسة في المعلمين تأخذ شكلا يرتبط بالمدرس أكثر مما ترتبط بالنظام العام على عكس الأزهر. فالأزهر قبل التطوير المزعوم كان ميدانًا حقيقيًّا للدراسة الجادة والعمل المستمر، لا مجال فيه للفوضى أو الإهمال أو التراخي. أما الدراسة في المعلمين فكانت تعتمد على المدرس الجاد أو الفهلوي، أو من يكتب العنوان على السبورة، ثم يقضي الحصة في

المزاح والحواديت، وبعضهم كان يقضي جزءًا من الحصة في شرح الموضوع، ثم ينصرف إلى موضوعات خارج الموضوع. كان المدرسون المتخرجون من الأزهر ويدرسون اللغة العربية والدين أو التربية وعلم النفس، أكثر جدية والتزامًا من غيرهم.

كان مدرس اللغة العربية في الفرقة الأولى رجلا طيبًا، ويرتدي نظارة طبية، وجادًّا في عمله، ويحرص على تناول دقائق الدرس، ولكن نوبات عصبية كانت تحل به، فيتحول إلى وحش شرس، مع بعض المزعجين أو المقصرين من الطلاب، ولكنه كان يتعامل مع طلاب الأزهر باحترام كبير وتقدير واضح. عرفنا أنه كان في إعارة إلى دولة عربية، وبسبب الخلافات بين جمال عبد الناصر وحاكم هذه الدولة، تعرض لمحنة كبيرة، حيث قبضت عليه أجهزة الأمن هناك، وعذبته عذابًا وحشيًّا، ثم رحلته إلى مصر. ويبدو أن أحدًا وشى به إلى هذه الأجهزة بأنه موال للحكومة المصرية، فكان الانتقام منه على هذه الصورة البشعة. لقد عولج بعد عودته، وبقي من أثر المحنة هذه النوبات التي تأتي على فترات متباعدة. لكنه في كل الأحوال كان مخلصًا في عمله، لدرجة أنه كان يشتري - على حسابه الخاص - الطباشير من النوع الجيد على هيئة أصابع مضلعة، ويستعين بكتب مساعدة، ويعد أسئلة كثيرة للتطبيق.

### الابن المدرس والأب المفتش:

ومن طرائف التدريس في المعلمين أن مدرسًا شابًّا للعلوم، وكانت سنه قريبة منا، كان يتخاطب معنا بلغتنا وأفكارنا وأحلامنا، لدرجة أنه كان يتلفظ أحيانًا بألفاظ شبابية فيها بعض الخروج، ومع أنه كان ذكيًّا للغاية، وتخرج من كليته في سن باكرة، فقد كان والده مفتشًا في تخصصه نفسه وهو العلوم، وكان يصر أن يفتش عليه مثل بقية مدرسي التخصص، وعندما يدخل عليه الفصل الذي يدرس لنا فيه، يتحول صاحبنا إلى شخص آخر جم الأدب، نظره في الأرض، يشرح بمنتهى الجدية والاهتمام، ويتحدث مع (أبيه) حضرة المفتش بمنتهى اللياقة والذوق، وبعد أن يخرج المفتش يعود إلى طبيعته الأولى، ويضج الفصل بالضحك، فقد أحكم صاحبنا تمثيلية جيدة، وأقنع أباه أنه مدرس جاد، وإن كنا نحن الطلاب نعرف الحقيقة. على كل حال فقد كان الرجل شابًّا مرحًا محبوبًا من الطلاب، وظلت علاقتنا به بعد التخرج موصولة بصورة ما.

هناك صورة أخرى معاكسة لمدرس كان يدرس لنا الكيمياء فيما أذكر. كانت حالته النفسية مضطربة، وشخصيته في الفصل ضائعة تمامًا، ولا يستطيع ضبط الطلاب، ومع أنه يبدو قويًّا في مادته وذكيًّا، إلا أن شيئًا ما في حياته كان يؤثر على تصرفاته، ويتعامل بعنف مع الطلاب الذين يشغبون عليه. لم يكن يضحك أو يبدو طبيعيًّا أو متزنًا، وكان الطلاب يطلقون عليه لقبًا ساخرًا، لدرجة أننا نسينا لقبه الأصلي.

**ليستون الشرير:**

كان عدد طلاب المدرسة كبيرًا، وبعد انتقالنا إلى المبنى الجديد، فقد كان هناك نوع من الفوضى وعدم الانتظام في الفصول، فجاءوا للمدرسة بوكيل ضخم الجثة قليل الكلام، وكان أحيانًا يخرج بخيرزانة طويلة، وأحيانًا أخرى بدونها. قبل مجيئة كان جرس الدخول يدوي، فيظل نصف الطلبة أو أكثرهم خارج الفصول، ولا يدخلون إلا عندما يحضر المدرس. كان المنظر بصفة عامة غير مستحب، ولكن طبيعة الطلاب في هذه المرحلة العمرية تأبى الاستسلام للسكون والهدوء، فلديهم طاقة هائلة، تريد التعبير عن نفسها بالحركة والنشاط، ولو كان السير في الفناء والطرقات.

الوكيل الجديد كان يظهر بمجرد دق الجرس للدخول بعد الفسحة أو الدقائق الخمس بين الحصص، وكان يستخدم عصاه أو يده الثقيلة دون تفاهم أو سؤال. من يراه خارج الفصل تهبط عليه العصا الموجعة أو اليد الثقيلة التي لا تعرف الرحمة. بدأت الأمور تنتظم عقب الفسحة والحصص. لا تجد أحدًا خارجها أيًّا كان السبب. كنا نسمي الوكيل "ليستون" على اسم الملاكم الأميركي الذي هزمه محمد علي كلاي، وكان يلقب بالشرير. كان الرجل يمر على الفصول، فلا يجد غير الصمت حتى لو لم يكن فيها مدرسون.

**فصل المنبوذين:**

في السنة الثالثة بدأ التمهيد لما يسمى التربية العملية، أي التدريب على التدريس داخل الفصول. كنا نذهب إلى المدارس الابتدائية يومًا واحدًا في الأسبوع، ونجلس في آخر الفصل اثنين أو ثلاثة، ونستمع إلى مدرس الفصل الأصلي وهو يشرح دروسه على مدى ثلاث حصص، وهناك مشرف يمر علينا، ويسألنا في الفسحة عن ملاحظاتنا على

المدرس وطريقته مما سجلناه في كراساتنا، والأسلوب الأفضل من وجهة نظرنا في شرح الدرس.

وأذكر أنني في أول مرة أذهب إلى التربية العملية، تعرضت لموقف صعب لم أتوقعه أبدًا. ذهبت إلى إحدى المدارس، وكان ناظرها والدًا لأحد زملائنا، وقد أراد أن يشغل فصلا غاب مدرسه، فما كان من الرجل إلا أن دفع بي إلى الفصل المذكور، وهو سادسة ثالث – أتذكره جيدًا - والغرض هو إسكات التلاميذ وإشغالهم حتى يكفوا عن الشغب والتخبيط والإثارة. لسوء الحظ كان التلاميذ من النوع المنبوذ داخل المدرسة، فهم جميعًا راسبون، أو من النوع الشرس الذي يسمى بالمشاغب، ومعظمهم قادم من بيئة مهمشة، أهلها يعملون بمهن متواضعة، ولا يضعون اعتبارًا لقيم المجتمع وأخلاقه، والناظر والمدرسون يتعاملون معهم بالعصا أو بالعنف. ما إن دخلت الفصل حتى هاج الأولاد وماجوا، وأطمعهم في ذلك حجمي الضئيل الذي يقارب أحجامهم، ثم إنهم أرادوا المبادأة بالعنف حتى لا أستمر بينهم وأعود من حيث أتيت. رأيت قذائف الطباشير والخبط على المقاعد والقهقهات العالية، ثم المزاح من جانب بعضهم مع بعض آخر. مضت فترة قصيرة ولكنها كانت طويلة عليّ، أطول من سنوات. كدت أبكي. لم أعرف كيف أواجه هؤلاء الوحوش الصغار. يبدو أن أحدًا من المدرسين الأساسيين أحس بما يجري، فهرول نحو الفصل، وعرف أنني ضيف من التربية العملية. عاجل الأولاد بصوته القوي ونهرهم وهددهم. أخذوا في الهدوء والصمت. التقطت أنفاسي، وهداني ربي إلى حيلة أشغلهم بها، فكتبت على السبورة مسألة في الدرس الذي كان المفروض أن يدرسه لهم المدرس الغائب، وأخذت أسألهم بالتتابع في كيفية الحل، ولما لم أجد واحدًا منهم يعرف الإجابة الصحيحة بدأت أمسك زمام المبادرة، ورحت أوبخهم بطريقة هادئة ولكنها موجعة، ثم جعلت أجيب عن السؤال خطوة خطوة، وكانت الحصة أوشكت على الانتهاء، فأحسست أنهم مظلومون من المجتمع الذي لم يلق إليهم بالا، ومن المدرسة التي نبذتهم وجمّعتهم معًا، وتعاملت معهم بطريقة المريض الميئوس من شفائه!

### ابتسامة تكسر حدة الشغب:

استفدت من هذه التجربة، ومن التربية العملية على مدى ثلاثة أعوام، أن المعلم لابد أن يكون رابط الجأش، طبيعيًّا في تعامله مع الطلاب، لا يبدي غضبًا أو سخطًا وهو يواجه شغب الطلاب، ويجب أن يتسلح بالمعرفة، وأن يكون مستوعبا لمادته، وأن يواجه الطلاب بابتسامة تكسر حدة شغبهم، ثم عليه أن يكون جاهزًا بالأسئلة أو المسائل والقضايا التى تشغلهم، وقبل ذلك كله عليه أن تكون لديه قدرة معقولة على استخدام القصة أو الحكاية التي تتناسب مع مستوى كل مرحلة عمرية؛ فالقصة من أحب المواد إلى التلاميذ في المرحلة الابتدائية، بل في المراحل الأخرى إذا أحسن توظيفها لخدمة المادة. يكفي في المرحلة الابتدائية أن يقول المعلم: "كان فيه ..."؛ ليضمن انتباه التلاميذ إليه، وهدوء الفصل إلى حد كبير، ثم الاستعداد الجيد للتفاعل مع الدرس.

وهناك كتب قصصية متنوعة، وتتناسب مع المراحل العمرية المختلفة، موجودة في المكتبات العامة والمكتبات المدرسية، ويمكن للمعلم أن يفيد منها إفادة جيدة، ويمكنه أن يشوق التلاميذ إلى متابعة القصة بالأداء التمثيلي الذي يجسم الانفعالات والمشاعر، كما يمكنه أن يسرد جزءًا منها، ويكملها في حصة تالية. القصة - في نهاية الأمر - وسيلة مهمة من وسائل التأثير النفسي والمعرفي على التلاميذ.

### الطريقة الممكنة:

في الصفين الرابع والخامس بالمعلمين كانت التربية العملية مباشرة. كل اثنين من الزملاء في فصل واحد في يوم واحد من كل أسبوع، ويتبادلان التدريس أسبوعيًّا. حتى الشهر الأخير من العام الدراسي، فيخصص كله للتربية العملية، ويتبادل الطالبان التدريس، كل واحد يدرس يومًا. كان هناك مشرفان أحدهما من دار المعلمين والآخر من إدارة التعليم (موجه قسم). من يحضر منهما يدخل الفصل ويجلس ليشاهد طريقة التدريس، وقد يتدخل لمناقشة التلاميذ أو يوجه بطريقة غير مباشرة، ثم يجلس مع المتدربين جميعًا في الفسحة؛ ليناقش السلبيات والإيجابيات. وأذكر أن إحدى الموجّهات كانت تتحدث عن طريقة التدريس بطريقة عملية، وتقول: علينا أن نتعرف على كل طرق

التدريس نظريًّا، ولكن في الواقع ندرس بالطريقة الممكنة التي توصل المعلومات للتلاميذ. المهم أن يفهم الأولاد. كل بيئة لها ظروفها وإمكاناتها.

**التقصير والتصحيح:**

في الصف الخامس كانت التربية العملية أكثر استقلالا من السنتين السابقتين، فالطالب المتدرب، وخاصة في الشهر الأخير من الدراسة، يقوم وحده بعبء التدريس في الفصل طوال أيام الشهر، ويتبادل المشرفان المحلي (من داخل المدرسة) والخارجي (من المديرية) المرور عليه ومناقشته. كانت التربية العملية بالنسبة لي وبعض زملائي، في فصول مدرسة الإمام محمد عبده، وكانت المدرسة أيامها تضم ستة فصول، كل فصل واحد لصف دراسي من السنة الأولى حتى السنة السادسة، وكانت كثافة الفصول معقولة ومستوى التلاميذ لا بأس به.

كان الاهتمام منصبًّا على كراسة التحضير، وكان تحضير الحصة يشبه كتابة مقالة مطولة بدءًا من كتابة الأهداف العامة والأهداف الخاصة، والغرض التربوي وغيره، والوسائل المعينة، والتمهيد للدرس، ثم الدرس ومكوناته .. إلى التطبيق العملي والنظري، وكان الزملاء يتبارون في تزيين كراساتهم واستخدام الألوان والرسوم والخطوط، وغير ذلك، مما يحول كراسة التحضير إلى تحفة زخرفية.

جاءني المشرف الخارجي (مفتش من المديرية)، ودخل الفصل، واستمع إليَّ وبقي عندي وقتًا طويلا، وفي الفسحة بدأ يطلع على كراسة التحضير، ثم طلب مني إعراب ما كتبته في دفتر التحضير عن أحد الدروس، وكانت إجابتي سليمة بحمد الله، ثم تطورت المناقشة إلى أسئلة في الطرق الخاصة (طرق التدريس)، وهنا بدا تعثري واضحًا وأحسست بالتقصير، كان الرجل يسأل والإجابة: الصمت أو أن الإجابة غير صحيحة. كدت أبكي. شعرت بخزي عظيم وهزيمة قاسية. تركني الرجل بعد معاناة نفسية صعبة لم تذهب آثارها إلا في اليوم التالي حيث زارني مرة أخرى، ووجد الإجابة على بعض أسئلته موضحة في دفتر التحضير، فاستأنف المناقشة معي، ووجد اختلافًا كبيرًا عن الأمس. فقد عدت بعد مناقشته الأولى إلى البيت، وراجعت كتاب الطرق الخاصة، وظللت حتى قرب منتصف

الليل منكبًّا على استيعابه، ثم حضّرت الدروس على ضوء هذه المراجعة، وأصبحت مستعدًّا للإجابة عن أسئلة الرجل جميعًا.

أدرك الرجل أن درسه القاسي أثمر وأفاد، فبدأ يعاملني معاملة خاصة، بعد أن زارني أكثر من مرة داخل الفصل، وشاهد ما أقوم به، ولاحظ استيعابي لطرق التدريس بصورة شاملة. أحسست أنه يتعاطف معي، وتعارفنا على المستوى الشخصي. كان من مطوبس، وتخرج بدار العلوم في الأربعينيات، ووصل إلى وظيفة مفتش أول اللغة العربية في المديرية، وظل يزورنا في مدرسة الإمام محمد عبده حتى انتهى شهر التدريب، وعلمت بعدئذ أنه منحني الدرجة النهائية في التربية العملية في الجزء الخاص به 25 درجة من 50، أما المشرف الداخلي فقد أعطاني 24 من 50، أي أقل من المشرف الخارجي بدرجة واحدة، فصار المجموع 49 من 50 درجة، وكانت أعلى درجة في التربية العملية بين طلاب الصف الخامس بالمعلمين.

## نذر تلوح في الأفق:

كنا في شهر مايو 1967، ونذر الحرب تلوح في الأفق. كان من المقرر أن تعقد الامتحانات الخاصة بدبلوم المعلمين في أوائل يونيه، والثانوية العامة بعدها بأسبوع أو عشرة أيام، وبدا أن شيئًا يتحرك في الأفق يشير إلى عاصفة مجهولة لا يعرف أحد بالضبط طبيعتها أو شكلها أو اتجاهها.

كان موشي ديان القائد الصهيوني الأشهر، قد عاد من رحلة إلى فيتنام، عمل فيها مراسلا صحفيا لصحيفة عبرية في فلسطين المحتلة، وكان المعلن أنه يغطي صحفيًّا الحرب الفيتنامية التي تخوضها الولايات المتحدة الأميركية ضد الشيوعيين الفيتناميين، ولكنه في حقيقة الأمر كان يدرس حرب العصابات التي تجري في غابات فيتنام، وكيفية مواجهة الأمريكان لها، وكيفية الاستفادة منها في مواجهة الفدائيين الفلسطينيين، وعملياتهم التي يقومون بها في فلسطين المحتلة، وكانت هذه العمليات قد أخذت تزعج الغزاة اليهود إلى حد ما.

بعد عودة ديان إلى فلسطين المحتلة تشكلت حكومة وحدة برئاسة ليفي أشكول، فيما أذكر عين فيها ديان وزيرًا للدفاع، وكان قبل ذهابه لفيتنام وزيرًا للزراعة في وزارة سابقة .

الجيش المصري كان يخوض حربًا عبثية تستهلكه في اليمن السعيد، وكانت أفضل الفرق العسكرية قد ذهبت إلى هناك، على أساس أن القوم عندنا يتجنبون الاشتباك مع العدو، وسبق أن أعلن جمال عبد الناصر أنه لن يحارب إلا في الزمان والمكان اللذين يحددهما هو وليس العدو.

**حشود صهيونية وقرارات فجائية:**

وفجأة امتلأت الصحف بالحديث عن حشود صهيونية معادية على الجبهة السورية، وأن الكيان الصهيوني سوف يغزو سورية، ولعل ذلك بسبب العمليات الفدائية، وروجت روسيا للحشود المزعومة على الجبهة السورية، وكان ليفي أشكول ينفي ذلك، ويطلب من السفراء أن يذهبوا إلى الحدود السورية مع فلسطين المحتلة ليروا الحقيقة بأنفسهم، وليتأكدوا أنه لا توجد حشود صهيونية.

فجأة قرأنا في الصحف المصرية عن قرار مصري بإنهاء دور قوات الأمم المتحدة على الحدود المصرية مع العدو، مع الطلب من أمين الأمم المتحدة "يوثانت" أن يسحب هذه القوات، ورافق ذلك قرار آخر بمنع السفن الصهيونية من المرور في خليج العقبة، وإغلاق مضايق تيران في وجهها. وعدّت الولايات المتحدة – وبالطبع الكيان الصهيوني - ذلك قرار حرب، وجاء يوثانت، أو أرسل رسائل إلى القائد والزعيم الملهم؛ كي يعدل عن قراره الخاص بإغلاق المضايق في وجه السفن الصهيونية، ولم يجد استجابة.

في 25 من مايو عقد جمال عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًّا عالميًّا يبرر فيه قراراته الخاصة بإنهاء دور قوات الأمم المتحدة وإغلاق المضايق، وفي أثناء المؤتمر سأله صحفي بريطاني عن صحته، وهل هو بخير؟ فكانت إجابة الزعيم: "أنا مش خرع زي مستر إيدن!"؛ يعني أنه قوي وأنه أقوى من المستر إيدن رئيس الوزراء البريطاني الذي قاد مع جي موليه الفرنسي

وبن جوريون الصهيوني عدوان 1956 على مصر، ويقال إن الصحفيين حاولوا ترجمة معنى كلمة "خرع" التي وردت في عبارة الزعيم، فلم يجدوا لها مقابلا في الإنجليزية أو غيرها!

### جنودي على شاطئ البحر:

كان زعماء الكيان الصهيوني في فلسطين يرددون أنهم مسالمون، وأنهم لا يريدون الحرب، وأن الرئيس المصري يريد تدمير كيانهم وإلقاءهم في البحر، وكنت أستمع لشريط الأنباء في إذاعة العدو في أواخر مايو أو أوائل يونيو، فوجدت موشي ديان يقول في مؤتمر صحفي: إن جنودي يقضون إجازاتهم الصيفية على شاطئ البحر، ولا يريدون القتال، واذهبوا إليهم لتروهم على أرض الواقع.

كانت الصحف المصرية تظهر بعناوين ضخمة تتحدث عن أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط. والطيران المصري الذي يعد أقوى طيران في المنطقة، وغير ذلك من عناوين جعلت المواطنين يشتاقون بفارغ الصبر إلى تحرك الجيش المصري ودخول المعركة والوصول إلى تل أبيب، والاستعداد لتغني أم كلثوم هناك، وإعادة اللاجئين الفلسطينين إلى مدنهم وقراهم ، وتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني.

كنت أتابع بقلق الإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية؛ لأتبين طبيعة ما يجري من حولنا، بل لأتعرف على ما يجري في مصر نفسها؛ إذ كانت الصحف والإذاعات - ومثلها التلفزيون الذي لم نكن نراه إلا نادرًا - تقدم صورة وردية جميلة لنظام اشتراكي فريد في نوعه، يطبق الاشتراكية التي تؤمن بالإسلام، ويملك جيشًا لا يقهر، وجيشًا لا يهزم وطيرانًا حربيًّا لا مثيل له في المنطقة.

### الرغبة في السلام!:

كانت إذاعة لندن تحاول تقديم الأخبار والتحليلات من وجهة نظر مراسليها وكتابها بطريقة محايدة أو شبه محايدة، ولكنها لا ترضي الحكومة المصرية. أما الإذاعة العبرية الناطقة بالعربية، فتتكلم عن السلام ورغبة اليهود في العيش بأمان مع العرب، الذين يريدون تدميرها وإلقاءها في البحر، ولا تنبس بكلمة عن نوايا اليهود في شن الحرب ضد هؤلاء العرب، وكانت نشرات الأخبار تكاد تتجاهل ما يجري من تصريحات وأخبار

تدور حول الصراع في المنطقة، وتهتم بالأخبار الهامشية، مثل حادثة سيارة في فنزويلا، أو قتل أحد الأشخاص في تايلاند وهكذا.

**الطائرات تتساقط!:**

بدأنا الامتحان النهائي في دار المعلمين (الدبلوم) يوم السبت 3 من يونيه. ومضى يوم الأحد، وفي يوم الاثنين 5 من يونيه، وكنا نمتحن مادة الفيزياء أو الكيمياء في الفترة الثانية لا أذكر، وجاءت الأخبار بأن الحرب بدأت، وأن الطائرات الصهيونية تتساقط، وأن جيشنا الباسل يقتحم المستعمرات ويتغلغل في قلب فلسطين المحتلة!

يبدو أن صعوبة المادة جعلت أحد الطلاب يقول للملاحظ وكان بجوار الشباك: إيه رأيك؟ أعملها؟

كان زميلنا يمزح يقصد أنه يريد القفز من الشباك ليموت ويستريح من الامتحان وتوابعه. فضحك الملاحظ؛ وقال له: اعملها. إحنا في حرب على كل حال!

بالطبع لم يفعلها زميلنا الساخر، ولكننا خرجنا من الامتحان، وانصرفنا إلى قرانا؛ لنتابع الحدث الذي كنا نحلم به ونتمناه، وهو بدء الحرب لتحرير فلسطين، وإنهاء هذا الصراع، الذي يمثل وصمة عار في جبين العرب والمسلمين.

كانت أجهزة الراديو في المحلات والمقاهي مفتوحة بأعلى صوت، نسمعها جيدًا في طريق عودتنا من الامتحان، وكانت الإذاعات المصرية قد التقت على موجة واحدة للبث، وكان صوت أحمد سعيد وجلال معوض وطاهر أبو زيد وغيرهم من كبار المذيعين يجلجل بالانتصارات التي يحققها جيشنا البطل على العدو الغادر الذي شن حربه العدوانية على قواتنا. كانت البيانات تتوالى عن إسقاط الطائرات مثل العصافير، وتقدم جيشنا نحو الوطن المحتل.

كنا نتوقف أحيانًا أمام مقهى أو محل لنستمع إلى بيان جديد، ونواصل السير حتى وصلنا إلى المركب، فكانت الحصيلة التي قدمتها البيانات تصل إلى تسعين طائرة أو ما يقرب منها.

في المساء كان هناك بيان عن تأجيل الامتحانات إلى أجل غير مسمى. وكانت هناك صورة مغايرة لما يجري في الميدان، تذيعها إذاعة العدو وإذاعة لندن، وهي صورة مثيرة للقلق والخوف والاضطراب!

***

## 11- كانت هزيمة! وكان ذل! وكان عار!

### أخبار غير سارة:

تحول القلق إلى إحباط وحزن. في اليوم الثاني للحرب سمعنا أخبارًا غير سارة، إذاعة العدو تتحدث عن تدمير سلاح الطيران المصري على الأرض، وإذاعة لندن تؤيد ذلك، وصوت أمريكا أيضًا، ولغة بياناتنا بدأت تتحدث عن الصمود والتصدي في مواجهة قوات العدو المهاجمة، ولكنها لا تشير إلى الطيران وما جرى له ولا تفند مزاعم العدو. ثم هناك كلام عن معارك طاحنة في مواقع عديدة، وفي مساء اليوم الثالث ظهر كلام عن دعم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا للعدو عسكريًّا وسياسيًّا. ولكن إذاعة العدو تتحدث عن وصول قواته إلى الممرات، واستسلام قطاع غزة، وأسر الآلاف من أبنائنا، وتطهير منطقة شرم الشيخ من القوات المصرية، والسيطرة على منطقة المضايق.

العجب في هذا الوضع أن الإذاعة المصرية كانت تعتمد على الأناشيد والأغاني، وبعضها وصل إلى درجة من السخف لا مثيل لها، مثل تلك الأغنية التي كان يؤديها مطرب مشهور يقول فيها: اضرب لأجل الصغار. اضرب لأجل الربيع.. وكان الوضع يشي أننا نضرب من العدو بكل قوة، وجنودنا يهيمون على وجوههم حفاة شبه عراة في صحراء سيناء الحارقة، تلاحقهم طائرات العدو بالرصاص الحي، أو القذائف التي تبيد أعدادًا ضخمة. وتتحدث إذاعة العدو عن ثمانمائة دبابة تم الاستيلاء عليها سليمة تمامًا غير التي احترقت أو دمرت.

### خط الدفاع الثاني:

في مساء الخميس صدر بيان عسكري مصري يقول: إن قواتنا تجمعت في خط الدفاع الثاني لتستطيع مواجهة العدو المدعوم بأمريكا وبريطانيا، بينما كانت الإذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية تتحدث عن قرار انسحاب مصري من اليوم الثاني للحرب، وهو ما تأكد في اليوم الخامس (الجمعة)، حيث سمعت صوت مذيع معروف يعلن في

موجز العاشرة صباحًا أو الحادية عشرة أن قواتنا المسلحة أتمت انسحابها إلى غرب القناة!

كانت هزيمة! وكان ذل! وكان عار!

**أكاذيب تتكشف:**

الشعب المهزوم يبكي! الشعب المهزوم لا يعرف كيف يتصرف! بدأت تتكشف أكاذيب النظام القمعي الإرهابي الذي خدع الناس بالخطب الرنانة والمقالات الطنانة والتصريحات العنترية التي ما قتلت ذبابة، بينما العدو يضيف كل يوم إلى قوته عنصرًا ماديًّا جديدًا، ونحن نتفنن في بلاغة الخطب والشعارات والبيانات ونحارب بأهل الفن!! والأغاني والأناشيد وحفلات أضواء المدينة، وجيشنا البطل مشغول بأشياء أخرى غير مهمته الأساسية التي تتركز في القتال والتدريب على المواجهات، وخرج القائد والزعيم الملهم في مساء التاسع من يونيه ليسمي ما حدث بالنكسة وليس الهزيمة، وهو مصطلح صاغه كاتبه الأوحد محمد حسنين هيكل، وراج بعد ذلك وإن كان الشعب رد عليه وسمى ما جرى "وكسة" .. والوكسة في المفهوم الشعبي لها دلالات أعم من النكسة والهزيمة. قال القائد والزعيم الملهم إنه يتحمل مسئولية ما حدث كاملة، ويعلن تنحيه، ويكلف زميله في الانقلاب زكريا محيي الدين ليتولى الحكم.

لا أعرف من الذي أوحى للناس بالخروج عقب خطاب الرئيس المهزوم وتكليف زكريا، هل هو الاتحاد الاشتراكي أو التنظيم الطليعي الذي كان يتكون معظمه من الشيوعيين الموالين للنظام، وكان يسمى تنظيم الطليعة الاشتراكية، ويعد المحرك الأول للإعلام وتوجهات النظام في مخاطبة الشعب، أو أن الخروج كان عفويًّا؟ لا شك أن توجيهات الإذاعة في ذلك الحين كان لها دور كبير، وكان مذيعوها يؤثرون في الناس بطريقة قوية، وهم بالتأكيد يتحركون وفقًا لخطط المسئولين في التنظيم الطليعي والاتحاد الاشتراكي، وقد شاركتْ أجهزة الإعلام بالتأكيد في توجيه الناس إلى الخروج.

### أصبح احتمالا واردًا:

أذكر أن شباب قريتنا وأهلها خرجوا عقب صلاة العشاء بعد أن استمعوا للرئيس المهزوم وهو يعلن تنحيه، وكنت قبيل الخطاب ونحن في انتظار صلاة المغرب قد سمعت لأول مرة أحد الرجال في القرية ممن يطالعون الصحف بانتظام، ولديه وعي ملحوظ بحكم عمله في تجارة القطن والسفر إلى الإسكندرية والمدن المجاورة، يقول:

"لابد أنه سيترك الحكم ويأتي حاكم جديد يفاوض الأمريكان".

أول مرة أسمع أحدًا يتكلم عن ترك القائد والزعيم الملهم منصبه. كنت أتصور أنه باق فيه إلى ما شاء الله، لا يزيحه إلا الموت .. ولكن خطابه بعد المغرب جعل هذا الاحتمال واردًا لأول مرة.

تظاهر الشباب وداروا حول القرية تأييدًا للرئيس المهزوم وضرورة بقائه، وفي أحد الأماكن ونحن نلف القرية، توقفنا قليلا .. خطبت فيهم وتحدثت عن المقاومة وأن الحرب سجال ... إلخ.

### عار لا يمكن غسله:

لكن الهزيمة كانت قاسية، وعشنا الذل والعار. كل منا يشعر وهو يمشي أنه ارتكب فعلا فاضحًا أو لحقه عار لا يمكن غسله. بدأ الأستاذ هيكل يبرر الهزيمة التي سماها نكسة، ويسوغها، ولا يقترب من الحقائق المرة، التي تقول إن القائد والزعيم الملهم لم يكن ينوي أبدًا أن يواجه العدو في ميدان القتال، وأنه لم يكن مشغولا أبدًا بمنازلته وتحرير فلسطين كما كانت تدعي أبواقه، وكما كان يزعم في خطبه وتصريحاته. فجيشه لم يكن مشغولا بمهنة القتال ولا مستعدًّا لها، ومعظم أفراده ومعداته وأسلحته كانت موجودة في اليمن السعيد، وقد تم إبعاد الضباط الأكفاء عن القيادة أو الجيش، ولم يبق غير الموالين للمشير أوالزعيم، وأن القادة المحترفين كانوا قلة نادرة (انظر مثلا: محمد جلال كشك: كلمتي للمغفلين، دار ثابت، القاهرة، 1985م، الفصل الخامس، 275 وما بعدها). ومع ذلك فقد جاءت الأنباء بأن ضابطًا اسمه سعد الدين الشاذلي كان يقود لواء عسكريًّا بالقرب من الحدود، رفض الانسحاب، وظل صامدًا بقواته، يهدد قوات العدو،

ويحتفظ برجاله ومعداته وسلاحه، ولم ينسحب إلا بعد أسابيع من وقف إطلاق النار، وبعد تدخل جمال عبد الناصر شخصيًّا لإقناعه بالانسحاب، فعاد بشروطه مع قواته وسلاحه معززًا مكرمًا.

### الدولة القمعية تزداد شراسة:

عدل القائد والزعيم الملهم عن تنحيه أو استقالته، وتصور الناس أنه ستتم معالجة الأخطاء والفساد، ولكن الدولة القمعية ازدادت شراسة، وسمعنا عن انتحار المشير، وقيل إنه نُحر، وتمت محاكمات صورية لبعض القادة العسكريين، فاشتعلت المظاهرات الطلابية والشعبية؛ احتجاجًا على الأحكام الهزلية التي صدرت بحقهم، فأعيدت المحاكمات مرة أخرى. وصدر قرار مائع من مجلس الأمن يشير إلى انسحاب العدو من أراض محتلة بدلا من الأرض المحتلة في مقابل تسوية سياسية (ويل للمهزوم!)، وصار للاتحاد السوفيتي جذور أعمق في مصر؛ لأنه يزود مصر الجريحة ببعض السلاح، أما دول الغرب، وخاصة فرنسا، فقد عبرت عن فرحها بالانتصار اليهودي، والشماتة في العرب والمسلمين، وخرج الفيلسوف الفرنسي الشهير جان بول سارتر يقود مظاهرة ضخمة في شوارع باريس؛ تأييدًا للعدو، واستطاع أن يجمع بعد المظاهرة ملايين الفرنكات دعمًا لدولة العدوان، وصارت الدول العربية محل احتقار وامتهان، وكان من أبرز قصص الهوان أن السفراء العرب ذهبوا عقب الهزيمة لمقابلة الرئيس الأمريكي ليندون جونسون آنئذ لاستجداء حل سياسي، فما كان منه إلا أن استمر في مداعبة كلبه قائلا له: ما رأيك في شخص سفيه ظل يشتم الناس، فتصدى له غلام صغير وضربه علقة ساخنة فأسكته؟ وفهم السفراء العرب مغزى السؤال، فانسحبوا من المقابلة، والخزي يعلو وجوههم!

### إزالة آثار العدوان:

روّج أنصار النظام تعبيرًا، صكه الصحفي الأوحد محمد حسنين هيكل على لسان القائد والزعيم الملهم، وهو "إزالة آثار العدوان"، وهو تعبير حل مكان شعار تحرير فلسطين، ومن أجل ذلك تم تجنيد أجهزة الإعلام والصحافة للعمل تحت الشعار الجديد

"إزالة آثار العدوان". وللأسف ما زالت تلك الآثار قائمة حتى اليوم، بل أصبحت أمرًا واقعًا يذكرنا بالهزيمة والذل والعار.

وبمناسبة الصحفي الأوحد المقرب من الزعيم، تجدر الإشارة إلى أنه تم اعتقال مصطفى أمين، وكان قريبًا أيضًا من الزعيم، ولكن بدرجة أقل قليلا من هيكل، وتمت محاكمته بتهمة التجسس، وحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة سنوات طويلة، وأفرج عنه السادات بعد حرب رمضان. أما أخوه علي أمين فقد هرب إلى لندن، ثم استقر في بيروت، وعمل مع الصحفي سعيد فريحة في جريدة الأنوار والمجلات الصادرة عنها، ولم يعد إلى مصر إلا بعد الإفراج عن توأمه مصطفى في عهد السادات.

### سطوة التنظيم الطليعي:

كان هناك صحفيون بارزون، مثل إحسان عبد القدوس وجلال الحمامصي وكامل الشناوي وحلمي سلام وإبراهيم نوار، وغيرهم، تم إطفاء أنشطتهم بالتهميش أو الحرمان من الكتابة أو الهجرة خارج البلاد، وقد اختار الموت بعضهم، فأراحهم من العناء، أو ممارسة الكتابة بعيدًا عن الصحافة.

ودارت عجلة الحياة كسيحة عليلة، واستأنفت المدارس والجامعات الامتحانات، وعاد الناس إلى أعمالهم، وبدأت أصوات ترتفع هنا وهناك بضرورة المقاومة المسلحة، ولكن أمورًا غريبة أخذت تجري، فقد عاد القمع أشد من ذي قبل، وتمت اعتقالات بأعداد كبيرة، وازدادت سطوة التنظيم الطليعي شراسة، وصارت جهود الحكومة والشعب مسخّرة للمجهود الحربي.

### عائد من الجيش المنهزم:

أديت امتحان دبلوم المعلمين فيما تبقى من مواد، وذهبت إلى المحلة الكبرى لأؤدي امتحان الثانوية العامة. كان لدي أمل في الحصول على شهادتها هذه المرة، ولكني لم أوفق أيضًا بسبب الإنجليزي والفرنساوي – عقدة العقد!

في أثناء امتحان الثانوية كان في لجنتي طالب عائد من الجيش المنهزم. وفي البوفيه الخاص بالمدرسة جلسنا بين امتحان المواد نحتسي الشاي. عرفت أنه ذهب ضمن الاحتياط للقتال في سيناء، ولكنه في اليوم الأول تعرضت كتيبته للقصف العنيف، ففر جنودها، وهاموا على وجوههم، فلم تكن لديهم استحكامات ولا دفاعات، وحين وصل شاطئ القناة حافيًا شبه عار، التقطه من عبر به إلى الضفة الغربية. تحدث عن المناظر المأساوية التي شاهدها والدمار الذي خلفه قصف الطائرات، وأحوال الجنود والضباط المزرية، ومع ذلك بدا صابرًا متجلدًا، لديه قابلية للحياة والنجاح في الثانوية العامة!

**عجوز متحمس:**

كان هناك عجوز يشاركنا أحيانًا الجلوس في البوفيه، وكان حريصًا أن يناقش إجابة الأسئلة عقب الخروج من اللجنة، كانت حماسته مشتعلة وهو يتحدث عن الحلول التي سجلها في ورقة الإجابة. عرفت أنه كان عاملا بشركة المحلة، ولديه ولد مهندس، وبنت في كلية الطب، وكان يتكلم عنهما بمنتهى الفخر والاعتزاز والفرح، ويؤكد أنه سيواصل دراسته الجامعية بعد الثانوية العامة. سعدت بهذا الرجل وإصراره، وخاصة أنه تعلم القراءة والكتابة وهو يعمل، ورأيت فيه صورة للجهد الطيب الذي لا يعرف اليأس.

**أول المدرسة:**

عدت إلى القرية بعد امتحان الثانوية العامة أنتظر نتيجتها، ونتيجة دبلوم المعلمين معًا. جاءت الأخيرة أولا، وعرف الناس أنني أول المدرسة، وكان حدثًا مهمًّا في القرية، فسوف أعين قريبًا منها وهو ما لم يتح لمن تخرجوا قبلي، فما زالوا في أماكن بعيدة؛ بعضهم يسافر يوميًّا، وبعضهم الآخر يسكن في مقر عمله. حمدت الله على هذا التوفيق، وإن كان الحزن يسكنني بسبب الثانوية العامة التي لم أوفق فيها، وكان يعزيني أن أحدًا في القرية لا يعلم بها.

وكما أشرت سابقًا فقد ذهبت إلى الإسكندرية للالتحاق بكلية التربية، وقدمت أوراقي لأدخل قسم اللغة الإنجليزية!

**مدرسة جماجمون:**

تركت الأوراق في تربية الإسكندرية، ورجعت منها على عجل لأتسلم عملي مدرسًا في قرية جماجمون، وهي تقابل قريتنا على الضفة الأخرى من النهر، وقد استقبلني ناظر المدرسة باهتمام، فقد كان بين أسرتينا علاقة قديمة، ولكنه جعل جدولي في الصف الثاني، وسلمني فصل المتخلفين أصحاب المستوى الضعيف. صدمتني المهمة، وتساءلت: هل قدر المتخلفين أو المنبوذين أن يتجمعوا معًا؟ لماذا لا يندمجون ضمن الأسوياء، ويتم التعامل معهم بشيء من المودة والتعاطف؟! يكفي أن تقول فصل الضعاف أو الراسبين حتى تترسب في أعماقهم عقدة لا حل لها. ومع ذلك فقد قلت للناظر إنني سأبدأ معهم من الصفر؛ فهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة. أي سأتعامل معهم كأنهم قادمون من بيوتهم لم يدرسوا شيئًا من قبل، ولعلي أنجح في تحريكهم للأمام. وافقني الرجل وبدأت العمل.

**أربعون يومًا:**

كنت أعبر النهر في قارب صيد صغير أحيانًا، وفي مركب شراعي في أحيان أخرى، وظهرت مشكلة في العبور، وكنا في مرحلة الفيضان (آخر فيضان للنيل قبل الانتهاء من السد العالي)، حيث التيار الكاسح يجعل القارب أو المركب لا يصل إلى الشاطئ المقابل مباشرة، ولكنه يسحبه إلى بعيد، وهو ما يجعلني أمشي مسافة طويلة حتى أصل إلى المدرسة. ويعاني صاحب القارب أو المركب في عودته. وبعد انتهاء اليوم الدراسي كنت أركب سيارة إلى دسوق، وأعود مع الطلاب في مركبهم. وبدا الأمر مزعجًا ومرهقًا، وأخذ أصحاب القوارب والمراكب يرفضون أو يهربون بطريقة ما من توصيلي إلى الشاطئ الآخر. فأخذت أذهب مع الطلاب إلى دسوق، ثم أركب تاكسي إلى جماجمون، وأفعل الشيء نفسه وأنا عائد.

ظللت أربعين يومًا في مدرسة جماجمون، حتى جاء زميل من دسوق باستمارات نقل عن طريق بدل ثلاثي، وسألني إن كنت أوافق على الحلول مكانه في المدرسة التجريبية بدسوق، ويذهب هو إلى قريته في شباس الملح؛ ليأتي الزميل الثالث ليحل مكاني في جماجمون. كان هذا البدل إنقاذًا إلهيًّا لي لم أتوقعه. وخاصة أنه جاء في لحظة صعبة بالنسبة

لي بسبب الذهاب والإياب، ثم إنه تم في وقت قياسي؛ بحكم اهتمام الزميل الذي جاء بالاستمارات، فقد ذهب إلى المديرية، وظل يلاحق الأوراق، ويتابع تنقلها بين المكاتب، ويتحدث مع المسئولين، حتى ظهرت النشرة بالنقل وفقًا للبدل الثلاثي.

**أزهري ضحوك:**

أبدى ناظر مدرسة جماجمون أسفه لمغادرتي المدرسة، وكذلك المدرسون. كان من بينهم مدرس أزهري اسمه الشيخ عبد الحليم – رحمه الله – يأتي من قرية كفر إبراهيم المجاورة إلى جماجمون على حمار. وكان يرتدي العمامة والكاكولة، وكان يومئذ قد قارب الستين، وكان ضحوكًا دائمًا، وحين عرف جذوري الأزهرية كان يجلس معي باستمرار في غرفة المدرسين أو في الفناء، ونشرب معًا الشاي.

وفي جماجمون عرفت بعض أقارب لنا انقطعت الصلة بيننا وبينهم لأسباب لا أعرفها، ولكن بعض التلاميذ ممن يحملون اللقب جمعوا بين آبائهم وبيني، فعرفت عددًا منهم، ولكن صعوبة التواصل بين الشاطئين، وانشغال كل بهمومه جعل التواصل نادرًا.

ودعت جماجمون، وتوجهت إلى دسوق، وتسلمت العمل هناك، وصرت أذهب وأعود مع الطلاب كما كنت وأنا طالب، وبدأت أخطط لمرحلة جديدة.

**الشغل الشاغل:**

كانت الثانوية العامة هي الشغل الشاغل مذ بدأت العمل في دسوق، وأخذت أركز على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وحاولت أن أستوعب أهم ما يمكن استيعابه، وساعدني بعض من أعرف مساعدة محدودة، وكنت قد صرت متفرغًا لها، وإن كان يشاركها الاهتمام الكتابة الأدبية والنشر في الصحف، والمشاركة في مسابقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عن طريق مجلة الأديب اللبنانية عرفت عددًا من أدباء سورية والعراق والسعودية والمغرب، وتمت بيننا مراسلات، امتد بعضها إلى صداقات وعلاقات إنسانية.

تشجعت وكتبت إلى الأديب والآداب مقالات وقصصًا وبحوثًا أدبية، واهتم صاحب الأديب بما أكتب، وأرسل إليَّ المجلة مجانًا بصفة دورية، أما الآداب فطلبوا قيمة اشتراكي في المجلة، مع أني نشرت فيها مقالات دون أن أتقاضى منها مليمًا واحدًا! ولكن النشر في المجلتين جعل كتب الهدايا تتدفق علي من الأدباء في البلاد العربية.

أيضًا أخذت أنشر مقالات قصيرة في مجلة الإذاعة والتلفزيون، وكانت المجلة تكافئني على المقال بجنيهين، مخصومًا منهما قيمة التمغة.

**مسابقة مجمع اللغة:**

وكان مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد أعلن في الصحف أواخر عام **1967**م عن مسابقته السنوية في موضوع: مقومات الأدب في المجتمع الاشتراكي أو المجتمع الجديد لا أذكر، وبدا لي أن أشارك في هذه المسابقة، وكان مطلوبًا كتابة البحث على الآلة الكاتبة، وتقديم أربع نسخ منه إلى المجمع.

بحثت عن مكتب ينسخ لي البحث، فوجدت الأسعار عالية. عرفت موظفًا في المديرية لديه آلة في منزله يكتب عليها بالأجر، واتفقت على أن تكون كتابة الورقة بأربعة قروش، وأحضر له أفرخ الكربون، فاشتريت علبة كربون، بها مائة فرخ، ورحت أسلمه البحث بالتتابع. كلما فرغ من جزء كتبه وأعاده إليَّ لأصححه، فأسلمه جزءًا جديدًا لينسخه، وهكذا حتى انتهيت من البحث بعد أربعة شهور أو نحوها. كتبت ما يقرب من مائتي وخمسين صفحة، وجلدت النسخ في إحدى المكتبات، وذهبت بها إلى المجمع في القاهرة.

أذكر أن موظفًا فاضلا في المجمع – وكان في شارع مراد بالجيزة على امتداد حديقة الحيوان – رحب بي وطلب مني أن أختار اسمًا مستعارًا؛ لأنهم يحذفون الاسم الأصلي لصاحب البحث؛ حرصًا على سرية التحكيم، وسجل في أوراق لديه اسمي المستعار: الضاحك الباكي. وابتسم الرجل لاختيار هذا الاسم، وتمنى لي حظًّا طيبًا.

### كاتب أحببته:

عرفت أن الكاتب الذي أحببته، وقرأت عددًا كبيرًا من رواياته "محمد عبد الحليم عبد الله" موجود في المجمع، بل هو مديره العام، واصطحبني الموظف الذي استقبل بحثي إلى مكتبه الصغير في الدور الثاني، وكان هذا اللقاء بداية علاقة طيبة ممتدة مع أسرته حتى يوم كتابة هذه السطور، وأثمرت مجموعة دراسات عنه وكتابًا كان أول كتاب أدبي ينشر لي وهو "الغروب المستحيل: سيرة كاتب"، وقد نشره المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، بمقدمة للأديب الكبير يوسف الشاروني.

### صاحب الرسالة:

وكانت زيارتي للمجمع فرصة لألتقي لأول مرة بصاحب الرسالة أحمد حسن الزيات في منزله بالمنيل، وحين ذهبت إليه وجدت رجلا بسيطًا، استقبلني ببسمته الهادئ، وجلسنا في شرفة تطل على حديقة الفيلا الهادئة مثل صاحبها، وتحدثت معه في قضايا أدبية كثيرة، وكان يحدثني بلغة أدبية محكمة، لا تزيد فيها ولا ترخص، وتنبئ عن رجل عرك الحياة، وعرف كثيرًا من التجارب .. كان يومئذ قد قارب الخامسة والسبعين أو أكثر، ولكنه كان يحتفظ بحيوية ونشاط لا يخفيان، وأهداني معظم كتبه، ومجلدًا من الرسالة في إصدارها الأول، يضم أعداد سنة كاملة قبل احتجابها في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي.

### طه عنيف:

زرت الرجل بعدئذ في مجلة الأزهر بإدارة الأزهر قريبًا من الحسين، وكان سكرتير المجلة يومئذ الشيخ يوسف الشال، الذي زرته مرات عديدة بعد ذلك. وكانت آراء الزيات في أدباء زمانه تنبئ عن وعي عميق بطبيعة ما يكتبونه، وأذكر أنني حين زرته في الأزهر كانت أخبار اليوم قد نشرت حوارًا مع طه حسين، أجراه أنيس منصور، ونشره بالصفحة الأخيرة، وكان العنوان يشير إلى أن طه حسين قال: إنه لا يفهم عبقريات العقاد! فابتسم الرجل وقال: إن طه حسين عنيف، وأخبرني أنه – أي الزيات – هو الذي علم طه الفرنسية، وكان مرافقًا له في بعثته إلى باريس، وقد أشاد في حديثه بالقدرة الفنية لنجيب محفوظ وصالح جودت.

ولاحظت أن تقويمه لكتّاب مجلة الأزهر ينبع من تجربته الطويلة وقراءاته العميقة، فقد كان الشيخ يوسف يعرض عليه المقالات لإجازاتها، فيقول له: مقال كذا لفلان، فيقول له: يمشي، ومقال كذا لفلان فيقول له: اتركه للمراجعة، وهكذا مما ينبئ عن خبرة عميقة بالكتّاب وقدراتهم العلمية والأدبية؛ ولذا كان مستوى مجلة الأزهر ومن قبلها مجلة الرسالة جيدًا ومتميزًا.

**حرية محدودة:**

أخذت أتردد على القاهرة في رحلات شبه شهرية لنشر مقالاتي والتعرف على الأدباء، كانت معظم الصحف والمجلات القائمة تحت سطوة الشيوعيين الذين لا يقبلون بالمشاركة إلا من الشيوعيين أمثالهم، أو الباهتين الذين لا يهتمون بالموقف الفكري، وفي كل الأحوال كانت حرية النشر محدودة تمامًا، محاذيرها أكثر من مباحاتها، فكنت أمر على كثير من الصحف والمجلات فيستقبلون ما أكتبه، ثم يدخل ثلاجة الحفظ، مع وعود لا تصدق بأن النشر قريب. وبالطبع كانت سذاجتي في الكشف عن معتقداتي وأفكاري المخالفة لمعتقدات القوم وأفكارهم سببًا رئيسًا في حجب ما أكتبه، ولذا نادرًا ما كنت أرى مقالة قصيرة هنا أو هناك، فركزت على النشر في بيروت، من خلال مجلتي الأديب والآداب، وإن كانت هناك نافذة صغيرة وضيقة جدًّا في مجلة الإذاعة والتلفزيون.

عرفت في مجلة الإذاعة عددًا من الكتاب والأدباء، وكنت أشبهها لبعض معارفي من الأدباء فيما بعد، بأنها صورة مصغرة لمصر. فيها كل التيارات والألوان، وتعيش فوضى منظمة، إن صح التعبير. وكانت على كل حال مثل مصر، تعيش الهزيمة ولا تستطيع النصر، ونادرًا ما يأتيها مسئول يمكن أن يعبر بها هذه الحالة إلى خانة الفعل وإثبات الوجود بين بقية المجلات.

**الفلاح الهادئ الوديع:**

زرت الشاعر عبده بدوي في بيته بالحلمية الجديدة التي مررت منها أول مرة لأزور مسجد السيدة زينب. كانت بيننا مراسلات مذ كان مديرًا لتحرير مجلتي الرسالة

والثقافة، واستمرت بعد إغلاقهما مع مجلات أخرى. عرفت أنه من قرية مجاورة لقريتنا اسمها كفر الفراوي، وتبعد عنا حوالي عشرة كيلو مترات، وتتبع مركز شبراخيت.

لقيت في عبده بدوي صورة الفلاح الهادئ الوديع الذكي المجامل، كانت فترة تعرفي عليه في البداية مشحونة بانتقام وظيفي منه. بعد إغلاق الرسالة والثقافة أحيل القائمون عليهما وهو في مقدمتهم إلى هيئة النشر الرسمية التابعة لوزارة الثقافة، وهناك لم يجدوا مكتبًا ولا كرسيًّا .. كان عليهم التوقيع بالحضور والانصراف وعليهم فيما بين الحضور والانصراف الانتظار وقوفًا أو البحث عن الأصدقاء الموظفين في الهيئة؛ لعلهم يقطعون الوقت في الثرثرة أو تناول المشروبات الساخنة. يقول لي: لقد أفدت من هذه الفترة في استكمال الدكتوراه. كان يذهب للتوقيع في الصباح ثم يستقل الترام إلى دار الكتب في باب الخلق للقراءة والاطلاع حتى تمت مناقشة الدكتوراه في دار العلوم. وقد حضرت المناقشة، وكان يشرف على الرسالة الأستاذ عمر الدسوقي، وناقشها الدكتور محمد خلف الله أحمد، والدكتور أحمد الحوفي – رحمهم الله جميعًا – وكانت مناقشة ثرية في موضوع فريد وطريف، وهو: الشعراء السود في البصرة.

## حقائق كثيرة في الواقع الأدبي:

كان عبده بدوي قد تخرج في دار العلوم في الخمسينيات بعد حصوله على ثانوية الأزهر من معهد الإسكندرية الديني، وعمل بعد تخرجه بالتدريس، ثم التحق بوزارة الثقافة، ليكون ضمن السكرتارية الفنية بمكتب الوزير، فكان مقربًا من فتحي رضوان، ومن بعده ثروت عكاشة، ثم محمد عبد القادر حاتم. وبعد خروج حاتم من الوزارة تعرض للانتقام الوظيفي الذي أشرت إليه، ولكن حصوله على الدكتوراه يسر له السفر إلى السودان ليعمل في جامعة أم درمان الإسلامية، ثم ينضم إلى قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس، ويخرج بعدها إلى الكويت ليقضي في جامعتها فترة طويلة، تنهيها غزوة صدام، حيث ترك مكتبته ومسكنه وعاد مع بعض أسرته في طائرة حربية مع من أجْلتهم السلطات المصرية.

فتح عبده بدوي عيني على حقائق كثيرة في الواقع الأدبي والثقافي مما لا يظهر أمام الناس؛ بحكم معرفته الوثيقة بكثير من الأدباء والمثقفين في ذلك الحين، فقد كان

يشارك في النشاط الأدبي والثقافي بصورة مستمرة من خلال جمعية الأدباء والمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية (الأعلى للثقافة الآن)، وكان يقدم بعض البرامج الإذاعية، وخاصة في ركن السودان الذي ارتبط مع أدبائه بعلاقات وطيدة. كما كان في فترة عمله بالسكرتارية الفنية يدير مجلة نهضة إفريقية، وكانت مجلة مهمة؛ لأنها قدمت ما يتعلق بإفريقيا من سكان وجغرافيا وتاريخ وثقافة وأدب وشعر وعادات وتقاليد، فضلا عن حركات التحرر الإفريقية التي كانت تدعمها مصر آنئذ في معظم دول القارة.

ثم إنه استطاع في منتصف السبعينيات أن يعيد إصدار مجلة الشعر بصورة فصلية (كل ثلاثة أشهر) عن طريق مجلة الإذاعة والتلفزيون التي كان يرأس تحريرها آنئذ الأديب ثروت أباظة. وكنت أشارك في تحرير الشعر، وقد حققت نجاحًا ملحوظًا في السنوات الأولى، ولكن كان هناك من يتربص بها مستغلا إعارة عبده بدوي إلى الكويت، فتم اختطاف المجلة، وتحولت إلى مجرد مطبوعة تمتلئ صفحاتها بكثير من الغث وبعض السمين، واكتشف المختطفون أن المجلة لا تمنح عطاء ماليًّا يغري بالحرص عليها!

**أدباء مشاهير:**

وقد عرفت الطريق إلى جمعية الأدباء بشارع قصر العيني، قريبًا من ميدان التحرير، والتقيت بكثير من مشاهير هذا الزمان، وعرفت عددًا من مشاهير الأدباء العرب أيضًا، في مقدمتهم الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة، وزوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة، وكانت نازك حريصة على قضاء الصيف كل عام في مصر مع أسرتها، وكنت حريصًا على مقابلتها مع الدكتور عبد الهادي، وكتبت عنها أكثر من دراسة، وأجريت معها بعض الحوارات الأدبية، ورثيتها بدراسة طويلة عقب وفاتها ودفنها بالقاهرة قبل سنوات (عام 2007م).

وعن طريق مجلة الأديب اللبنانية – فيما أذكر – عرفت الأديب الكبير الأستاذ وديع فلسطين، وزرته في بيته في مصر الجديدة، وكان أيامها يعمل بالترجمة في السفارة الإيرانية بالقاهرة، وأهداني بعض كتبه وبعض المجلات الإيرانية التي كانت تصدر في ذلك الحين،

وتوطدت علاقتنا عبر المراسلات حتى السنة الماضية التي أصيب فيها البريد المصري بالخلل. وكان مشكورًا قد حضر ندوة عن كتابي "الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر"، عقدتها رابطة الأدب الحديث بعد صدوره في أوائل التسعينيات، وشارك فيها مجموعة من النقاد، وتحدث فيها عني وعن الكتاب حديثًا طيبًا، كما كان مشكورًا قد تفضل وأنصفني من قبل حين ذكر في إجابة عن سؤال صحفي لمجلة الثقافة في السبعينيات أن أفضل النقاد الشباب: حلمي القاعود، وعلاء الدين وحيد.

**تلاميذي الصغار:**

كنت أعمل في المدرسة التجريبية، وكنت سعيدًا بتلاميذي الصغار الذين أقمت معهم خطوط اتصال روحية وإنسانية إلى جانب خط الاتصال المعرفي، وكنت أركز على القصة وسيلة جذب وانتباه وتشويق، ولا أتردد في الخروج بهم إلى المدينة للتعرف على معالمها والتطبيق العملي على بعض الدروس، وكنت أفعل ذلك عندما يزورنا طلبة دار المعلمين للتدريب؛ حيث كانوا يساعدون في ضبط الطلاب وهم في الشارع والمحافظة عليهم، وأذكر أني كنت مريضًا وتغيبت عن المدرسة أياما ففوجئت بالفصل كله يحضر إلى بيتي في القرية ليطمئن عليَّ، وكانت لفتة إنسانية لا أنساها، والحمد لله أن طلاب المدرسة الذين درست لهم ما زالوا حتى اليوم يودّونني بالزيارة أو السؤال أو الترحيب الحار عند لقائي بهم في الشارع.

وعندما نشرت جريدة الأخبار خبر فوزي بجائزة مجمع اللغة العربية عن بحثي الذي قدمته عن مقومات الأدب في المجتمع الاشتراكي أو المجتمع الجديد، كان يومًا مشهودا في المدرسة، حيث تلقيت التهاني من الزملاء، وفرح التلاميذ فرحًا شديدًا.

**جائزة المجمع:**

وبعد أيام من نشر الخبر تلقيت شيكًا بقيمة الجائزة "عشرين ومائة جنيه" مسحوبة على البنك المركزي بالقاهرة، وكان ذلك يقتضي أن أحصل على إجازة وأسافر إلى القاهرة لأصرف الشيك، ولكن زميلا اقترح أن نذهب إلى بنك مصر بجوارنا لعلنا نستطيع أن

نصرفه دون سفر. سلمنا الشيك للبنك وأخذنا إيصالا به على أن نراجعه بعد أيام، علمًا أن هناك عمولة سيتم خصمها. ويوم حصلت على المبلغ – وكان كبيرًا بمقاييس تلك الفترة – اتجهت إلى المركب على الفور لأعود إلى البيت.

كان هناك من يريد أن يكون هذا المبلغ معينًا على الزواج، والانتقال إلى المدينة واستئجار شقة هناك لتكون عش الزوجية، ولكني وجدت أن هناك أسبقيات تفرض نفسها قبل الزواج، وفي مقدمتها بناء المنزل. كنا في الشتاء نعاني من تسرب مياه المطر عبر السقف، فنضع الأواني لتتلقى قطرات الماء التي لا نستطيع لها دفعًا، ثم إن المنزل كان من الطوب اللبن، ويحتاج إلى تنظيم؛ لأن بعض الغرف كانت مظلمة، وتعتمد على فتحة في السقف تقدم أثارة من ضوء، فرأيت أن نقوم ببناء الجزء الأمامي من البيت، ثم نستكمل الجزء الآخر، وبعد ذلك نصعد للبناء في الدور الثاني، وقد تم بالفعل بناء الدور الأول كله على مرحلتين، وتم استنفاد مبلغ الجائزة، بالإضافة إلى بعض ما ادخرته من مرتبي الشهري.

**مبلغ محترم:**

كان مرتبي ثلاثة عشر جنيهًا إلا ربع جنيه، وهو مبلغ محترم في عام **1967**م، وقد تأخر صرف الشهور الثلاثة الأولى حتى تم الاستقرار في المدرسة التجريبية. وأذكر أن أهم ما قمت به بعد استلام المرتب هو شراء قماش صوف لتفصيل بدلة ملائمة، وبعض القمصان والمناديل والجوارب، فقد صرت مدرسًا، ينبغي أن يكون مظهره لائقًا. وأذكر أني اشتريت القماش بحوالي خمسة جنيهات، ودفعت أربعة جنيهات ونصف جنيه للترزي. ثم فصّلت بعد شهور بدلة أخرى، وبعض البنطلونات ليكون لدي ملابس ملائمة.

عند اقتراب نصف السنة كان عليَّ أن أتقدم باستمارة الثانوية العامة وأطلب الامتحان ضمن طلاب المنازل في دسوق. أحسست أن مستواي في اللغتين الإنجليزية والفرنسة أفضل من ذي قبل، ورجحت أنه لن يشمت بي أحد إن شاء الله في امتحان هذا العام، فأنا أحاول وأتقدم وسط أداء عملي الوظيفي، وكتابة المقالات والقصص والبحث، فضلا عن القراءة باستمرار.

### قصص حزينة:

لأمر ما، كانت قصصي القصيرة التي كتبتها في تلك الفترة ونشرت بعضها حزينة، ويغلب عليها طابع الكآبة، ولعل ذلك يرجع إلى هزيمة 1967م القاسية. كانت معظم القصص رمزية، وكنت أحاول أن يكون عنصر المقاومة مضفورًا في ثنايا القصة. نشرت بعضها في مجلة الأديب، وأذكر أن من بينها قصة بعنوان "الموت على كوبري التاريخ" استوحيتها من مروري على كوبري التاريخ في منطقة الورديان بالإسكندرية، وقد أثارت مناقشات مهمة مع بعض أصدقائي الذين علقوا عليها كتابة في المجلة.

وذات يوم كنت في إذاعة البرنامج الثاني للإذاعة أزور الأديب والمذيع إبراهيم الصيرفي، الذي كان يقدم برنامج "كتابات جديدة"، ووجدته منبهرًا بقصة قصيرة نشرها نجيب محفوظ في ملحق الأهرام يوم الجمعة بعنوان:"الحاوي خطف الطبق"، وملخصها أن طفلا قالت له أمه: خذ هذا الطبق وهات فولا بقرش. ويخبرنا الطفل أنه نزل من البيت فوجد حلقة من الناس، ووسطها حاو يقدم ألعابه، التي شغلت الطفل وأخذت بلبه، فسلمه القرش وهو يلف على الحلقة ليطلب من المشاهدين العطف عليه ببعض ما معهم من نقود، ثم غفل الطفل عن الطبق، وعاد إلى أمه خالي الوفاض، ولما سألته عن الفول أخبرها أن الحاوي خطف الطبق!

جلست مع إبراهيم نفسر القصة وفقًا لما جرى في سيناء، وما حدث لمصر على يد قادتها، ولكن إبراهيم كان يكرر انبهاره بقدرة نجيب الفنية على الصياغة التي تقدم المحنة القومية من خلال حادث بسيط يتم تفسيره على أكثر من مستوى.

### تسويغ الجرائم:

لا ريب أن الهزيمة ألقت بظلالها على معظم الكتاب إن لم يكن كلهم، ومع ذلك فقد كان هناك من يقف موقف المدافع عن القيادات المهزومة ويسوغ جرائمها، ويحاول الضحك على الناس، وكأن الناس لا تملك عقولا تفكر بها مثله، وتستطيع أن تفهم ما يجري حولها.

الملاحظ في هذه المرحلة أن الشك تسرب إلى النفوس في كل شيء، وأخذ الناس ينظرون نظرة أخرى إلى القائد والزعيم الملهم، الذي كادوا يقدسونه من دون الله، ويرفعونه فوق مرتبة البشر، ويصدقون كل ما يقول، وراحوا ينزلونه منزلة البشر الذين يصيبون ويخطئون. لقد تبددت الثقة في إعلامه الذي تفوق على إعلام جوبلز وزير خارجية هتلر، صاحب مقولة أو فلسفة: اكذب واكذب واكذب حتى يصدقك الناس، ولكن الفارق بين هتلر وناصر أن الأخير كان يعتمد على الإعلام فقط لتسويغ هزائمه وخيباته، أما الأول فقد كان يعمل لصالح بلاده، ويحقق انتصارات على الأرض، ويملك جيشًا قويًّا، وبنى ألمانيا العظمى، مع أنه انكسر في النهاية.

**لسان شتام ودولة منهارة:**

النظرة إلى الزعيم المصري المهزوم الخائب، صارت ترى فيه مجرد لسان شتام، يقود دولة منهارة، تقوم على الأكاذيب وقمع الشعب وإذلاله، وهو ما لم يفعله هتلر بشعبه الذي كان يفاخر به ويزهو في نازية تؤمن بالتفوق العنصري الألماني، وتسعى إلى الهيمنة على من حولها. أما رجلنا المصري فقد حطم كرامة الشعب على مستوى الفرد وصعيد الوطن، وتسلم مصر ومعها السودان وقطاع غزة، فتركها بدون السودان وغزة وسيناء، والهزيمة فوق الرقاب!

اهتز إيمان الناس بما كان يسمى الاشتراكية، خاصة بعد أن صنع العسكر والموالون للقيادة المنهزمة طبقة من الأغنياء اللصوص، أثرت من شقق الحراسة والقطاع العام ومنهوبات القصور الملكية والأراضي المملوكة للأوقاف، أو أراضي الأغنياء المصادرة والمصانع المؤممة والجمعيات الاستهلاكية .. وازداد الفقراء فقرًا، وعانى الناس من أجل الحصول على السلع الغذائية، وباسم الشعار الذي رفعه القائد والزعيم الملهم: "لاصوت يعلو فو صوت المعركة" تم الصمت على الفساد والقمع وأجهزة الأمن التي صنعت دولا داخل الدولة.

وكانت هناك صراعات في قمة السلطة بين أطراف الحكم ورجالاته، وسمعنا كلامًا عن سقوط دولة المخابرات، وأحسسنا غضبًا مكتومًا يتأجج في صدور المصريين الذين أحسوا

أنهم خسروا كل شيء، وقيل إن هناك تغييرًا في الاتحاد الاشتراكي من القمة إلى القاع، وفي فبراير 1968 سمعنا عن مظاهرات الطلبة، وطلاب هندسة إسكندرية يحتجزون المحافظ حتى يتم الإفراج عن زملائهم المعتقلين.

**استعادة الإسلام:**

التغير الأخطر كان استعادة الإسلام الذي اختطفه عبد الناصر، فقد كانت الدولة ترعى الانحلال والتغريب، وتجزل العطايا والجوائز للعوالم والغوازي والمشخصاتية والطبالين والزمارين أو من يسمونهم بالفنانين، ولا صلة لهم بالفن الحقيقي ولا علاقة. لقد روجوا عبر السينما والأغاني والتلفزيون والمسرح لسلوكيات غريبة على المجتمع المصري المسلم، وفي مقدمتها العري والكذب والنفاق والمظهرية، ونشروا موضة الميني جيب والميكرو جيب، الذي يكشف معظم جسم المرأة. والمفارقة أنهم عدوا العري هو التحضر والتقدم، وتقليد الغرب في سلبياته هو التطور والانطلاق. أما العلم والمعرفة والعمل الجاد والإتقان وبناء القوة الذاتية فهذه – في مفهوم السلطة – من الهامشيات التي لا قيمة لها.

لقد أغدقوا على لاعبي كرة القدم وعدوهم أبطالا، وصارت الصحف تفرد لكرة القدم صفحات طوال عراض، وجعلوهم مثل الفنانين المثل الأعلى للشباب والناشئة. وأصبح حارس المرمى الأمي أو شبه الأمي أفضل وأغنى من أعظم علماء مصر في الذرة والكيمياء والفيزياء والأدب والفلسفة وغيرها.

رد الفعل بعد الهزيمة كان مراجعة هذا الواقع المتهرئ على مستوى الشعب كله، ولكن الذي حظي بالأسبقية كان مراجعة الموقف مع الله ومع الإيمان والعقيدة، الشعب الذي كان يحفظ الميثاق ولا يحفظ كتاب الله، ويستمع إلى إذاعة أم كلثوم ولا يفتح إذاعة القرآن، ويهتم بالموضة ولا يفكر في الاحتشام، ويقيم حفلات أضواء المدينة للرقص والغناء والطبل والزمر ويتجاهل المناسبات الدينية، ويلهج بالقومية العربية ويخجل من الوحدة الإسلامية .. كانت العودة إلى الإسلام وشعائره ومظاهره نوعًا من الرد الطبيعي على وضع الهوان والمذلة الذي خلفته هزيمة 67، المرأة أخذت تعود إلى الاحتشام، ثم ظهر الحجاب على استحياء في البداية، ولكنه انتشر بعدئذ. الكتاب الإسلامي صار له حضور في

معرض الكتاب السنوي ودور النشر .. أقلام صحفية تكتب في بيروت وتتحدث عن الهزيمة وتربطها بتغييب الإسلام .. أقدام الشباب والكبار عرفت طريقها إلى المساجد .. دعاة يتكلمون عن أهمية بناء المجتمع على أسس إسلامية .. الاشتراكية تتراجع وإن كان الشيوعيون يستغلون هيمنتهم على وسائل النشر والتعبير للدفاع عن وجودهم، وإغراق الصحف والمجلات في مصر ولبنان وسورية بالكلام عن الفكر الوجودي وسارتر وسيمون دي بوفوار والسان سيمونية وأدب العبث وأدب اللامعقول والسريالية وغير ذلك؛ كأنه محاولة فيما يبدو لصرف الناس والشباب خاصة عن الفكرة الإسلامية، ولكن هذه المحاولة لم تؤثر كثيرًا في اتجاه العودة إلى الدين، الذي أخذ يتمدد وينتشر ويبلغ ذروته مع حرب رمضان وعبور قناة السويس، حيث كان هتاف الله أكبر يزلزل القناة وأرض سيناء.

**الأمور تجري في اتجاه آخر:**

قبيل انتهاء عام 67 بشهر أو شهرين - لا أذكر جيدًا - طلبت مديرية التربية والتعليم استكمال ملف التعيين بشهادة التجنيد، فحصلت من المنطقة مثل زملائي على تأجيل التجنيد لمدة سنتين لحاجة المدارس إلى معلمين. وبناء على هذا التأجيل خطط كل منا لما سيفعله في فترة السنتين. وكان هناك شبه يقين بأن التأجيل سينتهي إلى إعفاء تام كما جرى مع من سبقونا من الزملاء، ولكن الأمور جرت بما لا يشتهي السّفِنُ كما يقال!

**رقم جلوس:**

بيد أن الأهم بالنسبة لي بعد منتصف العام كان وصول رقم جلوسي في الثانوية العامة. وكانت لجنة الامتحان في مدرسة الشهيد الصيحي الإعدادية بدسوق، وقد بذلت جهدًا ملموسًا في مادتي اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، ولكنه للأسف كان جهدًا فرديًّا؛ لأن الأمر كان يقتضي وجود مدرس خاص لكل منهما يساعدني على استيعاب أكبر، ولكن ظروفي المادية كانت لا تسمح.

عندما بدأت الامتحان كان معي زميل من القرية. كان طالبًا منتظمًا في المدرسة الثانوية ويمتحن مقرر سنة واحدة، وكنت أمتحن مقرر ثلاث سنوات معًا.

سارت أيام الامتحان هادئة، وكانت إجابتي لا بأس بها في اللغتين الأجنبيتين. في الإنجليزية كتبت في موضوعي التعبير، وترجمت إلى العربية الفقرة الإنجليزية المطلوب ترجمتها، وكانت إجابتي في بقية الأسئلة خليطًا من الصواب والخطأ. وفي الفرنسية فعلت مثلما فعلت في الإنجليزية تقريبًا. وانتهى الامتحان وأنا أستبشر خيرًا.

**أخيرًا نجحت!:**

لم أفكر في كلية التربية بالإسكندرية، ولم أسترح بصفة عامة للدراسة هناك؛ لأني لم أكن مهيئًا لها، ثم إن فرصة السير في استيعاب الإنجليزية لدراسة متخصصة تبدو ضربًا من المحال.

بعد حوالي شهر من امتحان الثانوية العامة، فوجئت بزميلي في القرية الذي امتحن معي يوقظني قبيل العصر؛ ليزف إليَّ خبر نجاحي بمجموع أكبر من مجموعه وتعانقنا. حمدت الله على نعمائه، وتولى زميلي إذاعة الخبر بين الناس، وكان أمرًا جديدًا بالنسبة لهم، فقد كنت أول من يحصل في القرية على الثانوية العامة من منازلهم.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وسحبت الاستمارة الخاصة بالنجاح، وجدت الدرجات مرتفعة في معظم المواد باستثناء الإنجليزية والفرنسية، فقد حصلت فيهما على درجات الحد الأدنى، ويبدو أنه كانت هناك رأفة ضمنية؛ فقد حصلت في الإنجليزية على 24 من 60، وفي الفرنسية كانت الدرجة 16 من 40.

كان نجاحي بعد إخفاق تكرر في السنوات الماضية نقلة نفسية مريحة، ونقطة ضوء مبهجة، أمدتني بمزيد من الإصرار على تحقيق حلم طالما فكرت فيه، وهو الدراسة في الجامعة بعد تحولات الأزهر والمعهد النموذجي ودار المعلمين وتربية الإسكندرية.

ذهبت إلى القاهرة لأتقدم إلى مكتب التنسيق للالتحاق بالكلية المناسبة. كان أمامي فرصة الالتحاق بواحدة من كليات الحقوق والآداب والتجارة ودار العلوم ومعاهد أخرى

تابعة للتعليم العالي، ولكن فضلت دار العلوم، وكتبتها رغبة أولى، وجاءني بعد أيام إخطار القبول بدار العلوم، فحمدت الله.

**الطريق إلى قصر الثقافة والشبان المسلمين:**

رحت أقضي بعض أيام إجازة الصيف في الإسكندرية قبل الدراسة. عرفت الطريق إلى قصر ثقافة الحرية وجمعية الشبان المسلمين. في القصر كانت هناك ندوات أدبية أسبوعية لأدباء الإسكندرية المحليين، وكان يحضرها الشباب والراسخون، وقد شاركت فيها وتعرفت على معظم الأدباء يومئذ، وكان القصر يستضيف بعض أدباء القاهرة المعروفين لإلقاء محاضرات أو مناقشة أعمال الأدباء المحليين. أما جمعية الشبان المسلمين فكانت تستضيف كبار أدباء القاهرة في لقاءات مفتوحة، وأذكر أنني استمتعت بالحوار مع محمود تيمور وثروت أباظة هناك.

**خبر مزعج:**

في أول يوم في العام الدراسي الجديد، وبعد دخول التلاميذ في طابور الصباح، طلبتني ناظرة المدرسة، وكانت سيدة مهذبة، وقالت لي: لدي خبر لم أكن أحب أن أنقله إليك!

أحسست بقلق واضطراب، فقد انصرف ذهني إلى شيء يخصني على المستوى الشخصي أو العائلي، ولكنها تداركت الموقف حين أخبرتني أنه لابد من تحديد موقفي من التجنيد؛ لكي لا يتم وقفي عن العمل. كانت المديرية - بناء على أوامر عليا قد قررت إيقاف المدرسين الذين ما زال موقفهم من التجنيد غير مكتمل، ويشمل المؤجل تجنيدهم والذين لم يصبهم الدور. هدأت وعدت إلى البيت وسافرت إلى الإسكندرية مع أبي لعلنا نحاول تأجيل التجنيد، وبعد حوالي أسبوعين فشلت المحاولة، وكنت قد عرفت في منطقة التجنيد أنهم سيجندون كل الشبان، سواء من تأجل تجنيده أو لم يصبه الدور، وسيأخذون جميع الموجودين المؤهلين في المنطقة ما عدا ذوي العاهات الظاهرة؛ لأنهم بصدد إنشاء

جيش من المؤهلات؛ حتى يستطيع التعامل مع المعدات والأسلحة الحديثة، وبذلك يصححون خطأ قديمًا بالتركيز على تجنيد الأميين الذين لا يستيطعون الجلوس أمام شاشات الردار وقراءة البيانات، واستيعاب المفاهيم العلمية المرتبطة ببعض الأسلحة. عاد أبي إلى القرية حزينًا بعد أن تركني للتجنيد. كان أمله أن أبقى ولو عامًا واحدا خارج التجنيد لأساعد الأسرة في بعض شئونها، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

وجدتني مع بعض الزملاء الذين عرفتهم في دار المعلمين سواء من كانوا معي في صف واحد أو سبقوني في الدراسة نرتدي لباس العسكر. رأيت أعدادًا مهولة من الخريجين من كل الجامعات والمعاهد، وكان إلى جواري ابن وزير للإسكان في ذلك الوقت، نسيت اسمه.

**تسلم المخلاة:**

كان نصيبي مع زميل لي الانخراط في سلاح المهندسين، وتسلمنا المخلاة التي بها الملابس العسكرية والبطاطين والحذاء وبقية المستلزمات الشخصية للمجند.

حصلنا - فيما أذكر - على إجازة قصيرة لمدة أربع وعشرين ساعة حتى يتم ترحيلنا إلى حلمية الزيتون بالقاهرة، فذهبت إلى مدرستي لأخبرهم أنه تم تجنيدي مع بداية فصل الخريف أو 1968/9/23م، ليخطروا المديرية بموقفي حتى أوافيهم بخطاب يثبت تجنيدي بالقوات المسلحة.

كنت أفكر في شقيقي الذي وصل إلى الفرقة الخامسة الثانوية القسم العلمي بمعهد دسوق الثانوي الأزهري، وينتظر أن يلتحق بإحدى الكليات الأزهرية في القاهرة .. كيف سأساعده، أو كيف له أن يستمر والظروف غير مواتية؟

سلمت الأمر لله وحده، وعدت إلى منطقة التجنيد بالإسكندرية لأواجه مرحلة جديدة، وأودع العهد الجميل، أو زمن البراءة، والنيل الذي كان بطعم الجوافة حيث توقف الفيضان السنوي إلى الأبد بسبب اكتمال بناء السد العالي ..

ودعت مدرستي ..

وودعت تلاميذي ..

وودعت القراءة ..

وودعت الكتابة ..

وذهبت إلى المجهول!

(تم الجزء الأول زمن البراءة، ويليه الجزء الثاني إن شاء الله).

**حلمي محمد القاعود**

(ذو الحجة 1433هـ= أكتوبر 2013م)

* * *

## كتب للمؤلف

## الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

### أولا: كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض:

1- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته، 1427هـ= 2006م.

2- تيسير علم المعاني، 1427هـ= 2006م.

3- الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، 1428هـ= 2007م.

4- محمد ﷺ في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) 1429هـ= 2009م، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة (مصر)، 1408هـ= 1987م.

5- المدخل إلى البلاغة القرآنية، 1428هـ= 2007م.

6- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة)، 1430 هـ= 2009م.

7 - تطور النثر العربي في العصر الحديث، 1429 هـ= 2008م.

8- مدرسة البيان في النثر الحديث، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1986م.

9- تطور الشعر العربي في العصر الحديث، 1431هـ= 2010م.

10 – المدخل إلى البلاغة النبوية، 1432هـ= 2011م.

### ثانيًا: كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ):

1- الإخوان والنظام: برنامج الحزب المستحيل، 2009م.

2 - وجوه عربية وإسلامية، 2008م.

3 - الورد والهالوك: شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة)، 2009م، الطبعة الأولى، دار الأرقم، الزقازيق (مصر)، 1413هـ = 1993م.

4 - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة)، 2008م، الطبعة الأولى، دار البشير، عمّان (الأردن)، 1416 هـ = 1996م.

5 - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة)، 2010م، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

6 - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية)، 2009م، الطبعة الأولى، نادي جازان الأدبي (السعودية)، 1418 هـ = 1998م.

7 – روائع القصص النبوي: في رياض النبوة (4 أجزاء)، الطبعة الثانية، دار الصحابة، طنطا (مصر)، 2012م.

8 - شعراء وقضايا: قراءة في الشعر العربي الحديث، 2008م.

**ثالثًا: كتب صادرة عن مكتبة جزيرة الورد – القاهرة:**

1- التمرد الطائفي في مصر: أبعاده وتجلياته، 2011م.

2 – العمامة والثقافة: دفاع الإسلام وهجوم العلمانية، 2011م.

3 – عباد الرحمن وعباد السلطان ،2011م.

4– الأقلية السعيدة: يوميات التمرد والتسامح، 2011م.

5- ثورة الورد والياسمين: من سيدي بوزيد إلى ضفاف النيل، 2011م.

6 - اخلع إسلامك .. تعش آمنا!، 2011م.

7 – تدبير المنزل – ما بعد الثورة ،2011م.

8 – الضيافة والشهادة، 2011م.

9 – عواصف الربيع العربي، القاهرة، 2011م.

**رابعًا: إسلاميات:**

1 - مسلمون لا نخجل (4 طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، 1399هـ = 1979م.

2 - حراس العقيدة (3 طبعات)، الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، 1399هـ = 1979م.

3 - الحرب الصليبية العاشرة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

4 - العودة إلى الينابيع: فصول عن الفكرة والحركة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

5 - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت

6 - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

7 - هتلر الشرق، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

8 - جاهلية صدام وزلزال الخليج، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1412هـ = 1992م.

7 - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان)، طبعة السعودية، مؤسسة آسام للنشر، الرياض، 1412هـ = 1992م.

8 - النظام العسكري في الجزائر، دار الاعتصام، القاهرة، 1414 هـ = 1993م.

9 - حفنة سطور .. شهادة إسلامية على قضايا الأمة، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، 1414هـ = 1993م.

10 - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة، مركز الإعلام العربي، 1423هـ = 2002م.

11 - الإسلام في مواجهة الاستئصال، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ = 2004م.

12 - تحرير الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1425هـ = 2004م.

13 - دفاعا عن الإسلام والحرية، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

14 – التنوير .. رؤية إسلامية، دار الاعتصام، القاهرة، 1417هـ = 1997م.

15 - معركة الحجاب والصراع الحضاري، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1429هـ= 2008م.

16 - العصا الغليظة، كتاب المختار، القاهرة، د. ت.

17 - واسلمي يا مصر، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، طنطا (مصر)، 1414هـ= 1993م.

18 - ثقافة التبعية: المنهج .. الخصائص .. التطبيقات، دار الفضيلة، القاهرة، 1417هـ= 1997م.

19- انتصار الدم على السيف، مركز الإعلام العربي، القاهرة، 1432هـ= 2011م.

20 - المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان (المغرب)، 2012م.

21- أهل الفن وتجارة الغرائز، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.

**خامسًا: كتب أدبية ونقدية:**

1- الغروب المستحيل (سيرة كاتب)، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، د. ت.

2- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان)، عدد خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية، الفاهرة، 1974م.

3- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، القاهرة، 1976م.

4- موسم البحث عن هوية: دراسات في الرواية والقصة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.

5- حوار مع الرواية في مصر وسورية، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.

6- الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، 1427هـ=2007م.

7- إنسانية الأدب الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار (مصر)، 2008م.

8- حصيرة الريف الواسعة، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار ( مصر)، 2008م.

9- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة، وزارة الأواف والشئون الإسلامية، سلسلة روافد، الكويت، 1430هـ= 2009م.

10- – الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية)، دار حضر موت، المكلا (اليمن)، 2011م.

11- الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) دار الاعتصام، القاهرة، 1418هـ= 1998م.

12- بالاشتراك مع آخرين، نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012م.

13- بالاشتراك مع آخرين، أمل دنقل عابرًا للأجيال، تحرير وإشراف: أسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2013م.

14- مطولة علي أحمد باكثير، مطبوعات نادي جازان الأدبي (السعودية)، د. ت.

15- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)، دار الهلال، 1976م.

16- لويس عوض: الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام، القاهرة، 1414هـ= 1994م.

17- نحو رواية إسلامية، ملحق المجلة العربية (29)، الرياض، 1420هـ= 1999م.

**سادسًا: إعلام:**

1- الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية، ط2، دار الاعتصام، القاهرة، 1423هـ = 1992م.

**سابعًا: كتب للأطفال:**

1- واحد من سبعة، هيئة قصور الثقافة، سلسلة كتاب قطر الندى – العدد 164، القاهرة، د. ت.

**ثامنًا: كتب محققة:**

1- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي، وموقفه إزاء المدنية الغربية، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

2- طائفة من المؤلفين، أحسن ما كتبت، دار الفضيلة، القاهرة، 2010م.

3 – المتنبي، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) دار الفضيلة، القاهرة.

4 – تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي (تحت الطبع)، دار الفضيلة، القاهرة.

**تاسعًا: كتب معدة للنشر:**

1- الإبادة والمقاومة: الشعب الفلسطيني لا يموت.

2– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة).

3- الحلم والدهشة (قراءة أدبية).

4– اللحم الإسلامي المستباح.

5- حضرت التبعية .. وغابت الهوية.

6- صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا).

7- نداء الفطرة.

8- ثقافة تزغيط البط!.

9- محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم!.

10- القيم الإسلامية في رسائل النور.

11- كهنة آمون!.

12- الصرب في مصر.

13- الوطن على كتفي!.

14- القبضة الفولاذية.

15- على باب الحرية.

* * *

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| 1 - شبكة عائلية كبيرة | 5 |
| 2- صاحب الكرامات | 28 |
| 3- التبر السائل | 48 |
| 4 - البركة والستر | 67 |
| 5 - اقرأ باسم ربك | 89 |
| 6 - الأزهر المعمور | 112 |
| 7 - أفق على النهر | 134 |
| 8 - مفترق الطريق | 156 |
| 9 - القلم وما يسطرون | 177 |
| 10- أطياف ومخاوف | 199 |
| 11- كانت هزيمة! وكان ذل! وكان عار! | 222 |
| كتب للمؤلف الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود | 245 |
| الفهرس | 253 |


* * *